

التلميذ
الخالد
أحمد الصاوي

إيف كوري

احمد الصاوى محمد

التلميذة الخالدة

MARIE SKLODOWSKA CURIE



ملتزم النشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



التلميذة الخالدة

الناشر

للمؤلف :

مدرسة الشباب

* كفاح الشباب * مآسى الشباب * زواج الشباب
(ثلاثة مجلدات فى محفظة انيقة)
* بنات * شباب القولجا * حياة قلب

مدرسة العبقرية

* فوشيه : السياسى الاعظم البوليسى الاعظم
* هاينى : او حياة العذاب والابداع
* التلميذة الخالدة او حياة مدام كورى
* حياة بلزاك : او القصصى الاعظم
* حياة شللى : او قبور فى جنة الحب
* حياة بيرون : او دون جوان
* عرش وقلب : او حياة لويس الرابع عشر
* المغنى المجنون : او حيـاة كاروزو (اقرأ)

مدرسة المجتمع

* الغيرة من الماضى
* زوجات
* انا الشرق
* رجال ونساء (١)
* رجال ونساء (٢)
* الموجة العذراء
* العاصية (مصور)
* غانيات (مصور)
* مذبحة او الشيطان لعبته المراة
* المراة لعبتها الرجـل (مصور)
* جرائم شرقية وغربية

مدرسة الحرب والسياسة

* مأساة فرنسا (مصور)
* اسرار انهيار اوربا
* الرقص على البارود
* الطابور الاول (مصور)
* الوحش الاصفر والدب الاحمر (مصور)

---

* باريس * تاييس * عدو المجتمع * افروديت
* طرطوف * الزنبقة الحمراء * فى الحياة والحب
* ما قل ودل (جزءان) * عبيد الذهب (تمثيلية)
* الاصلاح فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ « بالفرنسية »
* الصحافة المصرية منذ نشأتها الى اليوم « بالفرنسية »

تضمين أمين

عن الكاتبة المجاهدة الذائعة الصيت

إيف كورى

EVE CURIE

كريمة [التلميذة الخالدة]

سنة الطبع ١٩٣٨م

الإهداء

إلى

الصديق الجراح العظيم

الأستاذ الدكتور عبد الوهاب مورو باشا

اعترافاً بجميله

لتلك المعجزة الجراحية التى أجراها لوالدتى

فى أكتوبر ١٩٣٥

فأعطانى من عمرها ، ومن حبها : أعز السنين

وأنقذها بكل ما فى طاقة العلم والنبوغ

من الداء العياء الذى وقفت عليه

[التلميذة الخالدة]

بعض جهادها ، وعبقريتها ، وحيانها

صبرى



للذكرى

ذكرى امرأة
تزوجت فى الرابعة عشرة وترملت فى العشرين
وماتت فى الخمسين

اماه كنت اناديك بلسانى ، من صميم وجدانى ... والآن لم يعد لى الا الحبر والورق ، لأنك ترفعت عن دارنا ، وسئمت جوارنا ، وآثرت جوار الله .

سأعود الى البيت فأجد الظلام سائداً ، لأن عينيك العزيزتين لا تضيئانه ... واجد السكون شاملا ، لأن قلبك الذى كان يخفق بحبى ، غائباً وحاضراً ، قد كف عن الخفقان ...

سأمرض ، فلا اجد يدك تربت على خيراً من الدواء ، ولا احس قبلاتك وعبراتك التى فيها البرء والشفاء ... وقد أسعد ، فلا القاك تشتركين فى سعادتى التى هيهات أن تتم من دونك ، او تكون بغير حضورك ... وسأشقى أياماً طوالا ، شقاء لا عهد لى به ، لأنك لست معى تحملين اعباء شقائى ، كما فعلت مدى ثلاثين عاما ونيف ...

ان الأيدي الغريبة ستحضر لى طعامى ، فلا اجد له بعدك طعماً ولا مذاقاً ... فقد كان ما تقدمين لى من الطيبات من صنع روحك لا من صنع يدك !..

سأسافر الى بلاد بعيدة ، فلا احمل فى فؤادى دموعك الطاهرة ، زاد التقوى ... وسأعود ، فلا يتفتح قلبى لضحكاتك الساحرة ... لن اجد بعدك لوعة الذهاب ، ولن أذوق بعدك متعة الاياب !..

يا حبيبتى اننى كلما ذكرت ، أيام مرضك وأنت تبكين وتقبلين يدى (لأغفر لك !) ، صياحك من هول الألم ، وشكواك ... أكاد افقد رشدى ، أو افقد ايمانى ، وكلا الأمرين شر ... فأذكر قول اناتول فرانس : « انى أغفر لله كل شىء الا الألم » ... ثم اعود فأجد انك انت الشهيدة فى كل حياتك ، من المهد الى اللحد ... ربما اردت أن تتممى رسالتك ... فتعذبت هذا العذاب الأليم كله ، حتى اذا نزل قضاء الله ، استروحت قلوبنا بعض العزاء والسلوى ... لأن الله ، آخر الأمر ، قد لطف بك ، فكف الداء الذى لا دواء له عن قتلك البطىء الفظيع ، وعن قتلنا معك ... فكأنك من وراء القبر ايضاً قد احسنت الينا ، احسن الله اليك ...

يا صديقتي لقد علمتني ما هو الحب وما هو الخير ، فصرت في حيـاتي امزج الخير بالحب ، وامزج الحب بالخير ... واعيش بهما ، واعيش لهما ، ولا أفرق بينهما ... واني أعاهدك على ان احيا ، واموت ، بالحب والخير ، على لساني جزءاً من جَناني ...

لقد كنت يا اماه تدعين الله ان احملك على يدي ... فلما حان الفراق لم احملك بيدي ، بل وقفت مسلوب العقل ، انظر بجمود الى اذرع اخرى قوية ، اجنبية ، تحمل شخصاً لا اصدق انه هو الذى كان كل حياتي !.. لأنك انت فى قلبي منذ مولدي ... وأنت فى قلبي: تلميذاً يتيما فى القاهرة ، وطالباً فقيراً فى باريس ، وشاباً معذباً بخياله ، ورجلا شقيا بآماله ... وانت أنت فى قلبي يا اماه ، ما حييت ، وبعد الحياة نفسها ... واننى لأعلم اننى أعيش فى فؤادك الحى ابداً ، لأن قلوب المؤمنين جزء من الله الحى الذى لا يموت ...

يا بنيتي انك كنت فى السنوات الأخيرة كالبنت الصغيرة... كنت صغيرتى ، واصبحت لك اماً وابا ... كنت طفلتى العزيزة المدللة ، ورددت اليك بعض حنانك وانا طفل ... اما حنـانك وانا فتى ، واما حنانك وانا شـاب ، واما حنـانك وانا رجل ... فهيهات أن يتسع له فى الدنيا غير قلب الأم ...

يا حبيبتي لقد عاش الموت بيننا ، فى هذه السنين الثلاث ، وكأنه فرد من أسرتنا ، يسكن بيتنا ، ويمد يده الى الطعام والشراب معنا ، ويستمع الى الحـديث ، ويتدخل فيه !.. وكنت ، كلما شكوت أو توهمت ، اضحك كاذباً حتى تطمئن نفسك ، ونفسي تتمزق ، لأن الموت كان نزيلا مقيماً واقفاً بالمرصاد ... لا يشفق ، ولا يحيل ، بل يسخر ، ويقهقه بفظاعة ، ويسقيك السم قطرة قطرة ، ثم جرعة جرعة ... ويسقيني ...

يا صديقتي قد آن لى ان اختم هـذه المناجاة ... وانت تعرفين السبب ، لأن اجمل ما كان يدور بيننا كان همساً لا يسمعه احد ، ولا يفهمه احد ...

سـاناديك صـادعاً يا اماه ، وانا واثق من انك ، من وراء الابدية ستلبين النداء ، وتجيبين الدعاء ... فاقول لك :

« والآن اماه الى اللقاء ... »

(الأهرام) فى ٢ نوفمبر ١٩٣٨ — « ما قل ودل »

مقـــدمة

إن فى حياة مارى كورى من الآيات البينات ما يجعل قصتها كأسطورة من أساطير الأولين .

* * *

فهى امرأة . . وهى تنتسب إلى أمة مغلوبة على أمرها . . وهى فقيرة . . وهى جميلة .

وإن نداءً قويا دعاها إلى مغادرة وطنها « بولونيا » ، لتدرس فى باريس ، حيث عاشت سنين فى وحدة وإملاق .

وهناك تلقى رجلا عبقريا مثلها ، فتتزوجه . فيصبح هناؤهما فذًّا فريداً . .

ويبذلان جهداً ، أشد الجهود إضناء وجدباً ، إلى أن وفقت مارى وبيير كورى لاكتشاف عنصر سحرى ، هو الراديوم . ولم يهيء اكتشافهما هذا لمولد علم جديد وفلسفة جديدة فحسب ، بل هيّأ كذلك للجنس البشرى كله : سبيل علاج ناجع لداء فظيع .

وفى اللحظة التى يشرق فيها مجد هذين العالمين الخيّرين على العالم ، يخطف الموت من مارى زوجها ، رفيقها العظيم ، فى طرفة عين . . .

وعلى الرغم من جزع القلب وأوجاع البدن ، تمضى وحدها فى العمل الذى بدأته وإيّاه ، وتتقدم بالعلم الذى خلقاه معاً .

وليست بقية حياتها إلا هبة سخية ، وعطاء متصلا . . فهى تكرس لجرحى الحرب كيانها ، وتقف عليهم صحتها . . ثم تعطى ، فيما بعد ، نصائحها ، ومعرفتها ، وكل ساعة من وقتها لتلاميذها : علماء المستقبل الذين قصدوها من كل بقاع الأرض .

* * *

وما كنت لأغتفر لنفسى ذنبها لو أننى حاولت أن أضيف أقل الزينة إلى هذه القصة ، الشبيهة بالأسطورة . . فلم أرو حكاية واحدة إلا وأنا واثقة منها . . ولم أحور أو أبدل جملة واحدة أصيلة ، أو أبتكر لون فستان . . فالوقائع حدثت ، والأقوال فعلا قيلت .

ولما أتمت رسالتها ، وأبلغتها ، ماتت ، وقد أضنتها العلل ، بعد ما أبت المال والثراء ، واستكبرت على نفسها التكريم ، ولم تعبأ بالنعم والآلاء . . .

وإنى لأرجو أن يشعر قارىء هذا الكتاب ، شعوراً متصلا ، خلال صفحاته ، بأن شيئاً فى مارى كورى كان أندر من عملها ، ومن ذات حياتها ، وهو بناء خلقها المتين المكين ، وجهد ذكائها الملح العنيد ، والقربان الخالص من مخلوقة تستطيع أن تعطى كل شىء ، ولا تأخذ أو تتقبل شيئاً . . وفوق هذا كله : نوع هذه النفس التى ما كان للشهرة الذائعة ، ولا للشدة القارعة ، أن تغير ذرة من جوهرها النقى ، وصفائها النادر . .

ولما كانت لمارى كورى هذه النفس العلوية ، رفضت أعراض

الدنيا وأموالهـا ، والمزايا التى يحصل عليها أمثالها ، من النابغين والعظماء الذين دانت لهم شهرة لا حدّ لهـا .

وقد تألمت من الدور الذى أرادتها الدنيا على أن تلعبه . وكانت طبيعتها من دقة الحس وكرامة الحرص بحيث ظلت عاجزة ، إلى النهاية ، عن اتخاذ الموقف الذى يقترحه عليها المجد ، أو الشكل الذى يقتضيه ذيوع الصيت والحرص على الكرامة ، فلم تعرف الوقوف فى المعارض ، ولم تحسن المشى فى المواكب .

ولم تدر كيف تكون شهيرة !

* * *

كانت أمى فى السابعة والثلاثين عندما ولدت . ولمـا كبرت إلى حد أن عرفتها حق المعرفة ، كانت هى قد صارت امرأة مسنة ، بلغت ذروة الشهرة . ومع ذلك فان « العالمة المشهورة » هى هى التى أجهلها ، ولعل ذلك راجع إلى أن فكرة علمها وشهرتها لم تكن تشغل بالهـا . . بيد أنه يخيل إلىّ أننى عشت دائماً مع الطالبة الفقيرة ، المسحورة بالأحلام التى كانت تدعى : « مانيا » أو « ماريا سكلودوفسكى » ، قبل أن أجىء إلى الدنيا بزمن طويل .

وكانت مارى كورى ، فى يوم موتها ، لاتزال تشبه تلك الفتاة . ولم تستطع مهمتها ، الطويلة المدى ، العظيمة الأثر ، الجليلة الخطر ، أن تكبرها أو تصغرها ، ولم تستطع أن ترفع ، ولا أن تخفض ، من قدرها .

فقد كانت ، فى ذلك اليوم الأخير ، لطيفة ، عنيدة ، حيية ، متطلعة إلى جميع الأشياء ، كما كانت فى أيامها الخاملة الأولى . . .

ولقدسية سرها ، كان من المستحيل أن تُفرض عليها ، فى يوم موتها ، دون تجديف ، الجنائز الرسمية الحافلة ، التى تقدمها الحكومات لعظمائها . .

فدفنت ، فى هدوء شامل ، وبساطة مطلقه ، فى مقبرة ريفية ، بين أزهار الصيف . . حتى كأن تلك الحياة التى انتهت لم تكن إلا مثل ألوف غيرها .

* * *

ألا ليت لى موهبة كاتب ، لأتحدث عن **«التلميذة الخالدة»** التى قال عنها آينشتين :

« *إنه مارى كورى من بين جميع المشهورين ، هى وحدها التى لم يفسدها المجد* » .

فمرت ، فى ذات حياتها ، كأنها أجنبية عنها ، ماثلة ، على سجيتها ، لا تكاد تتبين مصيرها المدهش ، الذى يحير الألباب . . .

إيف كورى

الجزء الأول

الفصل الأول

مانيــــا

يسود السكون شوارع « ڤارسوفيا » أيام الآحاد . ولاسيما « شارع نوڤوليبيكى » ، حيث كانت مدرسة الصبيان المحفور اسمها على الحجر بحروف روسية ، فوق الباب الكبير الموصد بالرتاج . . وكانت الردهة ذات الأعمدة أقرب ماتكون إلى معبد مهجور . لقد غابت الحياة عن هذا البناء الواطىء الممتد ذى الطابق الواحد ، المنتشرة فيه أدراج التلاميذ الخشبية ، التى حددتها ضربات « المطاوى » وأسنان الأقلام بالأحرف الأولى من الأسماء . . ولم يعد يسمع إلا جرس كنيسة « العذراء » المجاورة ، أو دوىّ دولاب عربة من حين إلى حين ، أو وقع حوافر جواد يقطع الطريق . . ووراء الباب الحديدى أينعت فى حوش المدرسة أربع شجيرات زنبق يتضوع شذاها على المـارة . فيلتفتون إلى ندائها الصامت الذكى ، معجبين .

وكان الجو حارًّا ، ولم يبق من شهر مايو إلا أقله .. فمدينة فارسوفيا شمسها شواظ من نار ، كما أن ثلجها زمهرير .

ومع ذلك كان هناك شىء يعكر ذلك الهدوء الشامل ؛ فقد كان الجناح الأيسر من البناء هو مسكن المسيو « ڤلاديسلاو سكلودوڤسكى » (Wladyslaw Sklodowski) أستـاذ الطبيعة ووكيل المدرسـة . .

وكانت تصدر منه صيحات حادة ثاقبة ، وضربات كأنها وقع مطرقة . ثم صوت انهيار قصر من قصور الأطفال . . فقد كانت « مانيا » تلاعب « جوزيف » بالمكعبات الخشبية ، وكانت ساحة المعركة حجرة واسعة مربعة تشرف نوافذها على حوش المدرسة الداخلى ، وفى أركانها أربعة أسرة صغيرة . . وكان أربعة أطفال ، بين الخامسة والتاسعة ، كأنهم فى معركة حامية : « جوزيف » و « برونيا » و « هيلا » و « مانيا » . ولا عجب إذا فاز الأول ، فسدد إليهن مدافعه وربح منهن أرضاً ، وزحزحهن عن مواقعهن . . فهو الأقوى ، وهو الأكبر ، وهو الأعلم ، وهو أيضاً الرجل الوحيد بينهن ، من حوله بنات ، وليس إلا بنات . كلهن فى زى واحد ، وقد وضعن على ثياب يوم الأحد ، مريلات صغيرة ، قاتمة اللون ، ذات جيوب.

والحق أن أولئك البنات كن يحسن النضال ، يناضلن بقوة . فكانت عينا «هيلا» تشعان بحماسة وحشية .. كانت «هيلا» ناقمة على أن ليس لها من العمر إلا ست سنوات ونصف سنة ، كانت تريد أن تسبق فى اللعب وتنتصر ، كانت تحسد السنين الثمانى التى لأختها برونيا. تلك العبلة الشائقة ، ذات الشعر الأشقر المنطلق غدائر كأنها أسواط تضرب الهواء .. وإلى جانب « برونيا » مساعدتها الصغيرة « مانيا » تجمع لها ، من الأرض ، ذخيرتها لمعركة المكعبات الخشبية .

ــ ماذا جرى ؟ . .

قالت ذلك « زوسيا » كبيرة أولاد سكلودوفسكى الخمسة ، وهى تدخل . . وقد بدت ، بين إخوتها ، كبيرة ، وإن لم تكن قد بلغت

بعد سنتها الثانية عشرة . وكان شعرها البلاتيني طليقاً ، متهدلا على كتفيها . . وكان وجهها جميلا مشرقاً ، وعيناها حالمتين . فيهما لون الرماد الحار . . .

– أمي تقول : إن لعبكم قد طال ، فكفى لعباً . .

فحاولت مانيا البقاء بقولها :

– ولكن برونيا في حاجة إليّ . . فانني أنا التي تحمل إليها المكعبات

– إن أمّي تدعوك إليها .

وبعد لحظة تردد ، أخذت مانيا يد أختها وخرجت في كبرياء . . وكان في الحجرة المجاورة صوت رقيق ، يدعوها ويدللها بالأسماء المصغرة المنوعة حناناً وحبا :

– مانيا . . مانيوزيا . .

ففي بولونيا يغرمون بهذه المصغرات ، وفي أسرة سكلودوفسكي هذه يطلقون « زوسيا Zosia » على « صوفي Sophie » ، البنت الكبرى . و « برونيا Bronia » عندهم بدل « برونيسلافا Bronislawa » . وقد أصبحت « هيلانه Helana » : « هيلا Hela » . . أما جوزيف فهو « جوزيو Jozio » . بيد أنه لم يحظ أحد ممن في البيت بمثل ماحظيت به « ماريا » – الصغرى – من المحببات المدللات : فهي آخر العنقود ، وهي عزيزة البيت . فهي « ماريا Marya ومانيا Mania ومانوزيا Maniusia » . . الخ .

وعطفت عليها أمها تصلح من زينتها ، بيدين شاحبتين نحيلتين ، وتنظم شعرها ، وترفع دوائره المسدلة على الوجه العنيد ، وجه عالة عظيمة ،

من علماء المستقبل . . فخضعت الصغيرة ، واستسلمت ، وسُرِّى عنها .

إن حب مانيا لأمها لا حد له . . فقد خيل إليها أنه ما من مخلوقة على ظهر الأرض تضارعها رقة وطيبة قلب ، أو حكمة . . .

وكانت أُم هذه الأم كريمة المنبت ، قليلة المال . . فتن بها زوجها ، فاقترن بها خفية ، رغم احتجاج والدى الفتاة الجميلة ومعارضتهما . . ثم مرت السنون والأيام . . . وأنجبا ستة أولاد ، كانت بينهن ، بلا شك ، مدام سكلودوفسكى ، والدة مارى بطلة هـذا الكتاب ، أوفرهن اتزاناً ، وأشدهن ذكاء ... فليس فيها من الشذوذ ، أو القلق ، أو التهور ، ما نراه فى الجنس السلافى ألواناً . . وقد تربّت تربية فنية فى إحدى مدارس ڤارسوڤيا ، وأصبحت معلمة فى المدرسة نفسها التى تخرجت فيها ، ثم ناظرة لهـا . فعندما طلب يدها الأستاذ ڤيلاديسلاو سكلودوفسكى كان قد اختار بلا شك زوجة فاضلة . . لم تكن ذات مال ، ولكنها كانت كريمة العنصر ، نقية ، عاملة ، ولهـا مهنة ثابتة . وكانت كذلك موسيقية ، تعزف على البيانو ، وتغنى بصوت مشج أغانى ذلك العهد . .

ثم هى جميلة جدا . . فى صورة زواجها نرى محياها الفاتن ، وشعرها السخى الغزير الناعم ، وأهدابها الهلالية المدهشة ، ونظرتهـا المطمئنة ، من عينيها الرماديتين النجلاوين ؛ كالعيون المصرية . . .

وفى ٧ نوفبر ١٨٦٧ ولدت من هذا الزواج الموفق ، فى هذا البيت السعيد ، مانيا الصغيرة : **(مارى كورى)** . . .

— والآن ، هل نمت ياحبيبتى مانيوزيا ؟

ومرت مدام سكاودوفسكى بأصابعها الرقيقة على جبين صغرى بناتها . بتلك الحركة الحنون التى تعهدها البنت من أمها . . فلم تكن مانيا تذكر سواها . . فأمها لم تعانقها قط ، ولم تقبلها . . وكانت لاتتصور هناء مثل هناء الالتصاق بهذه المرأة الساهمة ، ولا تدرك بعدُ السبب القاسى لهذا الحرمان الذى قضت به عليها أمها . . فقد كانت الأم مريضة مرضاً خطيراً : إذ ظهرت عليها أعراض السل حين مولد مانيا ، وظلت خمس سنوات ، برغم الاستشارة والاستشفاء ، والداء يسرى . . وكانت دائماً نظيفة الملبس ، قوية الإيمان ، متظاهرة بالصحة . . وفرضت على نفسها قواعد دقيقة : فلا تتناول طعامها إلا فى آنية خاصة بها ، ولا تقبّل ولدها وبناتها . . وهم لايعرفون عن ذلك الداء إلا قليلا . . فكانوا يسمعون نوبات السعال الجاف فى الحجرة المجاورة ، ويرون قناعاً من الأسى على وجه أبيهم ، ويرددون جملة أضافوها إلى صلوات المساء :

« يا إلهى ، أسبغ على والدتنا ثوب الصحة والعافية » .

* * *

وكان من سوء طالع المرء ، فى عام ١٨٧٢ ، أن يكون بولونيًّا (من رعايا روسيا) وينتسب إلى تلك الطبقة الذكية المرهفة الحس التى تختمر الثورة فى أحشائها ، والتى تشكو ، أكثر من أية طبقة سواها فى المجتمع ، من العبودية المفروضة عليها بحكم القياصرة .

ومنذ قرن كامل قبل ذلك ، كان القياصرة الشرهون ، وهم الجيران

الأقوياء لدولة مستضعفة . قد قرروا القضاء على بولونيا . . فتنازعوها ثلاث مرات متتابعة ، وقطعوا أوصالها إرباً إرباً ، فأصبحت رسميا : ألمانية ، وروسية ، ونمساوية . وفى مناسبات عدة هب البولونيون ضد المحتلين الذين غلبوهم على أمرهم . . فلم يوفقوا إلا إلى زيادة ضغط قيودهم وأغلالهم . . وبعد إخفاق ثورتهم الجريئة فى ١٨٣١ أمر القيصر نيقولا بأعمال انتقامية صارمة فى بولونيا الروسية . . فكان الوطنيون يعتقلون ويبعدون جماعات ، وتصادر ممتلكاتهم .

وفى ١٨٦٣ وقعت محاولة أخرى وكارثة جديدة . . فلم يكن لدى الثوار إلا الفؤوس ومناجل الحصاد والنبابيت ، ليواجهوا بها بنادق القيصر . وانقضت ثمانية عشر شهراً فى نضال موئس ، وفى النهاية تدلت جثث زعماء الثوار من خمس مشانق على أسوار ڤارسوڤيا ! !

ومن ذلك الحين – وقد عمل كل شىء لإرغام بولونيا على الطاعة – وهى تأبى أن تموت . . وبينا كانت قوافل الثوار المقيدين بالأصفاد فى طريقها إلى ثلوج سيبريا المتجمدة . تدفق سيل من رجال البوليس والأساتذة وصغار الموظفين على البلاد . . فماذا كانت مهمتهم ؟ أن يراقبوا البولونيين ، وأن يضعضعوا إيمانهم ، وأن يصادروا الكتب والصحف المشتبه فيها ، وأن يبطلوا استعمال اللغة القومية شيئاً فشيئا . وقصارى القول : أن يقتلوا روح أمة .

ولكن سرعان مانظم المعسكر الثانى المقاومة . وقد دلت البولونيين تجاربهم على أنه لا أمل لهم فى الحرية عن طريق القوة ، وبخاصة فى تلك الآونة . . فكان عليهم إذن أن ينتظروا ، وأن يتقوا

الأخطار التى يتعرض لها المنتظرون ، وأن يحاربوا فيهم الجبن وفتور الهمة .

وبذلك بدّلت المعركة أرضها .. ولم يعد أبطالها أولئك المحاربين المسلحين بالمعاول الذين يهاجمون القوزاق ، ويموتون قائلين : «ما أسعد أن نموت فى سبيل الوطن ! » . . لقد أصبح الأبطال الجدد هم المفكرين والفنانين ورجال الدين والمعلمين . أولئك الذين تتوقف عليهم عقلية الجيل الجديد . . وكانت شجاعتهم تقضى بالتظاهر والمراءاة باحتمال أية مذلة ، لئلا يفقدوا المراكز التى ما زال القيصر يسمح لهم بها . . وبذلك يؤثرون سرًّا فى الشبيبة البولونية ، ويوجهون مواطنيهم . . .

وهكذا كانت ، تحت مظاهر الأدب ، تقوم العداوة اللدود بين المستعمرين المستبدين والمستعبدين المجاهدين ، فى المدارس البولونية ، بين الأساتذة البولونيين المحنقين ، والنظار الجواسيس الروسيين . . بين أمثال أسرة سكلودوفسكى - بطلة هـــذا الكتاب - وأتباع القيصر نيقولا . . .

وكان يطرق سمع مانيا من كلام الكبار : « البوليس . . القيصر . . الإبعاد . . مؤامرة . . سيبريا » . . وظلت هكذا تسمع عبارات غامضة تبعث فيها الخوف ، دون أن تعرف ما مغزاها . . وكانت بفطرتها تتجنبها ، ولا تتعجل الساعة التى تدرك فيها معناها . .

ولم يكن يلفت نظر مانيا الصغيرة ، اللوحات الزيتية ، التى تزخرف الجدران بإطاراتها الذهبية ، لا ، ولا ألوان التحف القديمة ، من مرمر ، خزف صينى من صنع سيفر . . لم يسترع نظرها ، من بين هذه

الأشياء الجميلة كلها ، غير شيء واحد ، هو ذلك الجهاز الموضوع فى إناء زجاجى ، مغلق ، ذى أنابيب بلورية ، وموازين صغيرة ، وأشياء معدنية ، وأوراق ذهبية ، وعوينة مكبرة . .

فلم تتصور مانيا ماذا يمكن أن يكون هذا كله . . فشبت ذات مرة على أخمصى قدميها تتأمل مبهوتة . . فدخل أبوها ، وعرفها به ، بقوله :

— هذا « جهاز الطبيعة Phy-sics app-a-ra-tus » .

اسم عجيب ! . .

فلم تنسه . وهى لاتنسى شيئاً أبداً . . وكانت ، حين ماتكون مرحة ، تترنم باسم جهاز الطبيعة السحرى :

« فيزيكس آپاراتوس »

الفصل الثاني

أيام كئيبة

ـ ماريا سكلودوفسكى !

ـ نعم سيدى !

ـ حدثينا عن « ستانيسلاس أوجست » .

ـ ستانيسلاس أوجست انتخب ملكاً على بولونيا فى ١٧٦٤ . . وكان ذكيًا ومثقفاً جدا ، وصديقاً للفنانين والكاتبين .. وقد عرف الأدواء التى كانت توهن المملكة ، وحاول أن يجد لها علاجاً . . ولكنه لسوء الحظ ، كان رجلا تنقصه الشجاعة .

كانت متفوقة بين أترابها ، تلك التلميذة التى تنهض من درجها ، فى الصف الثالث ، إلى جانب إحدى النوافذ العالية ، المشرفة على العشب المغطى بالثلج ، فى حديقة غناء . . تردد درسها بصوت رخيم رزين ، وهى فى ثوب المدرسة ، الأزرق القاتم ، ذى الأزرار الصلب ، تزينه بنيقة (ياقة) بيضاء ، منشاة جيداً ، تكاد تبتلع محيا تلك البنية ، ذات السنوات العشر . . وإلى جانبها شقيقتها هيلا ، فى مثل الثوب المحتشم ، والشعر المعقوص ، طبقاً للقواعد الصارمة فى « مدرسة مدموازيل سيكورسكا » .

ولم تكن المعلمة الجالسة على مقعد التدريس بأجمل بزّة ، أو أتم أناقة . . كانت فى مسوح سوداء ، عتيقة النمط .. ولم تكن على حظ من الجمال كثير أو قليل . . وكانت معلمة و «ضابطة» فى وقت معا . مما زادها شدّة وحدّة ، وإن لم يحل دون أن تنظر فى حنان وحب إلى الصغيرة مانيا . .كيف لا تكون المعلمة فخوراً بمثل هذه التلميذة النجيبة ، وهى دون صغرى رفيقاتها بعامين ، لايكاد يصعب عليها شيء . . هى دائماً الأولى فى الحساب ، والأولى فى التاريخ ، والأولى فى الأدب ، وفى اللغة الألمانية ، وفى اللغة الفرنسية ، وفى الديانة ! . .

وساد الفصل السكوت ، بل ساده شيء أكثر من السكوت . . فإن درس التاريخ يخلق جوًّا حارًّا .. إن عيون اثنتى عشرة صبية وطنية متحمسة تتجه إلى وجه معلمتهن ، فيقرأن عليه خطورة الحديث وجلال الوطن . . وهاهى ذى مانيا تتكلم عن ملك من ملوك بولونيا ، مات منذ زمن طويل ، وهى لا ترحمه فتقول :

« — . . . لسوء الحظ ، كان رجلا تنقصه الشجاعة . . »

وكان السكون ، والاصغاء ، والإلقاء ، أشبه بمؤامرة خفية . بين المعلمة وتلميذاتها ، فى هذا الدرس البولونى ، عن تاريخ بولونيا .

وفجأة ، ارتجف هؤلاء المؤتمرات لسماع جرس كهربائى سرى . . دقتان طويلتان . . ثم دقتان قصيرتان .. فكانت علامة منذرة أحدثت اضطراباً شديداً وصمتا عميقاً . . وأسرعت المعلمة فأخفت أوراقها . . وأسرعت الأيدى النحيلة فألقت الكراسات والكتب المدرسية البولونية فى ميادع (مرايل) خمس تلميذات ، خفيفات ، رشيقات ، مكلفات

بهذه المهمة . . فأسرعن واختفين بالكتب من باب يؤدى إلى عنابر القسم الداخلى . وألقين بحمولتهن فى مكان خفى أمين . . وعدن . يلهثن . إلى مقاعدهن . . .

ثم فتح باب الفصل . وظهر « هورنبرج » . مفتش المدارس الخرة بمدينة ڤارسوڤيا ، فى « سترته » الوجيهة . سميناً . ألمانى الزينة . ثاقب العينين من وراء منظاره الذهبى . . فنظر إلى الطالبات دون أن ينوه بكلمة . . ووقفت بالقرب منه . فى ثبات ظاهرى . الناظرة « مادموازيل سيكورسكا » التى كانت تصحبه . وتنظر إلى الطالبات مثله . . ولكن بأى قلق مستكن ! . . إن الفرصة اليوم كانت قصيرة بحيث لم يكد البواب يمد يده إلى الجرس المصطلح عليه . حتى كان هورنبرج قد تقدم دليله . ودخل القاعة . . فهل كان كل شىء كما يجب أن يكون ؟ ! . . يارباه ! . .

كل شىء على مايرام . . فان خمساً وعشرين صبية صغيرة . منحنيات على مناججهن . يشتغلن بالإبرة . وعلى أدراجهن المقصات . وبكر الخيط . . وقالت الناظرة . فى ثبات . باللغة الروسية :

— إن هؤلاء الصغيرات يعملن . ياسيدى المفتش . ساعتين من كل أسبوع فى التطريز .

فتقدم هورنبرج نحو المعلمة :

— ماذا تقرئين ياآنسة ؟

فردت المعلمة بكل هدوء . وقد استردت وجنتاها شيئاً فشيئاً لونهما الطبيعى :

— هذه قصص « كريلوف » . . وقد بدأناها اليوم . .

ورفع هورنبرج غطاء أقرب درج إليه ، فلم يجد كراسة ولا كتاباً ؛ وكانت التلميذات قد وصلن فى نسيجهن إلى « الغرزة » التى يحسن الوقوف عندها . . وشككن الإبرة فى النسيج ، وتوقفن ، وشبكن سواعدهن فوق صدورهن ، ولبثن بلا حراك ، متشابهات ، فى أثوابهن القاتمة ، وبنائقهن البيضاء . . وبدت هذه الوجوه الخمسة والعشرون ، كأنها شاخت بغتة ، وعبرت تعبيراً حازماً ، بليغاً ، أخرس عما تنطوى عليه من الخوف ، والمقاومة ، والحقد .

وتقبل المفتش الكرسى الذى قدمته إليه المعلمة . . وسألها أن تنادى إحدى الطالبات . .

فالتمعت ماريا سكلودوفسكى ، فى الصف الثالث ، نحو النافذة ، وقد تقطب جبينها الصغير . . وتضرعت فى سرها : « إلهى ؛ لا تجعل الدور دورى . . دعهم يتجهوا إلى غيرى يا إلهى . . إلى سواى . » .

لكنها كانت تعلم حق العلم أنها هى المختارة . أنها المكلفة دائماً بالرد على استجواب مفتش الحكومة ؛ لأنها أوفر أترابها معرفة ، ولأنها تتقن الروسية إتقانا تاماً .

ولما سمعت النداء باسمها نهضت . . وخيل إليها أنها تحس بحرارة ، بل تحس ببرودة . . وكأن حلقها قد غص بالكراهية ، وهى تسمع صوت هورنبرج يأمرها بتلاوة الصلاة ، تلك الصلاة التى كانت ضريبة المذلة التى فرضها قياصرة الروس على الأطفال البولونيين ،

يرددونها كل يوم باللغة الروسية ، ليجعلوهم يوقرون معتقدات المستعمرين ، ويكفرون بما يقدسون . .

وعاد السكون فساد . . ثم قال المفتش :

— من هم القياصرة الذين حكموا ، منذ كاترين الثانية ، روسيا المقدسة ؟ !

— كاترين الثانية ، بولس الأول ، ألكسندر الأول ، نيقولا الأول ، ألكسندر الثانى . .

فأبدى المفتش ارتياحه ، فذاكرة البنت جيدة . . ويا للهجتها من روسية عريقة ؛ فكأنها ولدت فى سان بطرسبرج . . . .

— ما هى أسماء وألقاب أعضاء الأسرة الملكية الإمبراطورية ؟ .

— جلالة الإمبراطورة ، صاحب السمو الإمبراطورى نزاروفتش ألكسندر ، صاحب السمو الجراندوق . . .

وبعد انتهائها من التعداد . . الذى كان طويلا ، ابتسم هورنبرج ؛ فقد أحسنت الإحسان كله ! . . ولم ير الرجل ، أو لم يرد أن يرى ، اضطراب مانيا ، وملامحها التى تجمدت من الجهد الذى تبذله لإخفاء ثائرتها . .

ومضى يسألها عن طبقات رجال القيصر ، ومكانته شخصياً من هذه الطبقات ؛ فقد كانت تلك التفاصيل أجدى عنده من الرياضة والنحو . . ثم سأل :

— من هو حاكمنا ؟ . .

فأخفت الناظرة والمعلمة نار نظراتهما فى السجلات التى أمامهما . .
ولم يجيء الرد سريعاً . . فتضايق هورنبرج ، وردد سؤاله بحدة :

– من هو حاكمنا ؟

فردت مانيا ، وقد غشي بصرها ، وتحشرج صوتها ، وشحب محياها :

– صاحب الجلالة ألكسندر الثانى : قيصر روسيا العظمى .

وانتهى الاستجواب ، وانفض المشهد ، وغادر المفتش كرسيه ، وحيا تحية سريعة ، واتجه إلى القاعة المجاورة ، تتبعه الناظرة .

عندئذ رفعت المعلمة رأسها ، وصاحت :

– تعالىْ ، ياروحى الصغيرة ! . .

وخرجت مانيا من صفها ، وتقدمت إلى مربيتها . فقبلتها فى جبينها صامتة . وفجأة ، وقد عادت مياه الفصل إلى مجراهـا ، أجهشت الصبية البولونية بالبكاء ، من فرط ما أصاب أعصابها . .

* * *

خرج البنات من المدرسة مسرعات إلى أمهاتهن . اللواتى ينتظرنهن على الباب ، يحملن إليهن الخبر المثير : « جاء المفتش ! . جاء المفتش ! . . » وقالت هيلا لعمتها التى جاءت فى طلب الأختين : « لقد سأل هورنبرج مانيا ، فردت رداً حسناً جداً . . ثم انتحبت » .

أما مانيا فكانت تسير صامتة إلى جانب عمتها . . فإنها ، رغم مضى الساعات على سؤال المفتش لهـا ، مازالت مضطربة . . فهى

تمقت تلك المظاهرات المفاجئة المذلة ، التى لابد فيها من الكذب ، من الكذب دائماً . . وأحست ، اليوم بخاصة ، بأحزان الحياة ، فقد تتابعت المصائب على أسرة سكلودوفسكى ، وبدت السنوات الأربع الأخيرة لمانيا كحلم مرعب . . فأمها اضطرت أن تسافر إلى نيس ، فى جنوب فرنسا ، مع بنتها زوسيا . . وقالوا لمانيا فى تعليل ذلك الغياب : « إن أمك بعد هذا الاستشفاء ستعود فى صحة جيدة » . . فلما عادت ، بعـد عام ، رأت البنت أمها قد شاخت ، وطبعها داء الصدر بطابعه المخيف . .

ثم كان خريف ١٨٧٣ ، يوم عادت الاسرة إلى المدرسة ، لتتولى مهام افتتاح الفصول ، فى ذلك اليوم الفاجع ، الذى وجد فيه المسيو سكلودوفسكى على مكتبه مظروفاً رسميا : بخفض راتبه ، وحرمانه ، مع أسرته ، مسكنه المجانى فى مدرسة شارع نوفوليبكى ، وإنزال درجته . . إذ وشى به مدير المعهد ، ونال منه .

فبعد ما ظلت أسرة سكلودوفسكى تنتقل من بيت إلى بيت ، ألقت عصاها واستقر بها المطاف فى شقة على ناصية شارع نوفوليبكى وشارع الكرمليت . . وبدأ كيانها يتطور طبقاً لما يفرضه البؤس من ضرائب . . فأخذ الأستاذ ، بادئ ذى بدء ، صبياناً مختارين من بين تلاميذه : للسكنى عنده ، وتناول الطعام ، والمذاكرة والدروس الخصوصية . . فبدأ باثنين ، أو ثلاثة . . ثم خمسة ، ثم ثمانية ، ثم عشرة ، فتحول البيت إلى « بنسيون » أقرب إلى ضجيج الطاحون ، واختفت منه الراحة ، وتقلص ظل الهدوء .

وإذا كان الأستاذ سكلودوفسكى قد لجأ إلى جعل بيته نزلا للطلاب ، فلم يكن ذلك راجعاً إلى خفض راتبه ، أو اضطراره إلى التضحيات التى تستلزمها إقامة زوجته فى الريفيير للاستشفاء فحسب ، بل يرجع أيضاً إلى أن رجلا أحمق ، هو أخو زوجه ، قد ورطه فى مغامرة تجارية لاخبرة له بها ولا عهد . . فإذا به ، وهو الرجل الحصيف الحذر ، قد أضاع ثلاثين ألف روبل (نحو ثلاثة آلاف جنيه) ! وهى كل ماادخره مدى الحياة بعرق الجبين . وظل بعدُ يعض أصابع الندم ، شديد القلق والمرارة والتبرم بما فعل ، يتهم نفسه بلا انقطاع بأنه جلب الفقر على أهله ، وحرم بناته مهورهن .

وفى يناير ١٨٧٦ ، عرفت مانيا ، على حين فجأة ، ماهو الشقاء . . فإن أحد الطلبة النزلاء عندهم أصيب بالتيفوس ، وأصابت العدوى برونيا ، ثم زوسيا . فيالها من أسابيع مروعة ! . . ففى إحدى الغرف ترى الأم تحاول أن تخمد نوبات السعال . . وفى غرفة أخرى ترى الفتاتين تتأوهان ، وتنتفضان من رعشة الحمى . . .

وفى ذات ليلة من ليالى الأربعاء ، جاء الأستاذ فاستدعى أولاده : جوزيف وهيلا ، ومانيا ، ليودعوا أختهم الكبرى : زوسيا ، التى كانت مسجاة على فراش الموت ، فى كفنها الأبيض الناصع ، آية فى الجمال ، رغم شعرها المحلوق ، وقد شبكت ذراعيها على صدرها ، وأضاءت وجهها الشاحب ابتسامة أخيرة .

وكان ذلك أول لقاء بين مانيا وبين الموت . . وكانت تلك أول جنازة تشيعها فى معطفها القصير الأسود . . حين كانت برونيا ، الناقهة

تزفر على سريرها . . وكانت الأم أضعف من أن تخرج ، فظلت تتحامل من نافذة إلى نافذة . تتبع بعينيها . نعش بنتها ، وهو ينزل المسويني في شارع الكرمليت . . .

* * *

رفع خدم البنسيون المائدة ، وأضاءوا مصباح الغاز ، فقد دقت ساعة المذاكرة ، وتجمع الطلبة النزلاء في الغرف التي يسكنونها مثنى أو ثلاث . . وظل أولاد الأستاذ وبناته في قاعة الطعام . التي تحول مساءً إلى قاعة للدرس . . وفتحوا كراساتهم وكتبهم . وارتفع دويّ الاستذكار من أنحاء البيت ، ذلك الدويّ الذي سيلازمه سنين طويلة . . فهذا يستذكر اللاتينية بصوت عال ، وآخر يستذكر التاريخ والأيام . وغيره يحار ويضج ويشكو من نظريات تسهل عليه بلغته البولونية . تستعصى عليه بالروسية . . والأستاذ بين هؤلاء وهؤلاء يساعد ، ويشجع ، ويعتب . .

أما مانيا الصغيرة . فلم تكن تعرف هذا القلق . . كانت ذاكرتها من القوة بحيث لو قرأت أمام أترابها قصيدة مرتين لرددتها من فورها عن ظهر قلب ، حتى ليتهمنها بأنها تحفظ الشعر في السر ! . . وكانت تتم واجباتها قبلهن ، ثم تساعد ، بطبيعتها الخيرة ، على إنقاذ رفيقاتها ورفقائها من ورطتهم . .

بيد أن ما كانت تؤثره ، هو أن تجلس ، كما كانت في ذلك المساء ، ومعها كتابها ، إلى المنضدة الكبيرة ، معتمدة على مرفقيها ، ويداها على جبينها . وقد سدت أذنيها ، لتقي نفسها صوت

أختها هيلا ، التى كانت لاتستطيع أن تردد درساً إلا بصوت يخرج من يافوخها ! . ثم لاتلبث المطالعة أن تستغرق مانيا ، فتصرفها عن كل ما يجرى حولهـا .

ولا تستطيع برونيا ، وهيلا ، متواطئتين مع جميع التلاميذ النزلاء عندهم ، أن يخرجوا مانيا من تفكيرها ، أو يلفتوا نظرها بصياح أو ضجيج أو ضحك أو عويل ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . .

وهم اليوم – وقد ضاقوا بهذا التفانى منها فى الدرس ، وهـذا الاستغراق فى التأمل ، وهذا الحصر العجيب للفكر – قد ابتدعوا قلعة حول مانيا من كراسى البيت ، وضعوها ، وأقاموها ، ورفعوها فوق رأسها .. ثم انسحبوا فى سكون ، وتظاهروا بالعمل ، وانتظروا . .

وانتظروا طويلا . . « إن البنت لم تلحظ شيئاً » . لا الهمس ، ولا الوسوسة ، ولا الضحكات المكتومة ، ولا ظل الكراسى الملقى على شعرها . . . وظلت هكذا نصف ساعة ، مهددة بهذا الهرم الخشبى المزعزع . . ولما أنهت الفصل ، طوت كتابها ، ورفعت رأسها ، فانهارت تلك القلعة ، من حولها . . فضجت هيلا ضاحكة ، وهربت برونيا وبنت عمتهم هنرييتا ، التى كانت حاضرة ، خشية أن تثور مانيا .

ولكن مانيا ظلت ثابتة ، غير مكترثة . . فهى لاتعرف كيف تغضب ، وهى لاتعرف كذلك كيف تمزح مثل هذا المزاح المخيف .. وعبّرت عيناها الرماديتان ، عن دهشة ، كدهشة من كان مستغرقاً فى نومه ، فأوقظ فجأة من حُلمه . ودلكت كتفها من أثر كرسى أصابها ،

وحملت كتابها إلى غرفة مجاورة . . ولما مرّت أمام « الكبيرات » لم تفه بغير كلمتين : « هذه سخافة » ! ! . .

وكان هذا الهدوء الحاسم الذى لايعجب « الكبيرات » هو الذى يحميها ، فتقرأ كل ما يقع لها من كتب مدرسية ، وأدبية ، ودواوين شعر ومغامرات ، وقصص ، ومؤلفات فنية ، فى مكتبة أبيها . . وهكذا تبعد عن نفسها ، لساعات قصيرة ، الأشباح الكئيبة . . تنسى جواسيس الروس ، وزيارات المفتش هورنبرج ، وتنسى وجه أبيها الذى أضنته حاجات العيش والعوز . . وتنسى الضجيج المتوالى فى البيت والنهوض فى الفجر المظلم ، حينما تكون نصف نائمة ، فترتب سريرها ، قبل أن ينهض النزلاء ويتناولوا فطورهم فى قاعة الطعام ، التى هى أيضاً قاعة المذاكرة . .

تنسى ضروب الإرهاب ، إرهاب الذين يحتلون بلادها ، والاضطهاد الدينى ، وإرهاب المرض والموت . . كانت مندفعة بغريزتها إلى النجاة من جو مؤلم مرهق .

غير أنها ، مهما هربت ، لاتلبث الحقيقة أن تعود إلى ضميرها ، فيشتد قلقها على أمها ؛ فهذه المريضة ، التى كانت يوماً ما جميلة جدا ، لم تعد اليوم إلا ظلا . .

ومع كل ما تسمع من أقوال مطمئنة عن صحتها ، فهى تعرف تمام المعرفة ، مع إعجابها بأمها وانجذابها إليها ، ومع حبها العظيم وحرارة صلاتها ، أن ليس هذا كله بالذى يحول دون وقوع الأمر المروع ، الذى لابد من وقوعه . .

وكذلك كانت الأم ، من جانبها ، تفكر فى القدر المحتوم . . وهى تريد أن يلقاها مصيرها مستعدة ، فلا يقلب كيان البيت .

وفى ٩ من مايو ١٨٧٨ ، خضع لها الطبيب ، وفسح للقسيس مكانه . وسيعرف القسيس وحده : ما كان يدور بنفس هذه المسيحية المتدينة من أسى لتركها عبء أربعة أولاد ، إلى زوج عزيز عليها ، ومن عذاب لتفكيرها فى مستقبل هؤلاء الأحداث الأعزة الذين تتخلى عنهم ، وصغيرتها مانيا التى ليس لها من العمر إلا عشر سنوات !

وتجلدت أمام آلها .. وزادتها الساعات الأخيرة إشراقاً .. وماتت كما تمنت أن تموت ، دون غيبوبة ، ولا عذاب احتضار . . وجاء زوجها ، وولدها ، وبناتها ، ووقفوا ساكنين حول فراشها ، فى الغرفة الناصعة . . وعيناها الرماديتان ، تنتقلان فى حنان ، وقد كادت تطفئهما المنون ، بين تلك الوجوه الخمسة الكاسفة ، كما لو كانت المحتضرة تريد أن تسألهم صفحاً وغفراناً ، لأنها كانت السبب فى ذلك الحزن الشديد .

ثم وجدت من القوة ما ودعت به كل واحد منهم . . ثم أخذ الضعف يغشاها شيئاً فشيئا . . ولم تعد شرارة الحياة التى تنتقل فيها لتسمح لها بأكثر من كلمة أو إشارة . . وكانت الإشارة علامة الصليب ، التى ارتعشت بها يدها وهى ترسمها لتبارك بها آلها . . . وكانت الكلمة الأخيرة : همسة خافتة ، وهى تتأمل رجلها وأولادها ، مستأذنة فى الرحيل : « أحبكم . . . » .

* * *

وها هي ذي مانيا قد عادت إلى لبس السواد ، تهيم بائسة ، في شقة شارع الكرمليت ، لاتكاد تتعود حرمان الأمومة ، ولاتكاد تسيغ أن يحل الرجل محل المرأة ، أو الوالد محل الوالدة . . .

عرفت مانيا ، من ساعة مبكرة ، أن الحياة قاسية : قاسية على الشعوب ، وقاسية على الأفراد !

لقد ماتت أختها زوسيا ، وماتت أمها .. لقد حرمت حنان أمها. ورعاية أختها الكبرى .. وشبت في نحو من الإهمال .. ولم تكن تشكو قط.

وليست أنفتها استسلاما أو خضوعاً . . فقد أحست وهي تجثو في الكنيسة الكاثوليكية ، التي كانت أمها تصحبها إليها ، بالتمرد الأصم . . ولم تكد تدعو الله بحرارة الحب الأولى ؛ لأن الله قد أنزل عليها ضربات هائلة ، بعضها فوق بعض ، جردتها مما كان حولها من المرح ، واللهو ، والحنان . . .

الفصل الثالث

مراهقة

فى حياة كل أسرة لحظات ازدهار . . فإن أسباباً خفية تهيء لذرية ما تفوقاً وبروزاً على الذريات التى سبقتها ، والتى تمتاز بالمواهب والصفات.. وتغدق عليها فيضاً من الحيوية ، والجمال ، والتوفيق.

وقد جاءت لحظة من هذه اللحظات لأسرة سكلودوفسكى ، على الرغم من الضربية التى دفعتها وقتئذ للشقاء . . وكأن الموت قد اختار زوسيا من بين الأولاد الخمسة ، الموفورى الذكاء والغيرة ، فداء لهم . . ولكن الباقين ، الأربعة ، المراهقين ، المولودين من امرأة مصدورة ورجل أضناه الدرس والكد ، كانوا يحملون فى أنفسهم قوة لاتقاوم .. وسيفوزون على الضراء ، ويذللون كل العقبات ، ويصبحون جميعاً ، مخلوقات ممتازة .

لله ما أجملهم ، فى ذلك الصباح المشرق من ربيع ١٨٨٢ ، وقد تجمعوا حول مائدة الفطور ! . . هذه هيلا : فى السادسة عشرة ، طويلة ، رشيقة ، وهى « فتاة البيت الجميلة » غير منازعة . . وهذه برونيا : نضرة المحيا ، بلون الزهر ، وشعر من الذهب . . وهذا جوزيف أكبرهم سنا ، فى سترة الطلبة ، كأنه من رياضيّ الشمال . . أما مانيا . . فى صحة جيدة كذلك ! . . ولنسلم بأنها زادت وزناً ، وأن ثوبها المحبوك

عليها لايدل على قوام نحيل . . ولأنها كانت الصغرى (فى الرابعة عشرة) كانت تبدو دون أخواتها جمالا ، ولكن كان لها مالهن من وجه يترقرق حياة ولطفاً ، مما خص به الله بنات بولونيا .

ولم تعد برونيا طالبة ، بل « آنسة » . . فقد تخرجت العام الماضى بعدما فازت بالمدالية الذهبية ، وانقطعت لخدمة البيت ، تمساك الحساب وتشرف على نزلاء «البنسيون » ، أولئك النزلاء الدائمين ، وإن تغيرت وجوههم وأسماؤهم . .

ونال جوزيف ، مثل أخته برونيا ، المدالية الذهبية ، عندما غادر المدرسة الثانوية ليلتحق بكلية الطب . . وأخواته يعجبن به ويغبطنه ؛ فإن المطامح الذهنية تتنازع بنات سكلودوفسكى الثلاث . . وهن يلعنّ لائحة جامعة ڤارسوفيا التى لاتسمح بقبول الفتيات .

غير أن الحديث لم يكن يحول دون التهامهم : الخبز والزبد والقشدة والمربى ، التى تختفى ، وكان اختفاؤها بسحر ساحر ، ثم يهرعون إلى معاهدهم .

ولم يكن شباب ماريا سكلودوفسكى مفتوناً إلا بثلاث كلمات : « مدارس . . معاهد . . مذاكرة » . . . ولم يكن البيت نفسه عندها إلا مدرسة ؛ فلعل مانيا كانت تتخيل الكون مدرسة هائلة ، ليس فيها إلا أساتذة وطلاب ، وليس فيها إلا مثل أعلى واحد : « التعليم » ! . .

وقد خف دوىّ نزلاء البنسيون منذ غادرت الأسرة مسكن شارع الكرمليت الكئيب ، وانتقلت إلى شارع « لسكنو » ، فى شقة واسعة ، اختصّت نفسها فيها بأربع غرف .

وعطفت مانيا على « القصر الأزرق » ، لتأخذ رفيقتها وصديقتها « كازيا » كريمة أمين مكتبة الكونت زاموفسكى . . والتفت ذراعاهما ، وبدأتا ترويان كلتاهما للأخرى مئات الأشياء التى مرت بهما منذ عصر الأمس ! .. ولم يكن الفرق بينهما يخفى . . فما أرشق كازيا فى هندامها الأنيق ، وشعرها الذى يُسرح كل صباح ، ويعقد بشرائط من حرير ، بجانب مانيا اليتيمة ، التى تشب فى بيت ليس عند أحد فيه من الوقت ما يقفه على العناية بها . . .

وكان فصل مانيا يغص بالبولونيات ، واليهوديات ، والروسيات ، والألمانيات ، لايفرق بينهن اختلاف جدّى . . فإن شبابهن المشترك ، والتنافس الدراسى المثير ، كليهما كان كفيلا بأن يمحو ، مؤقتاً ، اختلاف الأجناس والأفكار . . حتى ليكاد يخيل إلى من يراهن يتعاونّ فى العمل ويلعبن معاً خلال الفسحة ، أن بينهن وفاقاً تاما .

ولكنهن لايكدن يخرجن من المدرسة ، حتى تسترد كل واحدة منهن لغتها ، وقوميتها ، ودينها . وكانت البولونيات ، من بينهن ، أشدهن أنفة وترفعاً ؛ لأنهن أشدهن تعرضاً للاضطهاد . فكن يسرن فى جماعات ، متساندات ، ليلتقين بعد ذلك على موائد الشاى ، التى لاتباح دعوة فتاة روسية أو ألمانية إليها .

وحدِّث عن تحرج أولئك الفتيات البولونيات ، اللواتى يؤاخذن أنفسهن إذا شعرن بالصداقة نحو أجنبية عنهن ، أو أحسسن نشوة العلم أو الحكمة ، وهن يصغين إلى أصوات الذين يحتلون بلادهن :

قالت مانيا تخاطب كازيا ، وهما فى طريق العودة :

– إنهم سيرقصون عندنا هذا المساء ، فهل تجيئين لتشهدى ؟

– أجل ! . . آه . . متى يامانيا يكون لنا نحن أيضاً الحق فى الرقص ؟! . . إنى أموت شوقاً إلى التمالس ! . .

متى ؟ . . عندما يتركن المدرسة ، و « يدخلن الدنيا » . . وليس لهن الآن من حق إلا أن يتمرن على الرقص ، فيما بينهن ، على يد معلم المدرسة . وأن يشهدن الحفلة الراقصة التى تقام كل أسبوع فى دار سكلودوفسكى . وتجمع شباب بعض الأسر الصديقة . .

تمر شهور أخرى قبل أن يجىء دورهما . ويدعوهما الفتيان إلى حفلة راقصة كبيرة أقامتها « الكونتس فلورى » السيدة البولونية ، المتزوجة بفرنسى . .

وخفت مانيا وهيلا ، تهيئان ثيابهما لهذه السهرة الفريدة . .

ماأصعب أن تكون المرأة جذابة ، عندما تكون فقيرة ! ! . . وعندما تستأجر خياطة تافهة باليومية ، لتفصل ثوبين فى السنة ، واحداً لسهر الليل ، وآخر لكدح النهار ! . وضربت الأختان أخماساً لأسداس ، وحسبتا ثروتهما ، واتخذتا قراراً : لابد من نزع الشفوف (الدنتلة) القديمة عن ثوب مانيا ، « الستان » الأزرق ، وإبدالها شِفًّا جديداً تنعشه وتحييه . . ثم يضاف شريط هنا ، وعقدة هناك . . وتقطف من الحديقة أزهاراً للصدر ، وأزهاراً للشعر ! .

وجاءت الليلة الموعودة . . وعزف الموسيقيون ألحاناً مشجية ، ودارت هيلا ، مدهشة الحسن ، فى الجو الراقص الحار ، كحلم من الأحلام . . ونظرت مانيا نظرة أخيرة إلى المرآة . . حتما ، إن كل شىء

على ما يرام .. فقد زادت الأزهار الناضرة ، المحيا الناضر، ضياء وسحراً

وهذا حذاء جديد . . حذاء سترميه مانيا عند الفجر ، فى ركن من البيت ؛ لأنها رقصت ، ثم رقصت ، وظلت ترقص حتى بليت النعل ! .

* * *

وبعد سنين عدّة ، كانت أمى ترضى أحياناً أن تروى لى، بصوت حنون ، حكاية تلك الأيام السعيدة . . فأنظر إلى وجهها الذابل ، الذى نال منه نصف قرن من الشواغل المرهقة والأعمال المجيدة . . . ثم أشكر القدر الذى أتاح لها ، قبل أن يملى عليها أحكامه الصارمة ويوليها مهمتها المضنية السامية ، أن تبلى حذاءها فى ليلة، واحدة راقصة !

الفصل الرابع

مواهب

لقد حاولت أن أصوّر مانيا سكلودوفسكى ، طفلة ومراهقة ، فى دراستها وفى لعبها . . فهى سليمة البنية ، مستقيمة السيرة ، حساسة مرحة . . وإن لها لقلباً يحب . . وهى ، كما يقول أساتذتها ، « موهوبة للغاية » . . وهى تلميذة نجيبة . . ولكنها مع ذلك لم تبذ الأطفال الذين شبّوا معها بمواهب خارقة . . لا شيء بعد يدل على عبقريتها .

وهاهى ذى صورة أخرى ، صورة الفتاة ، وهى أشد وقاراً ، فى حياة مانيا وجوه محبوبة اختفت وامّحت ، لم يبق منها إلا ذكرى حنون ، ظلّت حتى اليوم الأخير . . وكذلك الصداقات تتحول قليلا قليلا . . فالنزُل (البنسيون) ، والمدرسة ، لم يبق لهما وجود ، وصلات الزمالة ، مهما يبد لنا من قوة فى الظاهر ، فسرعان ما تضعف ، ما لم تدعمها الألفة اليومية . وقد تركز مصير مانيـا بين مخلوقين ممتازين طيبة ، وإدراكاً ، وشرفاً . . وكانا أقرب المقربين إليها ، وهما : أبوها ، وأختها برونيا .

ولو أننا راجعنا ما كان يداعب خيال آمال مانيا — « مارى كورى » فيما بعد — من آمال وأحلام لوجدناها أبسط الآمال ، وأشد الأحلام تواضعاً ! .

(٣)

وكان أبوها لايكاد يوازن ميزانيته إلا بالجهد الجهيد . . وكان مع ذلك لا ينقطع عن القراءة والاطلاع ، إلى حــد أنه كان يعرف اليونانيــة ، واللاتينية ، والبولوقية ، والروسية . . ويتكلم : الفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية . . ويعرف آخر مستحدثات المعرفة فى الكيمياء والطبيعة .

وكان المسيو سكلودوفسكى يقضى مساء الأحد مع ولده وبناته الثلاث ، فى سهرة مخصصة للأدب . فيتناقشون ، حول إبريق الشاى (السماور) الذى يتصاعد منه البخار ، ويطالع لهم الرجل الشيخ من النثر ومن الشعر ، ويستمع إليه أولاده مأخوذين . .

وكان هــذا الأرمل المسكين يندب ، أحياناً ، ما هم فيه من ضيق ، ويندم على ما كان من أمر تلك المضاربة التى أضاع فيها ما جمع :

- كيف خسرت هذا المــال ! . . أنا الذى كنت أمنى النفس بتعليمكم أرقى التعليم ، وإرسالكم إلى الخارج لإتمام دراساتكم فى الجامعات الأجنبيــة ؟ . . فهأنذا اليوم أرانى ملوماً محسوراً ، مقتّراً على نفسى وعليكم فى الرزق ، لاأجد إلى معونتكم سبيلا ، ولاألبث أن أصير عالة عليكم . . فماذا يكون حالكم ؟

ويتنهد الأســتاذ قلقاً . . ويتلقى ، شارد الذهن ، احتجاجاتهم المرحة ، التى يطمئنونه بها ، ويسرّون عنه مابه ، وهم مجتمعون حول مصباح الغاز ، فى المكتب الصغير ، الذى تزينه أصص من النبات... أربعة رءوس عنيدة ، ذات ابتسامات تنم عن الشجاعة . . وفى كل

تلك العيون اللامعة ، التى تتموج ألوانها من الزرقة إلى لون الرماد ، كانت تبدو الحماسة نفسها المشتركة والأمل نفسه :

ــ نحن شباب ، ونحن أقوياء . . .

* * *

ولا عجب من أن يشفق المسيو سكلودوفسكى على مستقبل أولاده الناجحين . . فإن راتبه سيتحول هذه السنة إلى معاش ضئيل ، لا يكاد يكفى أجرة البيت وكلف الطعـــام والخادم . فليس أمام : جوزيف ، وبرونيا ، وهيلا ، ومانيا ، إلا أن يحاولوا ، من الآن ، كسب عيشهم .

وأول ما خطر لأبناء هذا المربى بالطبع أن يعطوا دروساً . فأعلنوا فى الصحف :

«طالب طب يعطى دروسا خصوصية»

«دروس : حساب ، وجبر ، ولغة فرنسية»

«تعطيها آنسة حائزة لدبلوم ، بأسعار زهيدة»

صناعة جاحدة ! . . فقد عرفت مانيا ، فى منتصف عامها السابع عشر ، معنى التعب والذل اللذين يصيبان المعلمة . . فهنالك السير الطويل فى شوارع المدينة ، تحت المطر المنهمر ، وفى البرد القارس . . وهناك التلاميذ المدللون الكسالى . . وآباء التلاميذ الذين يتركون المعلمة تنتظر إلى مالا نهاية ، أو الذين ينسون آخر الشهر ، ويسهون عن دفع بضعة الروبلات التى هم بها مدينون ، تنتظرها المعلمة بفارغ الصبر ، وقد حسبت لقبضها فى ذلك الصباح نفسه ألف حساب ! . .

وتقدم الشتاء ، وجرت الأيام فى شقة شارع نوفوليبكى ، بعضها فى أعقاب بعض ، تافهة ، متشابهة . . . وكتبت مانيا :

« لا شيء فى البيت جديد ... النبات مزدهر ... والكلب « لانسيه » نائم على السجادة ... و « جوسيا » (الخياطة العاملة باليومية) تخيط ثوبى ، الذى سأصبغه ... سيكون لا بأس به ، بل سيكون جميلا جداً ؛ فان ثوب برونيا الذى تم تحويله هكذا قد جاء بديعاً !.. لم أكتب لأحد ؛ فان وقتى ضيق جداً ، ونقودى أقل من وقتى ... جاءت سيدة من معارفنا تسأل عن الدروس ، فأخبرتها برونيا أن الساعة بنصف روبل (ربع ريال) ، فولت الأدبار ، وكأننا قد أشعلنا فيها النار !.. »

أفليست مانيا إذن إلا آنسة بلا مهر ، عاملة ، عاقلة ، كل همها أن تزيد دروسها ؟ . . بلى ! . . وإن الحاجة قد اضطرتها إلى قبول حياة الدروس الخصوصية الشاقة . على أن لها حياة أخرى : شائقة ، خفية . . وهى ككل بولونية فى ذلك الوسط ، وفى ذلك الزمن ، تجتذبها الأحلام .

إن للشبان حلماً مشتركاً : هو الحلم الوطنى . . فالرغبة فى خدمة بولونيا وإنقاذ بلادهم المضطهدة ، هى عندهم قبل طموحهم الشخصى ، فوق الزواج والحب .

ومع أن مانيا كانت تعد بين صديقاتها من الوطنيات الثوريات ، وقد تهورت بإعارة جواز سفرها لإحداهن ، فهى لم تكن تميل إلى الاشتراك فى حوادث الاعتداء ، وإلقاء القنابل على مركبة القيصر أو عربة محافظ المدينة . . كانت ترى شيئاً واحداً له قدرة : العمل ، ومواصلة العمل ، لتكوّن لبولونيا العظيمة رأس مال ثقافى . . كانت تقدم تعليم الشعب ، الذى تحاول سلطات الاحتلال ، قصداً ، إبقاءه فى غياهب الظلمات . .

غير أن تيار الأفكار لايمكن أن يسري ويقوى وينتشر إلا في البلاد الحرة ، في وضح النهار ، ولم يكن لبولونيا من ذلك شيء . . فاكتفت مانيا ، مع رفيقاتها ، بأدوار في تلك الجامعة المتنقلة لإتمام دروس المراهقين ، ولإعطاء دروس لنساء الشعب من العاملات .

فلم تكن مانيا تعمل لنفسها بقدر ما كانت تعمل لوطنها . . . ما أكثر ماتحمّلت سنوها السبع عشرة من أعباء وأرزاء ! . فهي تريد أن تتثقف ، وأن تعيش ، وأن تثقّف ، لتجمّل حياة الجماهير . . . نفس كريمة ، بل هي في صريح الوصف نفس اشتراكية . . بيد أنها على هذا لاتنتسب إلى حزب الطلبة الاشتراكيين في فارسوفيا . . فقد كانت حرية حكمها تجعلها تخشى روح الحزبية . وكانت محبتها لبولونيا تجعلها بمنأى من الماركسية ، والدولية الشيوعية . . كانت تريد ، قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، أن تخدم بلادها .

ولم تكن ، بين هذه الأحلام ، تعلم بعد ، أنه لامندوحة لها عن الاختيار . . كانت تخلط ، في حماسة ، بين : شعورها القومي ، وأفكارها الإنسانية ، وأمانيها الفكرية .

ما أعجب أن تظل ، بين هذه المبادئ والنزعات والاضطرابات ، فتاة فاتنة ! . فالتربية الصارمة الراقية التي تلقتها ، والمثل الطيب الذي رأته في الناس الذين سهروا على صباها وشبابها ، كلاهما قد عصمها من الاندفاع . . ففي طبيعتها تلك الكرامة الأبيّة ، وتلك الدماثة التي تصحب دائماً حماستها وعاطفتها . . فلم تمر عليها في حياتها لحظة كانت فيها تمثل الثائرة ، أو تقوم بدور المتمردة . . إن مانيا المتحررة لن تنطق أبداً بكلمة نابية . إنها لن يخطر لها أبداً أن تشعل سيجارة بريئة ! .

إن الأختين المثاليتين : برونيا ، ومانيا ، تقضيان الساعات والساعات معاً ، تحاولان رسم خطة للمستقبل ، فى بلد مغلقة فيه أبواب الجامعة فى وجوه النساء . . وليست الدروس الخصوصية ، وساعتها بنصف روبل ، بمكوّنة لهما ثراء عاجلا ! .

ومانيا الكريمة آسفة .. فهذه الصبية ، صغرى الأسرة ، تحس أنها مسئولة عن مستقبل الذين يكبرونها . أما جوزيف وهيلا فلم يكونوا لحسن الطالع مصدر قلق لها . . فإن الشاب لايلبث أن يتخرج طبيباً ، وهيلا ، الجميلة الصافية ، التى تتردد بين حرفة التعليم وصناعة الغناء ، تغنى بملء حنجرتها ، وتحصل على دبلومات ، فى الوقت الذى ترفض فيه طلبات الزواج ! . . .

أما برونيا ، . . كيف يمكن أن تساعد برونيا ؟ . . . فهى ، منذ غادرت المدرسة ، قد سقطت على كاهلها شواغل البيت : تشترى المؤن ، وترتب ألوان الطعام ، وتراقب صنع المربى . . فأصبحت ربّة بيت ممتازة . . وهى حزينة من أنها ربة بيت فحسب . ومانيا تعرف ماتعانيه أختها من عذاب ، أختها ، التى تنحصر أمنيتها الكبرى فى السفر إلى باريس لتدرس الطب ، لتعود ، من بعد ، إلى بولونيا ، تزاول المهنة فى الريف . . لقد ادّخرت المسكينة كنزاً لهــذه الحرب . . ولكن المقام فى الخارج كثير النفقة . . فكم من الشهور ، وكم من السنين ، يجب عليها أن تنتظر ! !

ومانيـا تنسى مطمحها لتفكر فى شقيقتها . إنهـا تنسى . . وهى المفتونة أيضاً بأرض الميعاد ، قد طال تحنانها إلى قطع ألوف

الأميال التي تفصل بينها وبين « السوربون » ، لتروى من معينه غليلها . . . ثم تحمل بضاعتها الغالية من المعرفة ، لتصبح المعلمة المتواضعة فى فارسوفيا ، بين أبناء وطنها الأعزاء .

كان التفاهم بين الأختين ، الكبرى والصغرى ، على أتمه . . اختارت كلتاهما الأخرى وآثرتها . ففى ذات يوم ، إذ كانت برونيا على عادتها تسود أرقاماً ، وتحسب ، للمرة الألف ، حساب ما لديها من نقود ، أو بالأحرى حساب ما ليس لديها ، هاجمتها مانيا بقولها :

– إننى فكرت طويلا ، منذ حين ، وخاطبت فى الأمر أبى ، وأظن أننى وجدت وسيلة ! . .

– وسيلة ؟ ! . .

واقتربت مانيا من أختها ، إذ كان ما تعرضه وتريد من أختها قبوله ، دقيقاً يتطلب وزن الكلمات بفطنة :

– إليك . . كم من الأشهر يكفيك ما ادخرته للعيش فى باريس ؟ .

– لدىَّ نفقات السفر ، وما يكفى لقضاء سنة دراسية فى الكلية . ولكن دراسة الطب تستلزم كما تعلمين خمس سنين .

– نعم يا برونيا . . ولكننا بإعطاء دروس بخمسة قروش لن نجد أبداً لنا مخرجا .

– وماذا إذن ؟ . .

– نستطيع أن نتحالف ، فلو ظلت كل واحدة منا تناضل لحسابها ، فلن نفلح ، ولن نوفق للرحيل . . فى حين أننا إذا طبقنا طريقتى ، استطعت أنت أن تسافرى فى الخريف ، بعد بضعة أشهر .

– مانيا ! . . أنت مجنونة ! .

– كلا ! . فأنت ستبدئين بإنفاق نقودك . ثم أتولى أنا بعد ذلك الإرسال ، وكذلك أبى ، وفى الوقت نفسه أجمع مايكفى لدراستى المقبلة . . وبعـــد أن تصيرى طبيبة . أسافر أنا بدورى . ويومئذ تبدأ مساعدتك لى . .

فاغرورقت عينا برونيا بالدموع . . فقد شعرت بعظمة ما تعرضه عليها أختها الصغرى . ولكن فى البرنامج نقطة ظلت غامضة .. فساءلت :

– كيف ؟ . . إنك لاتطمعين فى كسب مبالغ كافية لعيشك وبجانب من عيشى . أفبعد ذلك توفرين أيضاً ! .

– نعم ! . . أشتغل مربية فى إحـــدى الأسر . أعيش عندها ، وآخذ أربعمائة روبل فى السنة . وربما كان أكثر من ذلك .. وهذا يكفى لتيسير أمورنا .

– مانيا . . يا صغيرتى مانيا ! . .

ولم يكن ما أثر فى برونيا اختيار أختها مهنة التابعة ؛ إنها «مثالية» كأختها تحتقر الأحكام الاجتماعية المبتسرة . . كلا ، بل إن ما أثّر فيها هو الفكرة التى تمكنها من بدء دراستها فى الحال ، فى حين تحكم مانيا على نفسها بالعمل المضنى . والانتظار الأليم . . فتحاول أن تعارض :

– ولمـــاذا أسافر أنا أولا ؟ . . إنك موهوبة أكثر منى . . . وسيكون نجاحك سريعاً جداً .

– لاتكونى حمقاء يابرونيا . . . لأنك فى العشرين ، وأنا فى السابعة عشرة ، أمامى المجال فسيح . . وهذا أيضاً رأى أبينا . . ومن الطبيعى

أن تتقدم الكبرى . وحينما يصبح لك أيتهـــا الطبيبة حرفاء « زبائن » تغرقيننى بالذهب .. وهذا رجائى ؛ .. وبذلك نؤدى شيئاً عمليا ذكيا .

* * *

وفى ذات صباح من شهر سبتمبر ١٨٨٥ . كانت فتاة صامتة تنتظر دورها فى مدخل مكتب تخديم ؛ وقد لبست من الثوبين اللذين تملكهما أشدهما خشونة . وتحت قبعتها البالية دبابيس تمسك خصل شعرها الذهبى ؛ إذ لايجوز لمربية أن تدع شعرها يبدو . بل ينبغى أن تكون المربية مؤدبة ، بسيطة . شبيهة بكل الناس ! .

وفتح الباب ، ودعيت مانيـــا . فعراها الخجل . وعركت فى يدها حزمة ضئيلة من الأوراق والخطابات . وكانت امرأة ضخمة جالسة وراء المكتب الصغير :

— ماذا تريدين أيتها الآنسة ؟

— أطلب وظيفة مربية .

— وهل لديك شهادات ؟

— نعم ! فقد أعطيت دروساً ، وهذه شهادات آباء التلاميذ ، وهذه « دبلومى » .

فنظرت مديرة مكتب التخديم ، بعين فاحصة خبيرة ، فى وثائق مانيا . . وبدا عليها الاهتمام بها . . وسألتها :

— أتعرفين حق المعرفة : الألمـانية ، والروسية ، والفرنســـية ، والبولونية ، والإنجليزية ؟

– أجل ياسيدتى ! . ومعرفتى بالإنجليزية أقل .. ولكننى أستطيع تدريس مواد البرامج الرسمية . . وقد تخرجت فى المدرسة الثانوية بالمدالية الذهبية .

– آه ! . . وما طلباتك ؟ . . .

– أربعمائة روبل فى السنة ، والتكفل بى .

– ومن هم أهلك ؟

– أبى أستاذ فى المدارس التجهيزية .

– حسناً . . ربما وجدت لك عملا . . ولكن كم عمرك ؟ .

– سبع عشرة . . ثمانى عشرة عما قريب ! . .

فكتبت السيدة ، بلغة إنجليزية سليمة ، بطاقة المرشحة :

مارى سكلودوفسكى

شهادات طيّبة . طلباتها : مربية

راتب : أربعمائة روبل فى السنة

وردت إلى مانيا أوراقها :

– شكراً أيتها الآنسة ! . سأكتب إليك عند اللزوم .

الفصل الخامس

مربيـــة

دخلت مانيا معترك الحياة .. وبدأت معرفتها بالناس .. فاشتغلت مربية عند أسرة محام :

« انني لا أتمنى لألد اعدائى أن يعيش فى مثل هذا الجحيم ! انه بيت من بيوت أولئك الأغنيـاء يتكلمون الفرنسية الركيكة حينما يكون عندهم ضيوف !.. ولا يدفعون المطلوب منهم مدى ستة أشهر ... وبينا هم يلقون بالنقود من النافذة ؛ يقترون أشد التقتير فى غاز الاستصباح .. ولديهم خمسة من الخدم !.. « أبّهة » كاذبة ، هى نتيجة غباوة كثيفة ... يدور حديثهم على الخوض فى الأعراض بغير حساب ... لقــد بدأت أعرف الجنس البشرى أحسن مما كنت قبلا ، وتعلمت أن الأشخاص الذين تصفهم القصص والروايات كائنون فعــلا . وأيقنت أنه يحسن البعد عن الذين أبطرهم الغنى ، وأفسدهم الثراء ... »

هذه اللوحة التى لارحمة فيها : تصور لنا مانيا مخلوقة رقيقة لاتعرف الشرّ . ولكنها تدل على مبلغ مافيها من السذاجة ، وعلى مبلغ حظها من الأوهام . . فقد توهمت ، إذ اشتغلت عند أسرة بولونيـــة ميسورة الحال ، أنها ستجد فيهم آباء كراماً ، وأبناء لطافاً . . وكانت على استعداد لأن تتعلق وتحب ؛ فكانت الخيبة مرة . . ولم تطق صبراً على البقاء فى ذلك الوسط : الوجيه مظهره ، الدنىء مخبره ؛ إذ لم يسبق لها عهد بنفوس وضيعة ، مادّية . . نفوس مجرّدة من معانى الشرف .

كانت تعيش من قبل فى وسط تى نى . . كانت محاطة بمخلوقات متحابة ، تتزاحم على العلم ، وتتنافس فى الفضيلة . . كانت تعيش فى جو متحمس للعمل والدرس والطموح ؛ فلذلك لم تبد فيه مواهبها ، كما بدا قدرها وقدر إخوتها رائعاً ، بعد أن تحولت إلى جو موبوء لم تكن تتخيل له وجوداً . وازنت أهلا بأهل ، وإخوة بأخوة ، وأبناء بأبناء . . وهاهى ذى ، الفتاة التى لم يحبها الزمان بأرومة عالية الحسب والنسب ، أو ثروة طائلة ، قد صارت أشد ما تكون زهواً وكبرياء بمولدها المتواضع ، وبالتربية التى نشأتها .

ولم تخرج مانيا من تجربتها الأولى ، وهى « مربية » ، بهذه الأحكام القاسية على « الناس الذين أفسدهم المال » ، وحسب . . بل أدركت أيضاً أن الخطة التى سبق لها أن بسطتها لأختها برونيا ، تتطلب تعديلات جوهرية .

فقد قبلت العمل فى فارسوفيا ، على أمل أن تربح مبالغ كافية ، دون أن تحكم على نفسها بالنفى الأليم . . فكان بقاء المربية المبتدئة فى المدينة مخففاً لعذابها ؛ إذ ستظل على مقربة من بيت أهلها ، فتستطيع أن تتحدث كل يوم إلى أبيها لحظات ، فضلا عن متابعة التثقف والدرس ليلا .

لكن التضحية تجر التضحية . . فهى لاتكسب القدر الكافى من النقود . . وهى ، بخاصة ، تنفق الكثير . فمشترياتها اليومية الصغيرة لاتترك لها آخر الشهر إلا فضلات لاتذكر ، فى حين ينبغى عليها أن تستعد لمعونة برونيا ، التى سافرت مع صديقتها « ماريا راكوفسكا »

إلى باريس ، وهى تعيش الآن فى الحى اللاتينى عيشة إملاق . . وكذلك لا يلبث الوالد سكلودوفسكى أن يحال إلى المعاش ، فيصبح هو أيضاً فى حاجة إلى العون . . فما العمل ؟ . .

إنها لاتفكر طويلا . بل تقبل ما سبق أن عرض عليها : مركز مربية فى إقليم بعيد . . تثب إلى جوف المجهول . . ستكون سنوات فراق لأعزائها ، ووحدة مطلقة . . ليكن ما يكون ! . . فالمرتب حسن ، والنفقة معدومة .

وفى أول يناير ١٨٨٦ ، فى يوم برد قارس ، استقلت مانيا القطار فكان أشد أيامها إيلاماً ؛ إذ أقدمت ، وودعت والدها بابتسامة . . وحملها القطار سريعاً . . فأحست فجأة بوطأة الوحشة . . وحدها ! . إنها وحدها لأول مرة فى حياتها ! .

جزعت تلك الصبية التى كانت فى الثامنة عشرة ، وراحت ترتعش من الخجل ، ومن التهيب ، وهى فى طريقها إلى بيت أجنبى بعيد . . ترى ماذا يكون حالها إذا كان أصحاب البيت اللاحق كأصحاب البيت السابق ؟ ثم إذا ما أصيب أبوها بمرض فى غيابها ؟ . . أتعود فتراه ؟ . أو لاترتكب حماقة ؟ . . إن عشرة أسئلة ، بل عشرين ، تزاحمت ، وعذبت الفتاة الملتصقة بنافذة القطار ، تنظر ، فى المغيب ، إلى مر السهول الشاسعة التى غطتها الثلوج ، من خلال دموعها المنهمرة ، وهى تكفكفها بيدها ، ولكن الدموع تعود فتنهمر ! . . .

ثلاث ساعات فى السكة الحديدية . . ثم أربع ساعات فى العربة الزاحفة على الجليد ، فى جلال الصمت ، فى ذات مساء ، فى قلب الشتاء . . .

كان السيد « ز . . . » وزوجته وأسرته قوماً كراماً ، يديرون عزبة على نحو مائة كيلومترٍ من شمال فارسوفيا . . فلما وصلت مانيا، قدموا إليها شاياً ساخناً ، وآنسوا وحشتها بكلمات عذبة ، ودلتها سيدة البيت على غرفتها . . ولم تلبث أن تركتها وحدها ، مع حقائبها البائسة

ومضى شهر، وهي طيبة النفس بالمقام .. توثقت علاقة الود والتفاهم بينها وبين بنت البيت « برونكا » . . وأخذت بالرفق أختها « أندسيا » ، وكانت فى العاشرة ، مطيعة ، وإن كانت مدللة لاتعرف النظام ، ولا تخرج من فراشها إلا بالقوة ، فتضنى مربيتها الرقيقة .

وكانت العزبة مئتى فدان ، تزرع « بنجراً » . وإلى جانبها مصنع السكر . . فالأسرة غنية ، ولكنها ليست طائلة الغنى فإن مئتى فدان ليست ضيعة تذكر بين هـذه الإقطاعيات الكبيرة . وليس بيتهم قصراً ، وإن كان أجمل مما حوله ، تزينه حديقة تتحول فى الصيف جنة فيحاء .

ومرت الأسابيع ، والشهور .. وليست تربية الأطفال مهنة هينة . . إن لها ثمنها الفادح . . تنال من فؤادها ، فلا ينطلق لسانها .

وهى ، فى هذا كله ، لاتنسى أبناء وطنها الذين من حولها . تعرف لهم حقهم عليها فى التعليم . تريد أن تجدد جهاد فارسوفيا ، تحيط تلميذتها برونكا برغبتها ، فتوافقها من فورها .. ولكن مانيا تنذرها وتحذرها :

— فكرى جيداً فى أنه إذا كشف أمرنا كان مصيرنا النفى إلى سيبريا .

تحرم نفسها الانتقال فى إجازة الصيف ، لتوفر بعض المال لنفسها ولأختها ، وتزيد فى جهدها لتعليم أبناء عمال مصنع السكر . لايكفيها

ماتجد من متاعب تربية ثلاثة أولاد ، فتتخذ عشرين ولداً فقيراً آخرين تلاميذ لهـا . . وهم من حولها بنون وبنات ، لا يطيب لهم منظر ولا رائحة .. ومع ذلك، فحين يبدأون فى « فك الخط »، ويعرفون « الألف » من « الياء »، يبهر آباءهم فوز أبنائهم المبين .. وكأن مانيا قد كشفت قارة جديدة من الخير والسعادة . . فها هى ذى تفكر فى كل تلك القوى المهملة والمواهب المهدرة . . وتحس أنها ، إزاء هذا الأوقيانوس الهائل من الجهل ، أشد ما تكون ضعفاً ، وأشد ما تكون عجزاً ! . .

الفصل السادس

صبر جميل

هيهات أن يخطر ببال أولئك الفلاحين الصغار ، أن « مدموازيل ماريا » تفكر بأسى فى جهلها . . وما كانوا ليتوهموا أن معلمتهم تحلم بأن تعود تلميذة ، وأنها تريد ، بدلا من أن تعلّم ، أن تتعلّم !..

هذا ، وفى اللحظة التى كانت فيها مانيا تتأمل من نافذتها العربات المحملة بالبنجر فى طريقها إلى مصنع السكر ، كان هناك ، فى برلين وفيينا ، وبطرسبورج ، ولندن : ألوف وألوف من الشبان ، يستمعون إلى الدروس والمحاضرات ، ويشتغلون فى المعامل والمتاحف والمستشفيات وفى داخل « السوربون » الشهير ، خاصة ، يعلمون علم الحياة ، والرياضيات ، وعلم الاجتماع ، والكيمياء والطبيعة ! .

إن مانيا سكلودوفسكى تتمنى أن تذهب للدرس فى فرنسا أكثر من أى بلد آخر . فنفوذ فرنسا يبهر عقلها .. أما فى برلين وفى بطرسبورج فيسيطر الذين يضطهدون بولونيا ويحكمونها على رغمها . . وأما فى فرنسا فيعزون الحرية ، ويحترمون كل المشاعر وكل المعتقدات ، ويرحبون بالتعساء والمضطهدين ، من أى مكان جاءوا . .

أحقاً ، وفى الإمكان ، أن تأخذ مانيا القطار يوماً إلى باريس ؟. وهل يتاح لها ، أو يباح ، كل هذا الهناء العظيم ؟ .

لقد أضاعت كل أمل فى ذلك . والاثنا عشر شهراً الأولى ، التى قضتها فى حياة ريفية خاملة خانقة ، قد بددت خيالات فتاة ، مهما تكن أهواؤها الفكرية وأحلامها ، فهى ليست فريسة للأشباح والأوهام.

وعندما تحاول مانيا وضع الأمور فى نصابها ، ترى أمامها مركزاً جلياً ، وليس له فى الظاهر مخرج . . ففى فارسوفيا : أبوها ، الذى لا يلبث أن يحتاج إليها . . وفى باريس : برونيا ، التى لابد من معاونتها خلال سنوات وسنوات ، قبل أن تستطيع كسب مليم . . وهنا ، فى هذه العزبة النائية : ماريا سكلودوفسكى ، مربية . . . ومشروع جمعها رأس مال ، الذى بدا لها من قبل ممكناً ، يحملها الآن على الابتسام ؛ . . فقد كانت خطـــة رسمتها طفلة ، وهاهى ذى فى صميم الريف البولونى . . ولا سبيل إلى الفرار من مثل هذه الديار !

وجميل أن نرى أن هذه المخلوقة النابغة ليست فى عداد المعصومين ، فهى ، بدلا من أن تحتفظ بثقـــة فوق الطاقة البشرية ، تتألم وتقنط كأى فتاة مثلها فى التاسعة عشرة . وجميل أيضاً أن نراها تناقض نفسها . . ففى اللحظة التى تدعى فيها نبذ كل شىء ، تناضل ببطولة ضارية ضد دفنها . إنها يقيناً الفطرة القوية التى تحملها على السهر كل مساء أمام مكتبها ، تقرأ مجلدات فى الاجتماع والطبيعة ، استعارتها من مكتبة مصنع السكر ، وتزيد فى محصولها الرياضى ، بمكاتبات نشيطة مع أبيها . .

إنه لجهد جاهد ، وعبء باهظ ، لاندرى كيف لم ينقض ظهرها. فهى مبعدة فى هذا المنفى الريفى ، قد حرمت من التوجيه والنصح . .

وهى تتلمس طريقها ، خبط عشواء ، فى تيه المعرفة ، تنشد التحصيل من كتب مدرسية عتيقة . وفى ساعات اللوعة ، كانت تشبه فلاحيها الصغار الذين يلقون بعيداً كتب الهجاء فى حال يأسهم من معرفة القراءة . ومع ذلك كله ، ظلت تتابع مجهودها كفلاحة عنيدة ! . .

كتبت بعد ذلك بأربعين عاماً تقول :

« كان الأدب يشوقنى . بقدر ما يشوقنى علم الاجتماع والعلوم البحتة . بيدانى عندما حاولت ، شيئا فشيئا ، ان اكتشف ميولى الحقيقية ، خلال تلك السنين العاملة ، وجدتنى ، آخر الأمر ، اتجه نحو الرياضيات والطبيعة ...

وكانت دراساتى المنفردة متشعبة العقبات . وكانت تربيتى العلمية التى تلقيتها فى المدرسة ابعد ما تكون عن التمام ، واقل بكثير من برنامج البكالوريا فى فرنسا . فحاولت أن اكملها على طريقتى ، بمساعدة الكتب المختلفة التى جمعتها يد المصادفات . ولم تكن تلك الوسيلة ناجعة ، غير انها عودتنى العمل المستقل ... وتعلمت بها اشياء نفعتنى فيما بعد ... » .

وهى تعمل من الصباح إلى المساء . فإذا خلت من العمل ، وجب أن تتعلم على شيخ من أقارب أهل البيت لعبة الشطرنج ، لتلاعبه وتسليه ! ويجب أن تكون الرابعة ليتم لعب الورق ! . وهو ما ينزعها عن كتبها ، ويدعوها إلى الشكوى إلى بنت عمها « هنرييتا » :

« .. وكتبت الى برونيا العزيزة من باريس ، تشكو صعوبات الامتحان ، وانها تعمل كثيراً ، وان صحتها تدعو الى القلق .

تسألينني عن خطط المستقبل ؟. ليس لدى منها شىء ، او هى من البساطة بحيث لا اجد حاجة الى الكلام عنها . سأجاهد ما استطعت ، ويوم لا استطيع ، سأقول : **وداعاً لهذا العالم السفلى !** .. وتكون الخسارة طفيفة ، ويكون الأسف هيناً ..

وبعض الناس يزعمون انه لابد لى من تذوق تلك الحمى التى يسمونها الحب . وهو مالا يدخل فى برنامجى على الاطلاق . ولئن كانت لى قبل الآن هواجس ، فقد تبخرت ، ودفنتها ، وختمت عليها ، ونسيتها . .) .

إن هذه اللهجة اليائسة ، والإشارة إلى الانتحار ، والتشكك فى الحب ، تتطلب تفسيراً .

والتفسير بسيط تافه . . يمكن أن يسمى : « قصة فتاة فقيرة » . . من مثل ما نرى فى قصص العواطف التى لاحصر لها ! .

وقصة مانيا سكلودوفسكى تبدأ بأنها كانت قد أصبحت جميلة ، تتلألأ بشرتها نضرة ، وينتثر شعرها تبراً . . كان محياها يلفت النظر ، بما فيه من : فم يدل على العزم ، وعينين رماديتين ، عميقتين تحت أهدابهما ، كبيرتين من اتساع نظرهما .

فلما عاد ابن الأسرة البكر « كازيمير » من جامعة فارسوفيا ، ليقضى فى العزبة أيام العيد ، ثم عطلة الصيف الطويلة . . وجد فى البيت مربية ترقص رقصاً مدهشاً ، وتجذف ، وتزحف على الثلج . . وهى روحية ، مهذبة ، تحفظ الشعر ، كما أنها تركب الخيل ، وتقود المركبة . . فتاة تختلف كل الاختلاف عن كل من عرف من الفتيات ؛ فوقع فى حبها . . . ومانيا ، مانيا التى تخفى تحت مبادئها الثورية قلباً جريحاً ، قد فتنت بهذا الطالب ، الموفور الجمال ، الدمث الأخلاق . ولما تكن قد بلغت التاسعة عشرة ، ولم يكن يكبرها إلا بقليل . فتعاهدا على الزواج .

وكأن ليس شيء يعترض هذا الزواج . . حتماً . أن مانيا ليست في العزبة إلا « مادموازيل ماريا : المربية » . . ولكن الجميع يحبونها . فوالده يستصحبها إلى الحقول في نزهات خلوية طويلة . والوالدة تحميها وترعاها . وأخته برونكا تعبدها . . وقد قدروا فضائلها . . فدعوا غير مرة أباها وأخاها وأختيها للنزول عندهم . . وفي عيد ميلاد مانيا يتقدمون إليهـا الهدايا والأزهار .

لذلك تقدم « كازيمير ز . . . » إلى والديه . تحدوه الثقة ، بطلب الموافقة على الخطبة . . فجاء الجواب خاطفاً : غضب أبوه وثارت ثائرته ، وكادت أمه يغمى عليها . . أيمكن ، وهو كازيمير . ولدهما الأثير . أن يختار مخلوقة لا تملك دانقاً ، مضطرة إلى الخدمة عنـد الناس » ؟ ! : . . هو ، الذي يستطيع غداً أن يتزوج . من هـذا الإقليم . أعز الفتيات جاهاً ، وأوفرهن مالا ؟ ! : .. هل أصابه مس ، فجن جنونه ؟ !

وفي لحظة واحدة قامت الحواجز الاجتماعية ، وشمخت بأنفها ، وارتفعت حتى لم يكن سبيل إلى اجتيازها ، في بيت كانت مانيا تعامل فيه معاملة الند ، كأنها صديقة . أما أن الفتاة من أسرة طيبة ، وأنها مثقفه ، وأنها مستقيمة ، ولا غبار على سمعتها ، وأما أن أباها رجل شريف ، معروف في فارسوفيا ، فليس لشيء من هذا كله وزن أمام هذه الكلمات الخمس الصغيرة : **« المرء لا يقترن بمربية أولاد »** .

وكان الطالب ضعيف الخلق ، خشي اغضب أهله . فانهارت عزيمته ، وحبست مانيا نفسها في جو من الصمت المطبق المثلج ، استصغاراً

لشأن أولئك الذين هم دونها . . وقد اعتزمت أمراً : ألا تفكر بعد فى هذا الخيال .

ولكن الحب ، كالطموح ، لا يكفى مجرد الحكم بالموت للقضاء عليه . . .

* * *

لم يكن فى وسعها إلا البقاء . . فإلى أين تذهب ؟ ومن أين لها مثل هذا : مكان طيب، وراتب حسن ؟.. وكيف تزعج أباها برحيل مفاجىء ؟ ولم يعد ماادخرته برونيا إلا أثراً بعد عين . . فهى وأبوها اللذان يدفعان لها نفقات الدراسة بكلية الطب فى باريس . فترسل كل شهر إلى أختها خمسة عشر روبلا ، وأحياناً عشرين روبلا ، أى نحو نصف راتبها . ولم يحدث بينها وبين أهل البيت جدال أليم ولا تفسير . فخير لها أن تتجرع كأس المهانة وتبقى ، كأنه لم يحدث شىء ألبتة ! . .

شقية فى الحب ، يائسة من تحقيق أحلام عقلها ، عسر مادى شديد . لايبقى لها من أجرها شىء ، بعد الذى تساعد به هؤلاء وهؤلاء من أهلها . .

وهى تتجه إلى أسرتها ، لالتشكو أو تطلب العون ، ولا لتبدى مرارتها . بل لتمحض النصح ، وتقدم يد المساعدة ، كيما تكون لهم حياة موفورة .

* * *

تشير على أخيها جوزيف أن يبقى فى فارسوفيا ، ليزاول الطب ، ولو استدان بضع مئات من الروبلات ، لئلا يقبر نفسه فى الريف ،

ويحرم جو البحث العلمي ، بلا صيدلية ، ولا مستشفى ، ولا كتب ، ولا مجلات . وبذلك تؤثر استمرار تضحيتها ، بدلا من أن يحمل عنها أخوها بعض أثقالها . وهى تهاجمه من ناحية العاطفة : برونيا فى باريس وهيلا قد تتزوج المسيو « ب . . » ، وهو سيبعد عن فارسوفيا . . فماذا يصيب أباهم المسكين وحده ؟

ثم تسمع أن أختها هيلا لم توفق للزواج :

«انى لأتصور الجرح الذى أصاب هيلا فى كرامتها ... فاذا كان هؤلاء الناس لا يريدون الزواج بالفتيات الفقيرات ، فليذهبوا الى الشيطان !.. فليس أحد يسألهم زواجاً ... فلماذا يزيدون الطين بلة ، ويعكرون صفو حياة مخلوق برىء ؟.. » .

واقرأ خطابها إلى جوزيف فى ١٨ مارس ١٨٨٨ :

(يا عزيزى جوزيو الصغير ! سألصق على هذا الخطاب آخر طابع أملكه ، وليس لدى مليم واحد فعلا ، فلن اكتب اليك قبل العيد .. فتقبل اذن من الآن تهانئى .. واعلم ، اذا قصرت فى الكتابة ، أن الذنب ذنب نقود وطوابع لا أثر لها عندى ، وهو ما يحز فى صدرى ، أما السؤال فشىء لم اتعوده بعد ...

لشد ما أتمنى أن لو أقضى بضعة أيام فى فارسوفيا !. ولست أذكر ثيابى التى أصبحت لا تحتمل ، ولكنى أذكر أيضاً روحى التى صارت لا تستطيع صبرا .. ليت لى أن أخلص أياماً من هذا الجو البارد ، المبرد ، الناقد ، الذى فيه رقابة مستمرة على أقوالى ، وتعبير نظراتى ، ومعنى حركاتى !.

لقد مضى وقت طويل لم تكتب الى فيه برونيا . فهى بلاشك مثلى ، ليس لديها طابع بريد !. . فاذا استطعت أن تضحى بطابع ، فرجائى أن تكتب الى !.. فانى فى قلق على هيلا بعد خيبة أملها فى الزواج ، وعلى أبى .. ولست أنا أسعد حظا ، فلولا تفكيرى فى برونيا لاستقلت من هذا البيت ، ورحلت .. ولكن مبدئى الأول : الا اقع صريعة الحوادث ، ولا فريسة الناس ..)

الفصل السابع

الفــــرار

مرت ثلاث سنوات منذ أصبحت « مدموازيل ماريا » مربية . . ثلاث سنوات متشابهة مملة : كثير من الأعمال ، ولا مال . . وقليل من المسرات ، ثم حزن شديد . . . والآن، ستجيء حركات عرضية ، فتحول كيان الفتاة الجامد الكئيب ! . . إن بعض الحوادث فى باريس وفى فارسوفيا ، وفى هذه الضيعة البولونية السحيقة ، ستقع . . ومهما يكن من ضآلتها فى الظاهر ، فهى ستغير اللعبة الخفية ، التى يلعبها قدر مانيا ، فيتقرر المصير .

فالمسيو سكلودوفسكى ، بعدما أحيل إلى المعاش ، طفق يبحث عن عمل يدر عليه رزقاً ، ليعين بناته . وفى أبريل ۱۸۸۸ قبل وظيفة من شر الوظائف إرهاقاً وإزعاجاً ؛ لأنها إدارة مدرسة للأحداث غير بعيدة عن فارسوفيا . . وكان جوها ووسطها وكل مافيها لايطاق ، ما خلا راتبها الكبير بعض الشيء . . فأرصد منه الرجل الكريم ، من فورد ، مبلغاً شهرياً لدراسات برونيا .

وكان أول مافعلته برونيا : أن طلبت إلى مانيا ، أن تكف عن إرسال نقود لها ، وأن طلبت من أبيها : أن يحجز من الأربعين روبلا ، التى يعطيها إياها شهرياً ، ثمانية روبلات تدفع لأختها الصغرى مانيا ؛

لتعوضها شيئاً فشيئا عما تلقته منها . ومنذ تلك اللحظة ، أخذ رأس مال مانيا الذى بدأ يصغر ، يزيد . . .

وحملت رسائل طالبة الطب فى باريس أنباء طريفة أخرى . . فهى تعمل ، وهى تجتاز امتحاناتها بنجاح . . وهى تحب ! . . تحب بولونيًّا مثلها ، يدعى **« كازيمير دلوسكى »** ، رفيقها فى الدرس . . وهو ممتاز بجاذبيته وشمائله ، لا غبار عليه إلا أنه ممنوع من الإقامة فى بولونيا الروسية ، ومهدد بالإبعاد إلى سيبريا إذا وطئتها قدماه !

وكنا فى الضيعة ، سنة ١٨٨٩ . لقد أنهت مانيا مهمتها ، وآن لها أن ترحل . وقد وجدت المربية الشابة مكاناً عند أسرة « ف . . » من كبار رجال الصناعة . . فهو تغيير ما كان أشد حاجة مانيا إليه ، وتلهفها عليه .

وداعاً إذن يا حقول البنجر ، ويامصنع السكر ! . . ابتسامات لطيفة متبادلة من الجانبين . . ثم استئذان . . لقد أعتقت ! . واستقلت القطار . . وأخذت تأكل فى الطريق خبزاً وحلوى . ثم وجدت السيد « ف . . » وزوجته فى انتظارها فى المحطة . . وهما غاية فى اللطف . . ولم تلبث أن تعلقت بالأطفال . . .

وستكون السنة القادمة للفتاة سنة دعة وراحة بعض الشىء . . فالسيدة « ف . . » جميلة جداً ، وأنيقة جداً ، وغنية جداً . . ولديها فراء وجواهر . . وأثوابها من عند « ويرث : Worth » الشهير فى باريس . وستعرف مانيا ، وتشهد ، الأشياء الشائقة الطائشة ، التى فى مقدور المال أن يغدقها على المرأة المدللة ، وهى الأشياء التى لن تحظى بها أبداً ،

فكان هذا أول لقاء وآخر لقاء بينها وبين الترف ؛ . . وكانت ربة البيت تفيض لطفاً وعطفاً على « مدموازيل سكلودوفسكى الفاتنة » : تسرف فى مدحها . وتصر على حضورها جميع حفلات الشاى والسهرات الراقصة التى تقيمها ! . .

وفجأة ، رعد الرعد ، وبرق البرق ؛ . . فقد حمل ساعى البريد ، ذات صباح ، رسالة من باريس : رسالة رخيصة على ورق بالمربعات ، سودتها برونيا بين محاضرتين فى مدرج الجامعة ، تعرض فيها الفتاة النبيلة على مانيا ضيافتها ، فى العام القادم ، فى بيتها الجديد ! . .

من برونيا إلى مانيا — باريس ، مارس ١٨٩٠ :

(اذا سار كل شيء على ما نرجو ؛ فانى سأستطيع الزواج حتماً عند بدء العطلة . وسيكون خطيبى قد صار طبيباً ؛ ولا يبقى امامى الا اجتياز آخر امتحاناتى . وسنبقى سنة اخرى فى باريس ، أنال فيها اجازتى ؛ ثم نعود الى بولونيا . ولست أرى شيئاً غير معقول فى هذا البرنامج . ألست على حق ؟ تذكرى انى فى الرابعة والعشرين من سنى ؛ وهو ما لا يستحق الذكر . اما هو ففى الرابعة والثلاثين ؛ ولهذا خطره . ومن العبث الانتظار أطول من ذلك !.

. . . والآن ، انت ؛ يا صغيرتى مانيا ؛ لابد لك من ان تعملى يوماً ما فى حياتك عملا . فاذا جمعت بضع مئات من الروبلات هذه السنة ، استطعت ؛ فى العام القادم الحضور الى باريس ؛ والسكنى عندنا ؛ حيث تجدين الغذاء والمأوى . ولا مندوحة لك مطلقاً عن أن يكون معك بضع مئات من الروبلات للالتحاق بالسوربون . وستعيشين السنة الأولى معنا . أما السنة الثانية والثالثة ؛ اذ نكون قد رحلنا ، فأنا أقسم لك : أننا ، أبى وأنا ، سنهب جميعاً لمعونتك . فاحزمى أمرك . واتخذى قرارك . فقد طال بك

الانتظار ! وانى الكفيلة لك بفوزك بالليسانس فى سنتين . فكرى اذن ، واجمعى المال ، وضعيه فى مكان امين ، ولا تسلفيه ! وربما كانت الخيرة فى تحويله فوراً الى فرنكات ؛ فان سعر القطع حسن فى هذه الأيام ؛ وربما هبط بعد ذلك . . .) .

أفتظن أن مانيا ستتحمس ، وتتهافت على هذه الهناءة معلنة وصولها ؟ كلا ! إطلاقاً ؛ . . فإن سنى النفى والوحدة ، بدل أن تحد من طبع هذه الفتاة العجيبة ، قد جعلتها تتردد وتتحرج ؛ . . وجعلها شيطان التضحية قديرة على أن تضيع حظها ، وتفلت ، عن قصد ، نصيبها . . ذلك لأنها قد وعدت أباها العيش معـــه ، ولأنها تريد مساعدة أختها هيلا ، ومعاونة أخيها جوزيف . . لقد أصبحت مانيا غـــير راغبة فى السفر ! . .

وعادت برونيا فألحت . . ولكنها كانت ، مع الأسف ، تنقصها الحجة القاطعة ، التى بها تستطيع أن تضعها فى القطار على رغمها ؛ إذ كانت أفقر من أن تستطيع دفع نفقات رحيل أختها الصغرى .

وكان الأب لايرغب فى فراق صغيرته مانيا ، الأثيرة عنده ، المفضلة ، فيدعها تسافر مغامرة فى الدنيا الواسعة . . كان يرجو لو أن شيئاً حدث فاستبقاها فى بولونيا ، كزواجها بالشاب « كازيمير ز . . » مثلا ، فيكون له صهران باسم كازيمير ! . .

ولكن مانيا كانت قد قطعت آخر أوصال تلك العاطفة ، حينما تقابلت والفتى صيفاً فى الجبل ، ورأت تردده وجزعه على أهله . . فثارت ، وقالت :

ـ إذا كنت لاتعرف كيف تفسر الموقف ، فليس لى أنا أن أعلمك ذلك ! .

وانتهى كل مابينهما . وحسبت السنوات القاسية ، التى قضتها : تربى أولاداً ، وتعانى ذلا ، وتشقى فقراً ، وحرماناً من باريس وعلوم باريس . . فإذا هى قد تخرجت من المدرسة منذ ثمانى سنوات ، وعملت مربية ست سنوات . . ولم تعد الصبية المراهقة ، التى ترى أمامها كل حياتها .. فهى ، بعد بضعة أسابيع ، ستبلغ الرابعة والعشرين .

وفجأة ، تصرخ ، وتطلب من برونيا الغوث :

من مانيا إلى برونيا — فارسوفيا فى ٢٣ من سبتمبر ١٨٩١ :

(... والآن يا برونيا ، أسألك رداً نهائياً .. فقررى : أأنت تستطيمين حقاً أن تأخذينى عندك .. لأننى ، من جانبى ، قد قررت الحضور ، ولدى نفقاتى . فاذا كنت ، بغير ضيق كثير ، تستطيعين أن تمنحينى لقمة العيش ، فاكتبى الى ، فذلك هو الهناء العظيم ؛ لأنه ينقذنى روحياً ، بعد المحن القاسية التى مررت بها هذا الصيف ، والتى ستؤثر فى طول حيـاتى .. ولكننى ، من جانب آخر ، لا أريد أن أفرض نفسى عليك .

وما دمت تنتظرين ولداً ، فلعلى أكون نافعة عندك . فاذا كان حضورى أمراً ممكناً ، فاكتبى الى .. وأى امتحانات للدخول علىّ اجتيازها ؟ وما هو آخر موعد للالتحاق بالجامعة ؟ .

ان فكرة السفر تشغلنى ، الى حد أنى لا أستطيع أن أحدثك عن شىء آخر ، قبل وصـول ردك . فأتوسل اليك أن تكتبى الى حالا ، وانى أرسل اليكما أرق عواطفى .

تستطيعين أن تضعينى حيث شئت ، فلن أزحمك ، واعدك الا اضايقك فى شىء ، أو أخل بنظـام ... أضرع اليك أن تردى علىّ ، على أن يكون ذلك بصراحة تامة ! ..) .

وإذا كانت برونيا لم ترد بالتلغراف . فلأن التلغراف ترف متلف لا قبل لها به . وإذا كانت مانيا لم تلق بنفسها فى أول قطار . فلأنها

كان ينبغي لها : أولا ، بدقة وتقتير ، أن تنظم الرحيل العتيد . فصفت على منضدة ، كل مالديها من الروبلات ، التي أضاف إليها أبوها في آخر لحظة مبلغاً زهيداً ، هو بالقياس إليه شيء كبير . . وبدأت إحصائياتها :

كذا لجواز السفر ، وكذا لتذكرة السكة الحديدية . ويكون من نزوة الطيش ركوب القطار رأساً من فارسوفيا إلى باريس في الدرجة الثالثة وهو أرخص ما في روسيا وفرنسا . . إذ توجد في ألمانيا ، ولله الحمد ، درجة رابعة في عربات بغير دواوين ، مكشوفة ، أشبه بعربات البضائع ، وفي كل جانب من جوانبها الأربعة أريكة (دكة) خشبية . وفي الوسط فراغ إذا جلس فيه المرء على كرسي يطوى يحمله معه ، فلن يسوء تماماً . .

ولم تنس ماري نصائح برونيا العملية : أن تأخذ معها كل مايلزمها لحياتها . بحيث لاتفاجأ في باريس بنفقات . . وسيرسل سرير مانيا والمراتب والبياضات والفوط قبل سفرها بزمن طويل ، بقطار البضاعة غير المستعجل . . أما ثيابها ، المصنوعة من صوف متين ، وأحذيتها وقبعاتها ، فقد جمعتها حولها ، إلى جانب حقيبة خشبية كبيرة ، بنية اللون ، خشنة جداً ، ومتينة جداً ، رسمت عليها الفتاة بشغف الحرفين الأولين الكبيرين الأسودين من اسمها : M. S. .

وشحنت المراتب ، وعجل الصندوق الخشبي ، وبقي للمسافرة أنواع من اللفائف والصرر التي لايروق العين منظرها ، والتي ستكون رفيقتها .

فى رحلتها . . وأعدت زادها من الطعـــام والشراب ، لأيام السفر الثلاثة فى القطار ، وكتباً ، وكيساً من « الكراملة » ، وبطانية . .

وفى الليل ، تمزقه صفارات القاطرة ودوىّ العجلات ، اجتازت عربة الدرجة الرابعة ألمــانيا . . وانطوت مانيا فوق كرسيها ، وقـــد غطت ساقيها ، تضم إليها صررها ، وتعنى الفينة بعد الفينة بتعدادها ؛ . وهى فى هــذا كله تتذوق فرحها الإلهى . . تفكر فى المــاضى ، وفى هذا السفر الخيالى الذى طال انتظاره . وتحاول أن تتصور المستقبل ، وتزعم أنها لاتلبث أن تعود إلى مسقط رأسها : معلمة متواضعة .

فما كان أبعدها ، وما كان أقصاها ، إذ صعدت هذا القطار ، عن التفكير فى أنها قد اجتازت حدًّا يفصل بين الظلمة والشعلة : بين حقارة الأيام المتشابهة ، وبين حياة حافلة لا حد لهـا . . .

الجزء الثاني

الفصل الثامن

باريس

لم يكن فى باريس يومئذ « أوتوبوس » بل « أمنيبوس » ، بثلاثة خيول وطابقين . ولم يكن الطريق ، من حى لاڤيليت (السلخانة !) إلى السوربون ، بالطريق المريح أو السريع . . ولم يكن يمر بأجمل أحياء باريس . . . فمن شارع ألمانيا (شارع چان چوريس الآن) ، حيث كانت تقطن برونيا وزوجها ، « أمنيبوس » إلى محطة الشرق (جاردى‌لست) ، ومن محطة الشرق إلى شارع المدارس (روديزيكول) أمنيبوس آخر . وكان الدور الثانى من الأمنيبوس (ويدعى الأمبريال) يسبّب الدوار ، ويعرّض لكل الأدواء .

وإلى هذا « الأمبريال » كانت تسرع مانيا ؛ لأنه كان أيضاً الأرخص والأظرف متأبطة حقيبة قديمة من الجلد ، كانت تصاحبها فى فارسوفيا . ومن قمة هذا المرصد المتحرك تمد عنقها ، وتلتهم ما حولها . . ماذا عليها لو أن شارع لافاييت كان لا ينتهى ؟ أو كانت حوانيت بولفار سيباستبول متزاحمة ، متراصة ، متشابهة ؟ . . فهذه الحوانيت الصغيرة ، وهذه الأشجار المتجردة من أوراقها ، وهذا الزحام ، وهذه الرائحة : رائحة أديم الأرض ، كل هذا كان باريس . .

ها أنت ذى يا باريس . . بعد أن طال السفر ! . . . .

ما أشد شعور الإنسان بالشباب فى باريس ! وما أشد إحساسه فيها بأنه فتى ، قوى ، يتوثب حيوية ، ويتحفز أملا ! . . ويا له من شعور مدهش ، فى فتاة بولونية : شعور بالخلاص والتحرر ! . .

وعندما نزلت مانيا إلى رصيف محطة الشمال « جاردى نور » الداخن ، وقد أضنتها رحلة القطار الطويلة ، انفصمت عنها فجأة قيود العبودية ، واعتدلت قامتها ، وتنهدت مرتاحة القلب والرئتين . لقد كانت هذه أول مرة تستنشق فيها هواء بلد حر . وبدا لها ، فى تحمسها ، كل شيء معجزاً : من أولئك المارة يتنزهون فى الطرقات ، يتخاطبون باللسان الذى يفهمونه ، إلى باعة الكتب الذين يبيعون دون حرج مؤلفات العالم أجمع . . حتى بدت لها المعجزات فى تلك الشوارع الفسيحة الرأسية التى تتجه فى انحناء لطيف نحو قلب المدينة ، وتقودها هى — مانيا سكلودوفسكى — إلى أبواب الجامعة المفتوحة على مصراعيها. وأية جامعة ؟ ! . . أشهر الجامعات ! . . تلك التى وصفت منذ أجيال بأنها : « مختصر الكون » . . تلك التى قال فيها لوثر : « فى باريس نجد أشهر المدارس طرا ، وأفضلها ! وتسمى السوربون » . .

إن المغامرة جديرة بقصة من « ألف ليلة وليلة » ! . . فهذا الأمنيبوس ، البطىء ، المختل ، المثلج ، هو عربة سحرية ، تقود الأميرة الفقيرة الشقراء ، من مسكنها المتواضع ، إلى قصر أحلامها ! . .

وعبرت المركبة نهر السين ، فبدا كل ما حول مانيا يفتن اللب : الذراعان اللتان يمدهما النهر ذو الضباب ، والجزر الرائعة بجلالها وجمالها ، والتماثيل ، والميادين . . وهناك ، إلى اليسار ، أبراج « نوتردام » . . .

ولما بدأت الخيول تصعد بولفار سان ميشيل ، خففت الوطء ، وأخذت تسير خطوة خطوة .. إنه هناك ! .. هناك ! .. إنها وصلت إذن ! .. فأمسكت الطالبة حقيبتها ، ولمت طيات ثوبها الصوفى الثقيل . وفى تسرعها ، دفعت ، غير منتبهة ، إحدى جاراتها ، فاعتذرت فى خجل بلسان فرنسى متردد . . ولم تلبث أن نزلت درجات الطبقة العليا (الأمبريال) من الأمنيبوس ، وصارت فى الطريق ، فهرعت بوجه مشرق نحو « **قصر المعرفة** » . . فقرأت إعلاناً أبيض ، ملصقاً على الحائط بجانب مسكن البواب :

الجمهورية الفرنسية

كلية العلوم ــ الثلاثة الأشهر الأولى

تفتح فصول السوربون يوم ٣ نوفمبر ١٨٩١

كلمات ساحرة ؛ بهرت عينى الفتاة التى جمعت قليل مال : قرشاً قرشاً ، فصار لها حق الاستماع إلى ماتحب وتختار من الدروس المعلن عنها ، والتى لاحصر لها .

مانيا الآن ــ وافرحتاه ! ــ طالبة فى كلية العلوم ! .

وهى لم تعد تدعى « مانيا » ولا « ماريا » ! فقد سجلت اسمها فى طلب الالتحاق ، بالفرنسية هكذا « مارى سكلودوفسكى » . وهو اسم لم يستطع رفاقها أن ينطقوا مقاطعه البربرية « سكلو- دوفس . كى » ولم تسمح البولونية لأحد منهم برفع الكلفة فيناديها : « مارى » ، فظلت مجهولة ، محاطة بالخفاء . وكثيراً ما كانت تلك الفتاة ذات الثوب المحتشم

البائس ، والمحيا النافر ، والشعر الناعم الصافى ، تمر فى أبهاء السوربون الرنانة ، فيدهش الشبان ، ويتلفتون متسائلين : « من تكون هذه ؟». ويجىء الجواب غامضاً فى الغالب، إن هو جاء : « إنها أجنبية .. اسمها لا يُنطق ! .. وهى دائماً فى الصف الأول من دروس علم الطبيعيات.. ليست ثرثارة ! . . » .

ويتبع الشبان بأبصارهم القوام المعتدل، حتى يختفى ، ثم يقولون: « شعر جميل ! » .

وظل الشعر الذهبى والرأس السلافى زمناً ، عند طلبة السوربون ، هما كل ما يحقق شخصية زميلتهم المتوحشة النافرة ! .

ولكن هؤلاء الشبان ، كانوا ، يومئذ ، آخر مايهم تلك الفتاة . كانت مفتونة ببعض السادة الوقورين ؛ الذين تريد أن تنتزع سرهم من صدورهم ، والذين يسمون « أساتذة التعليم العالى . . » . وكانوا – طبقاً لتقاليد المعهد المحترمة – يضعون عند إلقاء محاضراتهم ربطة عنق بيضاء ، ويرتدون الثوب الجامعى الأسود ، الملطخ دائماً بالطباشير . فعاشت مارى منجذبة إلى هذه المسوح المهيبة ، وهذه اللحى الرمادية .

أول من أمس ، كان فصل « البروفسور ليبمان » المنطقى الرزين ، وأمس استمعت إلى « البروفسور بوتى » الذى يطبق رأسه على كنوز من العالم . ودت مارى لو سمعت كل الدروس ، وعرفت الثلاثة والعشرين أستاذاً المسجلة أسماؤهم على إعلان الحائط . وعرضت لها صعوبات جمة خلال الأسابيع الأولى ؛ إذ زعمت أنها تعرف اللغة الفرنسية معرفة تامة فوجدت أن ينقصها منها الكثير . وزعمت أنها على ثقافة

علمية كافية لتتبع دروس الجامعة ، فوجدت أن كل ما تعلمته لايمكن أن يحل محل « البكالوريا » المبينة فى مدارس باريس ، وأن أمامها عملا متواصلا ، قبل أن تحصل على ليسانس العلوم . . وكان اليوم درس « بول آبل . . » : صفاء فى العرض ، وتنوع فى الأسلوب . فما كان أهدأ صوته ، وأرق إشارته ، وأنقى عبارته ، حتى ليخيل لسامعه أن الدنيا فى يده ! وهو يغامر فى أقاليم المعرفة النائية ، فإذا بها دانية ، ويلعب ما طاب له بالأرقام ، بالنجوم ! . . ولما كان لايتهيب صورة من الصور ، فهو يقول بلهجة طبيعية للغاية ، وهو يقرن الكلمات بإشارة السيد المالك :

« — إنى آخذ الشمس ، وألقى بها ! ! . »

والطالبة البولونية ، على المقعد الأول ، أمامه ، تسمع ، وتبتسم : فى نشوة وانجذاب ! . . وتحت جبينها العريض المستدير ، تتألق عيناها الرماديتان بالهناءة . كيف يكون العلم جافاً ؟ ! هل هناك شىء ألذ وأمتع من القواعد الثابتة التى تحكم الكون ؟ . . أهناك ما هو أروع وأبدع من الذكاء الإنسانى القدير على كشفها ؟ ! . . إن الروايات والقصص مهما يكن فيها من خيال رائع يستهوى الألباب ، لتتضاءل وتبدو فارغة إذا هى قورنت بالظواهر الخارقة للعادة ، المرتبطة فيما بينها بقواعد منسجمة ؛ هذا النظام الذى يبدو فى اللانظام ! ! .. إن اندفاعاً : لا يمكن تشبيهه إلا بالحب ، قد تولد فى نفس الفتاة : شوقاً إلى لا نهائية المعرفة ، إلى الأشياء ، وقوانين الأشياء .

« — إنى آخذ الشمس ، وألقى بها ! ! ».

تالله إن سماع هذه العبارة وحدها ، من فم عالم مطمئن جليل ، ليجزى عن الكفاح والألم ، بعيداً عن الوطن ، كل تلك السنين .. ويجزى ، الجزاء الأوفى ! . .

هنيئاً لك يا مارى ! .

* * *

[من كازيمير دلوسكى (زوج برونيا) إلى حمية المسيو سكلودوفسكى :]

٩٢ شارع المانيا
الاستشارة من ١ ــ ٣
العيادة المجانية يومى الاثنين والخميس من ٧ــ٨

(سيدى المحترم العزيز

كل شىء عندنا على ما يرام . الآنسة مارى تداب فى عملها ، وتكاد تقضى كل أوقاتها فى السوربون ، فلا نلتقى الا عند طعام العشاء . انها فتاة مستقلة جداً ، وبرغم السلطات الرسمية التى خولتنى اياها ، بوضعها تحت رعايتى ، فهى لا تكتفى بعدم اظهار اى احترام لى أو اية طاعة فحسب ، بل تسخر منى ، ومن سلطتى ونفوذى ، حتى لكأنهما زوجا حذاء مثقوب ! . .

وانى لأرجو أن أردها الى جادة الصواب ، وان كانت مواهبى فى التربية لم تؤثر فيها حتى اليوم . ونحن مع ذلك على تفاهم تام ، ونعيش فى غاية الوئام .

انتظر بفارغ الصبر وصول برونيا ، فالظاهر ان الشابة ، زوجتى ، لا تتعجل العودة الى البيت فى حين ان وجودها فيه نافع جداً ، ونحن نتمناها كل التمنى .

واضيف الى هذا ان الآنسة مارى تتلألأ صحة ونضارة .

وتقبلوا عظيم احترامى)

تلك كانت الأنباء الأولى التى أرسلها الدكتور دلوسكى عن أخت زوجه التى كلف بإنزالها عنده ، فى غياب برونيا ، التى كانت تقضى فى بولونيا بضعة أسابيع . . ولقد لقيت مارى من هذا الشاب ترحيباً عظيما . رأت لأول وهلة أن أختها العزيزة برونيا قد أخذت لنفسها من بين جميع شباب برونيا فى باريس ، أجملهم صورة ، وأذكاهم عقلا وأخفهم روحاً . ثم أى نشاط ، وأية همة ! . . لقد كان كازيمير دلوسكى طالباً فى بطرسبورج ، ثم فى أودسا ، ثم فى فارسوفيا . . واضطر إلى الهرب من روسيا ، لريبة حامت حوله ، فى محاولة الاعتداء على القيصر إسكندر الثانى . فأصبح صحفيا ثوريا فى جنيف . . ثم جاء باريس ، فالتحق بمدرسة العلوم السياسية ، وبكلية الطب ، ثم صار طبيباً . . وله فى مكان ما من بولونيا أسرة غنية ، وله فى ملفات وزارة الخارجية بفرنسا دوسيه أشد سواداً من تقارير بوليس القيصر ! وهو مايحول دائماً دون تمتعه بالجنسية الفرنسية ، والاستقرار فى باريس.

وعادت برونيا إلى بيتها ، فاستقبلت بالهتاف من زوجها وأختها ؛ فهى ربة البيت التى تعرف كيف تدير دفته . . ولم يلبث البيت أن دبت فيه بدخولها الحياة : فسطعت رائحة قتار المطبخ المشهية ، ونظفت الشرفة المطلة على أشجار شارع ألمانيا ، وملأت الأزهار البيت . .

وكانا فى المساء ينسيان متاعبهما فى وسط حى القصابين هذا ، وهم حرفاؤهما «زبائنهما» من الرجال والنساء . . وبعد تنقل الطبيبين — الشاب وزوجته — من بيت إلى بيت ، يأويان مساء إلى جانب مصابيح البترول ، ويلقيان عن كاهليهما أعباء كسب العيش . وتعود مارى

من الحى اللاتينى ، لتسمع زوج أختها يعزف البيانو عزفاً بديعاً ! . .
ويقبل من أبناء بلدهم من تحلو له زيارتهم . . فكلهم يعرفون أن الزيارة دائماً مباحة . . فيجتمعون حول إبريق الشاى الذى لايرفع عن النار ، وشراب الفاكهة ، والفطائر التى تصنعها الدكتورة برونيا عادة بعد الظهر ، بين استشارتين ! . .

وفى ذات مساء، بينا كانت مارى منحنية على كتابها فى غرفتها الصغيرة فى آخر الشقة ، دخل زوج أختها ، وصاح :

ـ أسرعى ، والبسى معطفك وقبعتك !.. عندى تذاكر مخفضة فى حفلة موسيقية ! .

فلما حاولت أن تعترض بما وراءها من مذاكرة ، أبى . . وقال :

ـ إن بولونيًّا عازفاً على البيانو ، هو الذى يقيم الحفلة ، ولم يبع من التذاكر إلا قليلا ، والصداقة تقضى « بتعمير الصالة » ! ؛ . . وسيذهب معنا بعض المتطوعين للتصفيق حتى تتقطع أيديهم ، ليخلقوا جوًّا للنجاح .

وكان ذلك العازف ـ « الخامل » يومئذ ـ تجرى تحت أصابعه نغمات : « ليست » ، و « شومان » ، و « شوبان » ، فترتد إليها الحياة. وكان يختلف إليهم وهم فى شقة شارع ألمانيا .. وسيصير هذا الموسيقار ، يوماً ما ، رئيس وزارة بولونيا الحرة .

وكان يدعى : « **« اينياس بادرفسكى »** . . .

* * *

وراحت مارى تعمل بحرارة وهمة . واكتشفت مسرات الزمالة والتعاون ، التى يخلقها الجو الجامعى . . ولكنها كانت ماتزال فى حيائها الشديد ، مما حال دون أن توثق صلتها بالفرنسيين ، فلجأت إلى مواطنيها ، الذين لا يلبث أحدهم أن يدخل أسرة سكلودو فسكى ، بزواجه من هيلا ! وكان بينهم : دكاترة ، وأساتذة ، ورئيس — فيما بعد — لجمهورية بولونيا ! . فكونوا لأنفسهم جزيرة لبولونيا الحرة ، فى قلب الحى اللاتينى . . وكان هؤلاء الطلاب الفقراء يعقدون الاجتماعات ، وينظمون حفلات عشاء عيد الميلاد : يتطوع الطهاة فيها بطهى ألوانهم الوطنية ، وتقام حفلات تمثيلية من الهواة بينهم .. وفى إحدى الحفلات التى أقامها المثال البولونى المشهور « وزانكوفسكى » ، وقع الاختيار على مارى ، لتمثل فى اللوحات الحية دور : « بولونيا تحطم أغلالها » . .

وبالطبع روت مارى لأبيها قصة هذه السهرة وفوزها فيها . . لكن الأستاذ كان دونها تحمساً :

من مسيو سكلودوفسكى إلى مارى — ٣١ يناير ١٨٩٢ :

« . . . ان رسالتك الأخيرة ، يا عزيزتى مانيا ، قد احزنتنى . فانى أنكر أن تشتركى فى دور عملى مسرحى . . فمهما يكن من براءته ، فهو كفيل بأن يلفت الانظار اليك . وفى باريس قوم يحصون كل صغيرة وكبيرة من سيرك وسلوكك ، ويدونون أسماء الذين يبرزون فى أمثال هذه المظاهرات ، للوقت المناسب . . .

وهذا ما قد ينشأ عنه متاعب جمة ، ويحول دون العمل فى مهن معينة . وعلى ذلك ، فان الذين يريدون كسب عيشهم ، فيما بعد ، فى فارسوفيا ، فى ستر وسلام ، ومأمن من الخطر والاضطهاد ، لا يسعهم الا ملازمة الهدوء ، والاحتجاب فى ركن

خفى أمين .. أما الحفلات والمراقص ، وما اليها ، فتنشر الصحف أخبارها وأسماء من كان فيها .

وسيكون من أشد أسباب حزنى ذكر اسمك يوماً ما .. لذلك قلت ، وأعيد عليك القول ، ناصحاً لك أن تكونى بمعزل ما استطعت ...)

فهل هى سلطة الأب ، أم هى فطنة البنت ، التى حالت دون اندفاعها فى طريق لايجدى ؟ .. لذلك لم تلبث مارى أن تبينت أن ماحولها من الأسباب يلهيها . ويحول دون عملها فى سلام ، فابتعدت . إنها لم تجئ فرنسا لتكون صورة ماثلة فى لوحة حية .. وكل دقيقة لاتنفقها فى الدرس ، إنما هى دقيقة ضائعة لاتعوض .

زد على هذا أن التركيز الفكرى كان ينقص مارى ، مع ما كانت تجده فى بيت أختها من راحة .. إنها لاتستطيع أن تحول بين كازيمير وبين عزف البيانو ، أو استقبال الأصدقاء ، أو دخول غرفتها حين تكون هى تعانى حل مسألة عويصة . ولا تستطيع أيضاً أن تمنع المرضى من عملاء الطبيبين الشابين من دخول المسكن . وفى الليل تهب من رقادها على صوت دقات الجرس ، ثم خطوات المبعوثين إلى برونيا ؛ لأن امرأة جزار تكاد تلد ...

وفوق هذا كله ، فان سكنى حى المذبح (لافيليت) لا تطاق : ساعة إلى السوربون ، ثم أجر مركبتى الأومنيبوس الفادح ..

فعقد مجلس من الأسرة ، قرر أن تسكن مارى الحى اللاتينى ، بالقرب من الجامعة والمعامل والمكتبات . وأصر الزوجان الشابان على

إقراض الفتاة بضعة الفرنكات التي يتكلفها النقل . وجردت ماري في الغد حملتها ، لزيارة غرف الأسطح الخالية ! . .

ولم تترك ، إلا على أسف ، شقة حي المذبح ، التي يسكنها الحنان والشجاعة والدماثة واللطف . فقد ارتبطت ماري بزوج أختها برباط من المحبة الأخوية سيبقى مدى حياتهما . أما بين ماري وبرونيا ، فانه تجرى منذ سنوات قصة رائعة : قصة التضحية والتعاون والتفاني .

وكانت برونيا حاملا ، فوقفت تشرف على نقل « عفش » أختها الصغيرة الرث وهو يربط ويحزم ، ويوضع — لقرب المسافة — على عربة يد . ثم أخذوا ثلاثتهم الأومنيبوس (الأمبريال) الشهير ، وانتقلوا من « أمبريال » إلى « أمبريال » . وصحب كازيمير وزوجته الطالبة حتى مسكنها . . واستودعاها الله . . .

الفصل التاسع

اربعون روبلا فى الشهر (*)

أجل ! إن عيش مارى سيظل أيضاً ملبداً بالاكفهرار ، وسيبقى الخبز القفار نصيبها أمداً طويلا ! . . فكانت الأشهر القلائل التى قضتها عند أختها ، بشارع ألمانيا ، مرحلة « تأقلمت » فيها . وها هى ذى تغرق ببطء فى أمواج الوحدة . فالمخلوقات التى تحتك بها كتفاها ، لم يبق لها عندها وجود أكثر من الجدران التى تلمسها فى مرورها . وقلما يجىء حديث يقطع عليها الصمت الذى غلفت به أيامها ولياليها ، وستخصص منذ الآن من حياتها أكثر من ثلاث سنوات للدرس ، وللدرس وحده ! . . حياة تتفق وحلمها ، حياة « كاملة » بالمعنى الذى يكون عليه كمال حياة الرهبان والمرسلين .

ولابد إذن من أن تكون لهذه الحياة بساطة حياة النساك . فمنذ حرمت مارى نفسها ، اختياراً ، مسكن أختها ومطعمها ، تحملت وحدها نفقاتها جميعا . وكان دخلها — المكون من ادخارها على أجزاء ومن مبالغ صغيرة مما قد يرسله إليها والدها — لايزيد عن أربعين روبلا فى الشهر .

(*) الأربعون روبلا تساوى يومئذ نحو ٢٠ ريالا مصرياً .

كيف يمكن امرأة ، أجنبية ، أن تعيش عيشة مناسبة فى باريس فى١٨٩٢ ، بأربعين روبلا فى الشهر ، بثلاثة فرنكات (اثنى عشرقرشاً) فى اليوم ؟ ! عليها أن تدفع منها أجر غرفتها ، ووجبات طعامها ، وثمن ملابسها ، وكراساتها ، وكتبها ، ومصروفات الجامعة ؟ . . هذه هى المشكلة التى لابد لها من حل سريع . ولكن لم يحدث قط أن لم تجد مارى لأى مشكلة حلا ! . .

من مارى إلى أخيها جوزيف – فى ١٧ مارس سنة ١٨٩٣ :

(. . . انك ، بلا شك ، قد علمت من أبى أننى قررت السكن فى حى المدارس . وانه ، لأسباب شتى ، كان ذلك امرا لزاما ولا سيما فى هذه المرحلة . وقد تحقق الآن هذا المشروع . وانى اكتب اليك من مسكنى الجديد فى شارع فلاترس رقم ٣ . وهو غرفة صغيرة ، مناسبة جدا ، وهى مع ذلك رخيصة جدا . ففى ربع ساعة أستطيع أن أكون فى معمل الكيمياء ، وفى عشرين دقيقة فى السوربون . وبالطبع ، لولا معونة أختى وزوجها لما استطعت الى هذا الترتيب سبيلا .

وأنى أشتغل خيرا الف مرة من بدء مقامى بشارع المانيا . فقد كان من عادة زوج أختى الا يتركنى مطلقا منفردة ، ولا يتصور اشتغالى بشىء غير الثرثرة الظريفة معه ! وقد أعلنت عليه حربا من أجل ذلك . ولم تمض ايام حتى أسف هو وبرونيا على فراقى وجاءا لزيارتى . فشربنا شاى العزاب ، ثم نزلنا لزيارة أصدقائنا « س » الذين يسكنون الحى . هل تعنى زوجتك بأبينا كما وعدتنى ؟ الا فلتتق الله زوجتك من ابعادى عن البيت اطلاقا ! . . فان أبى قد بدأ يحدثنى عنها بحنان قوى ، بحيث أخشى الا يمضى وقت حتى ينسانى . . .) .

ولم تكن مارى الطالبة الوحيدة التى تعيش فى الحى اللاتينى بمئة فرنك فى الشهر ؛ فان أكثر أترابها البولونيات فقيرات مثلها .

وبعضهن يشغل ، كل ثلاث منهن أو أربع ، مسكناً واحداً ، ويأكلن من « صحفة » واحدة . وبعضهن الآخر ، ممن يسكن وحدهن ، يخصصن عدة ساعات فى اليوم لتنظيف المسكن ، وطبخ المأكل ، وخياطة الثياب ورفوها ، ويفتنن فى سد رمقهن ، وستر أجسامهن ، بأناقة تكمل أو تنقص . . . وهى الطريقة التى كانت تتبعها برونيا ، وتجاوبت آفاق الحى اللاتينى بشهرتها فى طهى الطعام . .

وقد أنفت مارى أن تسلك هذه السبل الحكيمة ، فهى أحرص على راحتها من أن تشارك صاحباتها فى مسكن . وهى مأخوذة بالعمل ، بحيث لايمكن أن تلقى إلى الراحة بالا . وهى لو أرادت ، لما استطاعت . . فقد كانت فى سن السابعة عشرة تعمل مربية فى أسر أجنبية ، وتعطى من الدروس الخاصة سبع ساعات أو ثمانى ساعات كل يوم ، فلم تجد فرصة تتعلم فيها كيف تدبر بيتاً . وكل ما تعلمته برونيا ، عندما كانت ربة بيت أبيها ، كانت مارى تجهله . وذاع فى الجالية البولونية : « أن المدموازيل سكلودوفسكى لاتعرف كيف يُصنع المرق » ! . .

إنها لاتعرف ، ولا تريد أن تعرف . لماذا تقضى صباحها فى دراسة خفايا اللحم المسلوق ، فى حين تستطيع أن تحفظ بضع صفحات من علم الطبيعيات ، أو تقوم فى المعمل ببعض التحليلات !.

وكذلك محت من برنامجها : الملاهى ، والمجتمعات ، والمقابلات ، والاتصال بالمخلوقات البشرية . وكذلك قررت أن الحياة المادية ليست لها أدنى قيمة ، ولا وجود لها . وتسلحت بهذا المبدأ ، فكونت لنفسها وجوداً معتزلا ، متقشفاً ، غريباً ، موحشاً .

شارع فلاترس ، بولفار بور رويال ، شارع دى فيانتين . . حيث سكنت على التوالى فى غرف تتشابه فى ضآلة الإيجار ، والحرمان من أسباب الراحة ، وكانت الأولى فى بيت فقير مفروش ، يقطنه الطلاب والأطباء وضباط الثكنة المجاورة . ثم بحثت الفتاة بعد ذلك عن الهدوء المطلق ، فاستأجرت غرفة سطح « Mansarde » كغرف الخدم فى عمارة متوسطة . فى مقابل خمسة عشر فرنكا أو عشرين فى الشهر ، وجدت عشا صغيراً ، يأتيه النور من كوة مفتوحة فى سقف البيت المنحدر . . فكانت ترى السماء من ذلك المربع الضيق المحدود . فلا دفء ، ولا نور ، ولا ماء . . .

وزودت مارى هذا المسكن بكل ما تملك : من سرير حديدى يطوى ، والمرتبة التى حملتها من بولونيا !.. وموقد ، ومنضدة من خشب أبيض ، وكرسى مطبخ ، وطست غسيل ، ومصباح غاز ، عليه أباجور من الورق ثمنه قرش . وسطل كان عليها أن تملأه من الصنبور الذى على السلم . و « وابور سبرتو » بحجم طبق الفنجان ، ظل ثلاث سنوات متوالية يكفيها لطهى الطعام ! . و « صحنين » ، ومدية ، وشوكة ، وملعقة ، وفنجان ، وحلة ؛ . . ثم إبريق ، وثلاث كؤوس تصب فيها الطالبة الشاى ، كعادة البولونيين ، عندما تجىء أختها وزوجها لزيارتها . . وتستخدم مارى حقيبتها الخشبية الكبيرة دولاباً ومنضدة ومقعداً ! . .

ولا خدم ولا حشم ! فان تكليف خادم بتنظيم البيت ، ولو ساعة واحدة ، يخل بميزانية البيت ! . . وكذلك ألغيت مصروفات الانتقال

فهى تقصد السوربون على القدمين . وأقل مايمكن من الفحم : كيس أو كيسان للشتاء كله ، تشتريه الفتاة من تاجر الركن ، وتحمله بنفسها دلواً دلواً ، إلى الدور السادس ، على سلم صعب المرتقى ، وتقف عند كل دور تلهث وتسترد أنفاسها . وأقل مايمكن من الإضاءة : فلايكاد يرخى الليل سدوله ، حتى تقصد الطالبة ذلك الملجأ السعيد ، الذى يدعى « مكتبة سانت جنفياف » ، بجوار البانتيون ، حيث النور والدفء ، فتجلس ، وقد اعتمدت برأسها على يديها ، إلى إحدى تلك المناضد الطويلة ، بولونية فقيرة ، تستطيع أن تعمل فى النور والدفء إلى أن يغلقوا الأبواب فى العاشرة مساء . ثم تضئ مصباحها الزيتى حتى الثانية صباحاً . . . وعندئذ تحمر عيناها من التعب ، فتترك كتبها ، وتلقى بنفسها على فراشها .

وكل ما كانت تعرفه من شغل البيت هو الحياطة . فهى تعالج الثياب التى حملتها معها من فارسوفيا بالرفو والتنظيف ، وتغسلها فى الطست عندما تكون متعبة جدا من المذاكرة ، وحين تجد نفسها فى حاجة إلى التسلية والترفيه ! .

ولم تكن مارى ترى مسوغاً لإصابتها بالبرد أو الجوع . فلكى لاتعود فتشترى فحماً — وسهواً منها أيضاً — تغفل وضع الفحم فى المصطلى ، وتمضى فى كتابة الأرقام ، والمعادلات ، دون أن تتنبه إلى أن أصابعها قد صارت عديمة الحس ، وأن كتفيها ترتعشان ، ولو أنها تناولت حساء ساخناً ، أو قطعة من اللحم ، لاستردت قواها . ولكن مارى لاتعرف صنع الحساء « الشوربة » ! . . ومارى لا تستطيع أن تنفق فرنكاً

وتضيع نصف ساعة فى تحضير الكستليته ! . . وقلما دخلت دكان جزار . . ويندر أن تدخل مطعماً ، فهو كبير النفقة . فظلت عدة أسابيع لاتأكل غير الخبز المدهون بالزبد ، وتشرب الشاى . فإذا أرادت أن تقيم لنفسها وليمة ، دخلت حانوت لبان فى الحى اللاتينى ، وتناولت بيضتين ، أو اشترت قطعة من « الشيكولاتة » ، أو شيئاً من الفاكهة .

وسرعان ماتحولت الفتاة ، التى غادرت فارسوفيا منذ بضعة أشهر قوية ناضرة ، إلى فتاة هزيلة سقيمة ، بسبب هذه الحمية . وكانت ، فى الغالب يعتريها الدوار حين تنهض عن منضدتها ، فلا تكاد تصل إلى سريرها حتى تفقد الوعى . فإذا ما تنبهت ساءلت : لماذا أغمى عليها؟ فتظن نفسها مريضة ، ولكنها تستخف بمرضها كما تستخف بالقوت . ولا يخطر لها أنها إنما سقطت إعياء ، وأن داءها هو الجوع وحده ! !

وبالطبع لم تكن تباهى ، فى بيت أختها ، بذلك النظام المدهش لحياتها . ففى كل مرة تزورها ، ترد بعبارات قصيرة مبهمة على أسئلتها الخاصة بتقدمها فى فن الطهى ، وما تتناوله كل يوم من ألوان الطعام! فإذا قال زوج أختها إن صورتها لاتدل على صحة جيدة ، أكدت أنها مرهقة بالعمل ، فيظن هو أن ذلك فعلا هو السبب الوحيد لسقامها . ثم تبتعد بهما عن الاشتغال بأمرها ، باشارة تدل على عدم الإكتراث ، وتبدأ تلعب مع بنت أختها ، الطفلة ، التى كانت تحبها حباً جما .

ولكن حدث يوماً أن أغمى على مارى فى حضرة إحدى رفيقاتها . فهرعت هذه إلى شارع ألمانيا . فجاء كازيمير دلوسكى ، بعد ساعة

يقفز درجات الأدوار الستة حتى غرفة السطح ، فرأى الفتاة شاحبة شيئاً ما ، وهى عاكفة على درس الغد ؛ . . ففحص أخت زوجه ، وفحص الصحاف النظيفة ، و « الحلة » الفارغة ، والغرفة التى لم يكتشف فيها من المؤونة إلا ربطة شاى صغيرة . ففهم من فوره . وبدأ يستجوبها :

– ماذا أكلت اليوم ؟

– اليوم ! . . لا أدرى . . فقد تغديت الساعة . .

فعاد صوت كازيمير الذى لا يرحم :

– ماذا أكلت ؟

– بعض الكرز . . ثم . . أشياء كثيرة . .

وأخيراً ، لم يكن لها بد من الاعتراف : فهى منذ مساء أمس تعيش على حزمة من الفجل ونصف رطل من الكرز . وقد اشتغلت حتى الساعة الثالثة صباحاً ، ونامت أربع ساعات ، ثم غابت عن الصواب .

فلم يلق الطبيب خطباً . بل كان ثائراً ساخطاً : ثائراً على مارى ، التى كانت عيناها الرماديتان تنظران إليه بتعب عميق وفرح برىء ، ساخطاً على نفسه ، يتهم نفسه بأنه لم يسهر كما يجب على « الصغيرة » التى عهد بها إليه المسيو سكلودوفسكى . فلم يستمع إلى احتجاجات أخت زوجه ، بل ناولها معطفها وقبعتها ، وأمرها أن تجمع كتبها وكراساتها التى قد تحتاج إليها خلال الأسبوع القادم . ثم أخذها وهو صامت ، ساخط ، آسف ، إلى حى المذبح . . ومن عتبة الشقة نادى برونيا التى هرولت إلى المطبخ .

وبعد عشرين دقيقة ، كانت مارى تزدرد الدواء الذى وصفه لها كازيمير : قطعة ضخمة من البفتيك ، نصف مشوى ، وصحفة من البطاطس المحمر . . فاستردت وجنتاها لونهما ، كأن ذلك كان بمعجزة .
وفى الساعة الحادية عشرة مساء ، دخلت برونيا نفسها الغرفة التى وضعت فيها سريراً لأختها ، وأطفأت المصباح . وهكذا ظلت مارى ، خلال بضعة أيام ، تأكل جيداً ، وتنام جيداً ، فتم لها الشفاء واستردت قواها . ثم عادت إلى غرفةِ السطح ، لأنها محتاجة إلى المذاكرة ، لدنو الامتحانات ، وقد وعدت بأن تكون عاقلة .

ومن اليوم التالى ، عادت ثانية للعيش على الهواء ! . .

* * *

تعمل ! . . تعمل ! . . مندفعة بأجمعها فى دراستها ، منتشية بخمر نجاحها . . تحس أنها قديرة على أن تحفظ كل ما اكتشفه البشر . . . فهى تتبّع دروس الرياضيات ، والفيزيقا ، والكيمياء . وهى تحب جو التجارب العلمية . وتسعد إذ يعهد إليها البروفسور ليمان ببعض البحوث التى تظهر فيها فطنتها وبراعتها . إنها تحب معمل فزيولوجيا السوربون هذا ، الذى يتطلب جوه الالتفات والصمت ، وستظل متعلقة به إلى يومها الأخير ... فهى واقفة ، واقفة على قدميها دائماً ، أمام منضـــدة البلوط ، التى تحمل ميزاناً دقيقاً ، وقنانى ، وأباريق من البلور ، يشتعل تحتها لهب الغاز ، وتتصاعد منها أبخرة ملونة ، وتغلى فى جوفها المركبات ! .. فلا تكاد تفرق بين مارى فى معطفها الكتانى المجعد ، وبين أولئك الشبان الذين ينحنون إلى جانبها فوق الأنابيب

والبواتق .. فهي مثلهم تقدر صفاء الذهن وتركيز الفكر في ذلك المكان وهي لاتحدث ضجيجاً ، ولا تنطق بكلمة لانفع منها .

شهادة ليسانس واحدة ليست تكفي ! . . إن ماري تعتزم الحصول على شهادتي ليسانس : واحدة في الفيزيقا (علم الطبيعة) ، والثانية في الرياضيات . وقد تضخمت مشروعاتها ، التي كانت بالأمس متواضعة ، بسرعة ، حتى لم تجد وقتاً ، ولم تجد جرأة على أن تفضي بها إلى أبيها المسيو سكلودوفسكي ، الذي كان ينتظر بفارغ الصبر عودتها إلى بولونيا ، في قلق خفي ، على تلك التي أنجبها مستقلة ، وقد طفقت تحلق بأجنحتها ، بعد ستين طويلة ، بذلتها في التضحية .

من مسيو سكلودوفسكي إلى برونيا — ٥ مارس ١٨٩٣ ،

(... ان خطابك الأخير يشير ، لأول مرة ، الى عزم مانيا على تأدية امتحان الليسانس . وهي لم تذكر لي قط ذلك في رسائلها ، مع سؤالي اياها عن هذا الأمر . فاكتبي الى على وجه الدقة : متى يكون ذلك الامتحان ، وفي اى تاريخ ترجو مانيا اجتيازه ، وما هي تكاليفه للحصول على الدبلوم ؟ فلا بد لي من ان افكر في الأمر مقدما حتى استطيع أن ارسل النقود الى مانيا ، وعلى ذلك تتوقف مشروعاتي الشخصية ... فاذا ماعادت مانيا ، شاركتني في مسكني الحالي ، وهو مناسب جدا ، وكونت لنفسها تلاميذ ، شيئا فشيئا ، وقاسمتني ما لدي ، فنتغلب على العقبات ...) .

* * *

ومهما يكن من نفور ماري ، فهي لايمكن أن تتجنب ، كل يوم ، لقاء مخلوقات بشرية . وكان بعض الطلاب يبدون نحوها اللطف والود . فالأجنبيات في السوربون ينظر إليهن باحترام . فهؤلاء الفتيات

الفقيرات ، الموهوبات عادة ، قد جئن ، من أماكن نائية سحيقة ، إلى الجامعة التى سماها الشقيقان جنكور : « الأم مرضع الدرس » ، فيثرن ميل الشبان الفرنسيين وعطفهم . فصارت الفتاة البولونية أليفة ؛ إذ رأت أن زملاءها يريدون أن يعبروا لها عن التقدير والعطف ، وعما هو أكثر من التقدير والعطف أحياناً . . . ولا شك أن مارى كانت جميلة جداً ، بدليل أن صديقتها الآنسة ديدينسكا Dydynska — الشابة الفاتنة التى جعلت من نفسها على صاحبتها حارسة — قد هددت يوماً ، بضربات مظلتها ، المعجبين ، المحتشدين حول الطالبة ! . .

وقد تركت الفتاة لصاحبتها ديدينسكا مهمة دفع هذه الألوان من التقرب إليها ، فلم تكن تهمها . . وتقربت هى من الرجال الذين لايتملقونها ، والذين كانت تستطيع أن تتحدث معهم عن عملها . فبين درس فى الفيزيقا وحصة فى المعمل ، تحادث : « بول بانلفيه » ، و « جان باران » ، و « شارل موران » ، الذين سيصبحون أساطين العلم الفرنسى الحديث . . . ذلك بأنه لم يكن لدى مارى وقت تمنحه للصداقة أو الحب ؛ فهى تحب الرياضيات والفيزيقا ! . . .

وكان ذهنها من الدقة ، وكان ذكاؤها من الصفاء العجيب ، بحيث لم يكن الهوس « السلافى » ليجىء فيعطل مجهودها . وهى تستند إلى إرادة حديدية ، وإلى ذوق مجنون بالكمال ، وإلى عناد لايتصور . وقد وصلت إلى كل أهدافها بنظام ، وصبر . . فكانت الأولى فى « ليسانس الطبيعة » فى ١٨٩٣ ، وكانت الثانية فى « ليسانس الرياضيات » فى ١٨٩٤ .

وتيقنت أن التعمق فى معرفة اللغـة الفرنسية لا بد منه . فبدلا من أن تظل تهدر ، أو تقرقر كالحمام ، بعبارات وجمل رنانة فاسدة ، مدى شهور ، كما يفعل كثير من الأجانب ، حفظت قواعد اللغة والإملاء ، وقضت على كل ما فى لهجتها من عجمة . .

وتمكنت ، بروبلاتها الأربعين ، من العيش . . وبحرمان نفسها بعض ما ليست فى غنى عنه ، استطاعت أحياناً أن تمنح نفسها بعض الترف ، مثل سهرة فى المسرح ، أو نزهة فى الخلاء ، حيث تقطف من الغاب زهراً . . فالفلاحة القديمة التى فيها لم تمت . لقد تاهت فى المدينة الكبرى ، ولكنها تترقب منبت ورق الشجر ، ولا تكاد تجد فى يدها قليل وقت ، وقليـل مال ، حتى تخف إلى الغابات والأحراج .

* * *

وجاء شهر يوليـه : الحمى . السرعة . الامتحانات المروعة كالمحاكمات الجنائية . . الأصباح الساحقة . . حيث تُحبس مع ثلاثين طالباً فى قاعة الامتحان ، فاذا بها من تهيج أعصابها ترى الأحرف ترقص أمام عينيها ، فتحدق دقائق عـدة ، وهى لاتستطيع أن تقرأ الورقة المنذرة . .

ثم تجىء الساعة المشهودة ، التى يحتشد فيها الطلاب ، وأهلهم فى المدرج ، لسماع أسماء الناجحين ، حسب ترتيبهم فى الفوز . . وإذا بها تسمع صوت الممتحن يتطع السكون باسم هو فى رأس جميع الأسماء : اسمها : « **مارى سكلودوفسكى** » ! . .

فهل من الناس من يستطيع أن يحزر تأثرها ؟ إنها تنتزع نفسها من تهانئ رفاقها ، وتتملص من الزحام ، وتبتعد . . فقد دقت ساعة الإجازة ، والسفر إلى بولونيا ، والعودة إلى البيت ! . .

هنالك يتناوب دعوتها جميع آل سكلودوفسكى ، مستنكرين ما أصابها من هزال . فتأكل ، وتشرب ، وتسمن . إذ ستكون أمامها سنة مدرسية أخرى ، تستطيع فيها أن تعمل ، وأن تتعلم ، وأن تستعد لامتحان جديد ، وأن تضعف وتنحف . . .

* * *

وفى كل مرة يعود فيها الخريف ، يبدأ القلق يلح على مارى . فمن أين لها النقود ؟ وكيف لاتعود إلى باريس ؟ . . إن كل ماادخرته قد ذهب : أربعين روبلا فأربعين روبلا ! . وتذكر خجلة مايضربه أبوها على نفسه من الحرمان ليعينها . . وفى سنة ١٨٩٣ : بدأ الموقف موئساً ، فكادت تعدل عن رحيلها ، لولا وقوع معجزة . . تلك أن المدموازيل ديدينسكا ، التى كانت تدفع عنها فى العام الماضى بضربات مظلتها ، المعجبين بها المتهافتين عليها ، قد بسطت عليها حمايتها ، بأفضل من ذلك . فقد كانت واثقة بأن مارى موعودة بمستقبل عظيم ، فهزت أرض فارسوفيا وسماءها ، لتحصل لها على « بعثة ألسكندروفيتش » ، وهى جائزة مخصصة للطلاب المتفوقين الذين يريدون متابعة دراستهم فى الخارج .

ستمئة روبل ! . . مايكفيها للعيش خمسة عشر شهراً ! . . ومارى التى تعرف كيف تطلب أشياء كثيرة لسواها ، ما كانت قط ليخطر

لها سؤال هذا العون ، ولامايتطلبه من مساع شاقة . فبهرت ، وسحرت ، وطارت إلى فرنسا .

من مارى إلى أخيها جوزيف – باريس فى ١٥ سبتمبر ١٨٩٣ :

(لقد استأجرت غرفتى بالدور السادس ، فى شارع نظيف لطيف ، يناسبنى تماما ، نافذتها تغلق جيدا ، وأرضها من خشب لا من بلاط .. وهى اذا قورنت بغرفة العام الماضى تعد قصرا فخما ! وهى تكلف ١٨٠ فرنكا فى السنة (٦٠ قرشا شهريا) ، فهى أقل ستين فرنكا من الغرفة التى حدثنى عنها أبى ، والتى لم أجدها مع ذلك خالية .

أفى حاجة أنا الى أن أعبر لك عن فرحي الجنونى بعودتى الى باريس ؟ لقد كان يشق على كثيرا أن أفترق مرة أخرى عن أبى ، ولكنى اطمأننت على صحته وراحته ، وأدركت أنه غنى بك عنى ، ما دمت أنت فى فارسوفيا ... وأنا ، ان حياتى كلها على كف القدر .. فأستطيع اذن أن أبقى هنا دون تأنيب ضمير ..) .

من مارى إلى جوزيف – ١٨ مارس ١٨٩٤ :

(ان حياتى متشابهة ، ليس فيها ما يستحق الذكر والرواية . بيد أنى أشكو من أن الأيام قصيرة جدا ، وأنها تمر سريعة جدا ، ولولا أن المرء يحب عمله لضاق ذرعا ، فان ما تم منه لا يكاد يبدو وما بقى منه لا يكاد ينتهى ...

أريدك أن تفوز بتقديم رسالة الدكتوراه ... فالحياة فيما يلوح ليست سهلة ميسرة على أحد منا ... ولكن لا بد من المثابرة ، ومن الثقة بالنفس !... ولا بد من اعتقاد أن المرء موهوب فى شىء ، وهذا الشىء لابد من بلوغه مهما يبذل فى سبيله من تضحية ، فلعل الرياح تواتينا بما نشتهى فى اللحظة التى يعصف فيها اليأس بسفينتنا ..) .

يالنعمة هذه البعثة : بعثة ألسكندروفتش ! .. إن مارى ، فى تقتير جارح ، تحاول أن تمد فى عمر الستمئة الروبل ، لتبقى أطول مدة فى جنات المدارج والمعامل ! .

وبعد ذلك ببضع سنوات ، سوف نراها ، بهذا التقتير الجارح أيضاً ، تدخر ستمئة روبل من أول ماتربحه — من بحث فني ، كلفتها به جمعية تشجيع الصناعة الوطنية — وتذهب فتحمل المال إلى سكرتير مؤسسة ألسكندروفتش ، الذى ذهل من رد المنحة ، وهو عمل لانظير له فى تاريخ المؤسسة ! .

وكانت مارى قد تقبلت هذه المنحة على أنها : « رمز ثقة ، ودَيْن شرف » . . فرأت ، بخلقها القوى القويم ، أن من الإخلال بالأمانة أن تحتفظ لحظة واحدة أكثر مما يجب ، بهذا المال ، الذى يمكن الآن أن تعان به فتاة فقيرة أخرى .

* * *

لعل « **التلميذة الخالدة** » لم تفضل فى بقية حياتها أياماً ، مهما يكن فيها من مجد وسعادة ، على أيام البؤس والعناء فى الحى اللاتينى . وهى لاشك قد مرت بها حالات هناءة وظفر بعد ذلك ، غير أنها لم تكن قط فرحة بنفسها ، أو فخوراً بها ، كما كانت فى خلال جهادها فى وسط الحرمان والنيران . . أجل ! هى فخور بفقرها ، فخور بعيشها وحدها ، مستقلة ، فى بلد أجنبى ، تعمل تحت المصباح ، فى مسكنها البئيس ، مساء ، فيبدو لها أن قدرها الذى مازال ضئيلا ، يلتقى لقاء خفياً تلك الشخصيات العظيمة التى تعجب بها ، وأنها ستصير الرفيق المتواضع المجهول لكبار العلماء فى الماضى ، العاكفين مثلها فى صوامعهم الضئيلة النور ، وقد انتزعوا أنفسهم مثلها من الزمان ، غيورين مثلها على عقولهم ، يحملونها إلى ماوراء علوم البشر المعروفة . .

أجل ! إن هذه السنين الأربع ، المجاهدة ، ليست فقط أسعد سني ماري فحسب ، بل هي كذلك أكملها في عينيها ، وأقربها إلى قمة الرسالة الإنسانية التي يتجه إليها قلبها ، ويشخص إليها بصرها . . . قد يكون المرء فتيا ، وحيداً ، يفنى في الدرس ، ولعله لا يكون لديه « ما يقيم أوده » ، وهو مع ذلك يعيش ملء الحياة . .

إن حماسة لا حد لها قد منحت البولونية ، التي في السادسة والعشرين ، قوة تجاهل ضروب الحرمان التي تصيبها ، وتمجد وجودها المعدم . . وسيجيء ، فيما بعد : الحب ، والأمومة ، وشواغل الزوجة والأم ، ومشاكل الدأب الساحق . تجيء لتحل في الحياة الحقيقية محل هذه الرؤيا . أما الآن ، في هذه اللحظة السحرية ، التي هي فيها أشد فقراً وإملاقاً مما سوف تكون أبداً ، فهي لا تكاد تحس ذلك ، كأنما هي طفلة . . فهي تحلق بخفة في عالم آخر ، لا يرى فكرها دائماً إلا أنه العالم الوحيد النقي ، والعالم الوحيد الحقيقي . . .

ولا يمكن أن يكون كل يوم سعيداً في مغامرة كهذه . فهناك الحوادث غير المنتظرة ، التي تقع فجأة ، وتقلب كل شيء ، وتبدو كأن لا علاج لها ، مثل تعب يستحيل التغلب عليه ، ومرض قصير يتطلب العناية . وكذلك مصائب أخرى مروعة : إن حذاءها الوحيد ، الذي خرقت نعله ، يتفتت قطعاً ، ولا بد من شراء حذاء سواه ! . فها هي ذي إذن الميزانية تنقلب رأساً على عقب لعدة أسابيع ، ولا بد من تحصيل هذا المبلغ الكبير ، وتعويضه من وجبات الطعام وغاز الاستصباح .

إن الشتاء ، هذه السنة ، يشتد ويمتد ، ويثلج غرفة السطح . . .

البرد شديد جداً ، حتى ليتعذر على مارى أن تأخذها سنة من النوم . إنها ترتجف من القر ، وقد انتهى خزينها من الفحم . ولكن ماذا ؟.. أتترك فتاة فارسوفيا الشتاء الباريسي يتغلب عليها ؟ . . تضئ المصباح مرة أخرى . وتنظر حولها ، وتفتح حقيبتها الخشبية ، وتجمع ما عندها من ثياب ، تضع أكثر ما يمكن وضعه منها على جسدها ، ثم تندس فى فراشها ، وتجمع الباقى من ملابسها فوق الغطاء ! . لايزال البرد شديداً جدا . . . تمد مارى ذراعها ، وتشد الكرسى الوحيد عندها ، وترفعه ، وتضعه فوق ملابسها المكدسة عليها ، لتوهم النفس بأن فى الثقل حرارة ! . . .

ولم يبق أمامها إلا انتظار النوم ، هكذا ، بلا حراك ، حتى تظل تلك « السمالة » قائمة ، وهى وحدها ، تحتها ، قاعدتها الحية ! . .

هذا ، فى حين كانت تتكون ، فى وعاء المـاء ، شيئاً فشيئا ، طبقات من الثلج ، بعضها فوق بعض . . .

الفصل العاشر

بيير كورى

محت مارى من برنامج حياتها : الحب والزواج . . .

ليس هذا غريباً . هذه هى : فتاة فقيرة ، خاب أملها ، وذلت كبرياؤها ، فى حلمها الأول الجميل . . فتقسم لنفسها ألا تحب بعد ذلك أبداً . زد على هذا أنها طالبة سلافية ، تدفعها مطامح فكرية . فتقرر بسهولة أن تقلع عما يفرض العبودية ، ويكوّن هناءة أترابها وشقاءهن ، حتى تستطيع أن تتبع استعدادها ، وتلبى نداء مواهبها .

وفى كل العصور ، نرى النساء اللواتى يتلهفن على أن يصرن : فنانات عظيمات ، أو موسيقيات شهيرات ، ينبذن قاعدة : الحب والأمومة .

وكوّنت مارى لنفسها عالماً خفياً شديد التقوى ، لا رحمة فيه ولا تسامح ، يسيطر عليه اشتهاء العلم ، ويتحكم فيه .. ولمحبة الأسرة ، وللتعلق بوطن مغلوب على أمره ، مكانهما أيضاً فيه ، وكفى ! . . فلا شىء بعد هذا له حساب ، ولا شىء غير هذا له وجود . هكذا قررت ، تلك المخلوقة الجميلة ، التى كانت فى السادسة والعشرين ، والتى تعيش وحدها فى باريس ، تلقى كل يوم شباباً فى مدارج السوربون ومعامله .

فهي مأخوذة بأحلامها ، مُطاردة بالبأساء ، مضناة بعمل هائل ، لاتعرف ما الفراغ ؛ وما أخطاره وما مفاسده . وأنفتها وحياؤها يحميانها وكذلك حذرها : فمنذ أبى السادة « ز . . . » ، فى تلك العزبة البولونية النائية ، أن يتخذوها كنّة ، وهى مقتنعة بأن الفتيات اللواتى لا مهر لهن ، لايجدن عند الرجال حباً ولا حناناً . فجعلتها النظريات الجميلة ، والتأملات المريرة ، تتصلب ، وتتشبث باستقلالها .

أجل ! لم يكن غريباً ولا مدهشاً : أن تكون بولونية نابغة ، عزلها وجود ماحل ، قد حفظت نفسها لعملها . ولكن من المدهش الرائع حقا : أن يكون عالم فرنسى نابغة ، قد حفظ نفسه لهذه البولونية ، وانتظرها ، دون وعى منه . . .

ومن عجب أنه ، فى الوقت الذى كانت فيه مارى بشقة شارع نوفوليبكى ، تكاد تكون صبيـة صغيرة ، تحلم بالحضور يوميا للدرس فى السوربون ، كان بيير كورى يحلم ، وهو عائد إلى بيته من هذا السوربون نفسه ، بعد أن قام فيه باكتشافات فيزيقية هامة — بما سجله فى يومياته ، فى هذه السطور الحزينة :

« . . . ان المرأة ، أكثر منا بكثـير فى حبهـا وتعلقها بالحياة لتحيا . والنساء النابغات نادرات . وعلى ذلك ، فعلينا ، عنـدما يدفعنا حب خفى ، نريد به أن نعطى كل أفكارنا لعمل يبعدنا عن الانسانية التى هى أقرب الينا ، علينا ان نكافح النساء . . . فالأم تريد ، قبل كل شيء ، أن تحب ولدها ، ولو جعل منه الحب ولداً أحمق . والخليلة تريد أيضا أن تمتلك عشيقها ، حتى لتجد أنه من الطبيعى جدا : تضحية أجمل عبقريات الدنيا فى سبيل ساعة غرام والكفاح يكاد يكون دائما غـير متكافىء ، لأن للنساء منـه الجانب الأقوى . . فهن باسم الحياة والطبيعة يحاولن ردنا اليهن » .

ومرت السنون ، ووقف بيير كورى نفسه ، جسما وروحاً ، على البحث العلمى ، فلم يتزوج واحدة من الفتيات التافهات اللطيفات اللواتى كن يعرضن له فى طريقه . وهو الآن فى الخامسة والثلاثين . وهو لايحب أحداً .

وعندما كان يقلب مذكراته عفواً ، وقد أهملها من زمن طويل ، يعيد قراءة تلك التعليقات التى كتبت يوماً بالحبر ، فشحب الحبر على مر الزمان ، استرعت بصره ثلاث كلمات ، ملوءها الأسف ، والحنين إلى المجهول :

« ... **النساء النابغات نادرات** ... »

* * *

« حين دخلت ، كان **بيير كورى** واقفابباب الشرفة . وقد بدا لى فتيا جدا ، مع أنه قد كان يومئذ قدبلغ الخامسة والثلاثين . راعنى تعبير نظرته الصافية ، مع مظهر خفيف لعدم الاهتمام ، أو للاستسلام ، فى قامته العالية . كان كلامه البطىء قليلا ، فى اتزان . وكانت بساطته ، وابتسامته ، التى يمتزج فيها الشباب والوقار معا ، مما يوحى الثقة . وبدأ بيننا حديث لم يلبث أن صار وديا . كان يدور حول مسائل علمية ، كنت سعيدة بأخذ رايه فيها » .

بهذه العبارات البسيطة الخفرة ، وصفت مارى أول لقاء بينهما فى أوائل عام ١٨٩٤ .

فقد حدث أن بولونيا ، يدعى المسيو كوفالسكى **Kouvalsky** هو أستاذ « الفيزيقا » فى جامعة فريبورج ، جاء إلى فرنسا ، لقضاء شهر العسل مع عروسه ، التى سبق أن تعرفت بها مارى . وكان القصد

من رحلته علميا أيضاً ؛ لأن المسيو كوفالسكى كان سيلقى محاضرات فى باريس ، ويحضر جلسات جمعية العلوم الفيزيقية . فلم يكد يصل حتى سأل عن مارى ، ليطمئن على حالها . أخبرته الطالبة بما كان يشغلها فى ذلك الوقت ؛ فان جمعية تشجيع الصناعة الوطنية قد كلفتها ببحث فى الخواص المغنطيسية لأنواع صلب مختلفة ، فبدأت بحثها فى معمل البروفسور ليبمان ، ولكن كان عليها أن تحلل معادن ، وأن تجمع عينات منها ، وذلك يتطلب استعداداً ، ومكاناً لايتسع له معمل مزدحم بما فيه . فهى لا تدرى ماذا تصنع ، وأين تقوم بتجاربها ! .

فقال البروفسور كوفالسكى ، بعدما فكر لحظات :

— عندى فكرة . فأنا أعرف عالماً عظيم القدر ، يعمل فى مدرسة الطبيعة والكيمياء ، بشارع لومون Lhomond فلعل لديه مكاناً خالياً . وهو على أى حال قد يشير عليك برأى . فتعالى عندنا غداً ، لشرب الشاى ، بعد العشاء ، وسأرجو من الشاب الحضور . ولعلك تعرفين اسمه ، فهو **بيير كورى** .

وفى خلال تلك السهرة الهادئة ، فى إحدى غرف « البنسيون » العائلى ، الذى نزله الزوجان الشابان ، نشأ فى الحال ود قرب بين العالم الفرنسى والطالبة البولونية .

وكانت لبيير كورى جاذبيته الخاصة : مزيج من الوقار والدماثة . كان طويل القامة ، ثيابه الفضفاضة ، وليست من أحدث زى ، يعوم فيها جسمه شيئاً ما ، ومع ذلك كانت متسقة عليه . وهو ، من حيث لايدرى ، ذو أناقة طبيعية . وكانت يداه طويلتين . وأصابعه حساسة ،

وكان وجهه متناسب القسمات ، وكانت عيناه مطمئنتين ، لامثيل لنظراتهما العميقة ، الصافية ، المترفعة . .

ومع أن هذا الرجل كان شديد التحفظ ، لايرفع صوته البتة ، فقد كان من المستحيل ألا يلحظ المرء آية ذكائه المتقد، ووجاهته . وفى حضارة كحضارتنا هذه ، التى قل أن يكون التفوق الذهنى فيها حليفاً للسمو الروحى ، يكاد بيير كورى يعد نوعاً إنسانيا فـذا . فهو : عقل عظيم ، وهو : خلق نبيل . .

والاهتمام الذى شعر به ، أول وهلة ، نحو الطالبة الأجنبية القليلة الكلام ، لم يلبث أن تضاعف بتطلع لاحد له . **فهل الآنسة سكلودوفسكى** حقا شخصية مدهشة ؟ . . هى إذن بولونية ، جاءت من فارسوفيا لتحضر دروس السوربون ! . وكانت ، فى العام الماضى ، الأولى فى ليسانس الطبيعة ! وهى بعد بضعة أشهر ستمتحن فى ليسانس الرياضيات ! . . وإذا كانت بين عينيها الرماديتين تلك التجعيدة الصغيرة فذلك لأنها لاتدرى أين تضع أجهزتها لدراسة مغنطيسية المعادن الصلبة ! . .

فالحديث الذى بدأ أولا عاما ، لم يلبث أن تحول إلى : **حوار علمى** ؛ بين : **بيير كورى ، ومارى سكلودوفسكى** . . بدأت مارى ، بشىء من العناية ، توجه أسئلة ، وتصغى إلى مقترحات بيير . . وهو أيضاً قد بدأ يذكر لها مشروعاته ، ويحدثها عن ظواهر مبحث التبلور الذى يغريه ، فهو يحقق خواصه . وفكر العالم الشاب فى أنه : « ما أعجب أن يتحدث إلى امرأة فى الأعمال التى يحبها ، مع استخدام الاصطلاحات الفنية ، والعبارات المعقدة . . وأن يرى تلك الفتاة : جميلة ، وشابة ! .

تتأثر ، وتدرك ، وتناقش أيضاً بعض التفاصيل ، ببعد نظر لا يخيب ! . . وما أمتعه ! . . »

نظر إلى شعر مارى ، وإلى جبهتها المقوسة العالية ، وإلى يديها اللتين وسمتهما ، أو وصمتهما ، أحماض المعمل ، وخشنتهما أشغال البيت . . .

بلبله ما رآه من رشاقتها ، التى زاد فى تأثيرها خلوها من كل دلال . . واستعادت ذاكرته ما قاله له مضيفه عن الفتاة ، حين دعاه وإياها :

« إنها اشتغلت مدى سنين ، قبل أن تتمكن من ركوب القطار إلى باريس . . ليس عندها مال ، تعيش وحدها ، فى غرفة سطح . . »

فسألها دون أن يعرف السبب :

– أتبقين فى فرنسا دائماً ؟

فمرت سحابة على محيا مارى ، وأجابت بنغمتها الشجية :

– يقيناً : لا . فاذا وفقت فى امتحان الليسانس ، هذا الصيف ، عدت إلى فارسوفيا . وإنى لأحب العودة إلى هنا فى الخريف ، ولكن لا أدرى ، فاذا ما تهيأت لى الأسباب ، فسأكون ، فيما بعد ، معلمة فى بولونيا ، أحاول أن أكون نافعة . وليس للبولونيين أن يتخلوا عن بلادهم .

وتحوّل الحديث ، الذى اشترك فيه المسيو كوفالسكى وزوجه إلى الحديث عن الضغط الروسى المؤلم . وذكر المبعدون الثلاثة : ذكريات وطنهم ، وتبادلوا أنباء أهلهم وأصدقائهم . . وأخذ بيير كورى يسمع مارى ، تتحدث عن واجباتها الوطنية ، مدهوشاً ، مستاء ، استياء غامضاً ، لا يعلم له باعثاً . . .

فهو عالم طبيعى ، متشبع بعلمه ، لا يستطيع أن يتصور : كيف

يمكن أن تشغل هذه الفتاة . الموهوبة هبات خارقة للعادة ، فكرة واحدة ، تخرج عن محيط العلم ؟! وكيف يمكن أن تكون كل مشروعاتها للمستقبل هي : **توجيه قواها للكفاح ضد القيصرية ؟ ! ..**

وودّ لو عاد فرآها .

* * *

من هو بيير كورى :

هو عالم فرنسي عبقري . يكاد يكون مجهولا في بلاده . ولكنه يقدر تقديراً عظيما من زملائه الأجانب .

ولد في باريس ، بشارع كوفييه Cuvier في ١٥ مايو ١٨٥٩ ، وهو ابن طبيب يدعى الدكتور أوجين كورى ، هو نفسه ابن طبيب أيضاً . والأسرة من أصل ألزاسى ، بروتستانتية المذهب ، « برجوازية » متوسطة ، تخرج جيلا بعد جيل من العلماء والمفكرين . ووالد بيير ، الذى اضطر إلى مزاولة الطب لكسب عيشه ، هو من أنصار البحث العلمي . كان محضراً في معمل متحف التاريخ الطبيعي في باريس ، ومؤلف بحوث في عدوى السل .

وقد اتجه ولداه : جاك . وبيير ، منذ نعومة أظفارهما ، إلى العلوم. أما بيير فقد كان مستقل الرأى ، خيالى الذهن ، فلم يخضع للعمل الدراسى المنظم ، ولم يذهب إلى مدرسة قط . فأدرك الدكتور كورى أن ولده الغريب الطباع هذا لن يكون تلميذاً نجيباً ، فبدأ هو نفسه بتعليمه ، ثم عهد به إلى الأستاذ القدير « بازيل : Basille » فآتت التربيـــة الحرة ثمارها . ونال بيير كورى : بكالوريا العلوم فى

السادسة عشرة . والليسانس فى الثامنة عشرة ، وعين فى التاسعة عشرة محضراً للبروفسور « ديزان Desains » بكلية العلوم ، وظل كذلك خمس سنوات . وقام ببحوث ، مع أخيه جاك الذى كان أيضاً ليسانسييه ومحضراً بالسوربون . ولم يلبث الشقيقان أن أعلنا توفيقهما لكشف ظاهرة هامة . أدت إلى اختراع جهاز جديد ، يقيس بالدقة ، الكميات الضعيفة من الكهربا .

وافترق الأخوان فى ١٨٨٣ على أسف ؛ لأن جاك عين أستاذاً فى جامعة مونبلييه . وأصبح بيير رئيساً للبحوث فى مدرسة الطبيعة والكيمياء بمدينة باريس . ومع ما كانت تستغرقه العناية بطلاب المدرسة من وقت كثير . فقد تابع أعماله النظرية فى مبحث التبلور الفيزيقى . هذه الأعمال التى أدت إلى إعلان « مبدأ التناسق » ، الذى أصبح من قواعد العلم الحديث . ثم استأنف بحوثه فى المغنطيسية ، وحصل على نتيجة جوهرية بكشف قانون أساسى ، أطلق عليه : « **قانون كورى** » . ولهذه الجهود التى توجت بنجاح باهر ، ولاهتمامه الشديد بتلاميذه الثلاثين . تلقى بيير كورى ، من الحكومة الفرنسية فى ١٨٩٤ ، بعد خمسة عشر عاماً فى عمل متواصل ، راتباً شهرياً ، قدره ثلاثمئة فرنك فى الشهر (تسعة جنيهات مصرية ! !) أى نحو ما يكسبه عامل فى مصنع ! . .

ولكن عندما جاء أشهر علماء الإنجليز إلى باريس : « اللورد كلفن Lord Kelvin » لم يكتف بالذهاب إلى جمعية علوم الطبيعيات لسماع بحوث بيير كورى ، بل كتب هذا الشيخ الجليل إلى العالم الشاب

يعبر له عن إعجابه بأعماله ، ويسأله موعداً . وفى ٣ أكتوبر ١٨٩٣ رغب إليه أن يسمح له بزيارته فى معمله .

وتحدث الرجلان فى هذه الزيارات ، مدى ساعات ، فى الشؤون العلمية . وما كان أشد دهشة العالم الإنجليزى ، عندما رأى بيير كورى يعمل بلا مساعدين ، فى مكان يرثى له ، وينفق جل وقته بلا مقابل تقريباً ، وأنه لا يعرف أحد فى باريس اسمه ، فى حين يعده اللورد كلفن : **أستاذا** ! . .

وكان بيير كورى رجل إباء وترفع ، لايرضى أن يرشح نفسه لوظيفة تحسن مركزه المادى ، عند استعفاء أحد الأساتذة ، أوموت آخر . . فهو يضن بعقله أن يشغل بسفاسف الترصد للوظائف والدرجات . وهو كذلك يرفض وسام « سعف الأكاديمى » ، الذى اقترحه له مدير المدرسة .

وكان بيير كورى من الممكن أن يكون كاتباً . . فان له من تفكيره وأسلوبه مزايا الكاتب . وكان من الممكن أن يكون شاعراً ، وفناناً ، لأنه أوتى الحساسية والمخيلة ، وأسباب التثبيط ، والقلق ، التى لهم ، كما تدل على ذلك يومياته خلال ١٨٨١ ... يسائل فيها عما سيصيب من دهره وينادى الكبرياء والطموح ، ليدفعاه إلى الأمام ، وينقلاه من عيشه الخامل . . .

وظل الشاعر ، والعالم ، فى شخص بيير كورى ، كلاهما يحرص على التقرب من الفتاة البولونية . فرآها مرتين ، أو ثلاثاً ، فى اجتماعات جمعية علوم الطبيعيات ، حيث كانت تستمع إلى العلماء يبسطون

بحوثهم الجديدة . وأهدى إليها بحوثه . ولمحها فى معمل ليمان ، فى معطفها التيلى ، منحنية فى صمت على أجهزتها . .

ثم سألها أن **يزورها** . فأعطته مارى عنوانها : « شارع **الفيانتين** rue des Feuillantines » . . واستقبلته بمودة ، وتحفظ ، فى غرفتها الصغيرة ، فانقبض قلب بيير من كل هذا البؤس . . ومع ذلك ، لم تبد له قط مارى أجمل منها فى غرفة السطح هذه ، التى تكاد تكون خالية ، بثوبها البالى ، وملامحها المتحمسة العنيدة . وكان محياها الفتى النحيل ، الذى نال منه جهاد حياة نسك وتقشف ، لايمكن أن يجد إطاراً أكمل روعة من هذه الصومعة العليا الخاوية .

ومرت بضعة أشهر . . وتوثقت عرى الصداقة . وزادت المودة وزادت الثقة ، بقدر ما كان يزيد التقدير والإعجاب المتبادلان . . وسرعان ما صار بيير كورى : أسير البولونية المشرقة ذكاء وصفاء ، وكان يطيعها ، ويسمع آراءها . فدفعته ، وهزته ، ومدته بروح منها ، فخرج عن تراخيه ، وحرر تجاربه فى المغنطيسية ، وقدم فيها رسالة رنانة ، نالت الدكتوراه .

وكأن مارى كانت تزعم أنها ما زالت حرة . ولاح لها أنها غير مستعدة لسماع الكلمات النهائية ، التى لايجرؤ العالم على النطق بها .

وهما ، هذا المساء ، ولعل ذلك للمرة العاشرة ، قد اجتمعا فى غرفة شارع الفيانتين . الجو جميل ، فنحن فى أصيل يوم من أيام يونيه . وعلى المنضدة ، إلى جانب كتب الرياضيات ، التى تستعين بها مارى فى إعداد امتحانها القريب جداً : كأس فيها بعض أزهار المرجريت

البيضاء ، جاءا بها من نزهة خلوية . . وصبت الفتاة الشاى ، المغلى على « وابور السبرتو » المخلص ! . . .

وبعد ما تحدث بيير طويلا فى عمل كان يشغله ، قال لها : إنه يريد أن تعرف والديه . فهو يعيش معهما فى فيلا صغيرة بناحية « صو » من ضواحى باريس . والأب شيخ كبير ، أزرق العينين ، حاد النظرات متوقد الذكاء ، طيب القلب . . والأم امرأة أثقلتها الأمراض ، وإن كانت قد ظلت : ربة بيت ، بارعة ، باسلة ، باسمة .

فأصغت إليه مارى مدهوشة من شدة الشبه بين أسرتها وأسرته ، فكلا البيتين ، على بعد المزار ، قد قام على السيرة القويمة ، واحترام الفكر والثقافة ، والشغف بالعلم ، والحنان بين الآباء والأبناء ، والميل إلى الطبيعة. فابتسمت ، وحدثته عما سوف تلقاه فى ربوع الريف البولونى ، بعد بضعة أسابيع . . فقال :

— ولكنك سوف تعودين فى أكتوبر . . عدينى بأنك عائدة لا محالة ! . . فلو أنك بقيت فى بولونيا لتعذر عليك إتمام دراستك . . ولم يبق من حقك الآن أن تهجرى العلوم ! . .

وكانت هذه الكلمات تكاد تكشف عما فى نفس بيير كورى من القلق والإشفاق . وكانت مارى تعلم : أنه عندما يقول : « وليس من حقك أن تهجرى العلوم » ، يريد أن يقول : « ليس من حقك أن تهجرينى » .

ثم ظلا فترة طويلة صامتين . ثم رفعت مارى عينيها الرماديتين نحو بيير ، وأجابت بصوت مازال متردداً :

ـ أعتقد أنك على حق . ولشدما أريد أن أعود ! .

* * *

وتكلم بيير بعد ذلك عن المستقبل ، مرات عدة . وسأل مارى أن تكون له زوجاً . ولكن الرد لم يكن مسعداً . .

أن تتزوج فرنسيا ، وأن تفارق أهلها إلى الأبد ، وأن تعدل عن نشاطها الوطنى ، وأن تتخلى عن بولونيا . . . كل هذا بدا للآنسة سكلودوفسكى من ضروب الخيانة الشنيعة . فهى لاتستطيع ! وما ينبغى لها ! . . وقد اجتازت امتحاناتها بتفوق . . والآن عليها أن تعود إلى فارسوفيا ، لقضاء الصيف ، على كل حال ، بل ربما كان للبقاء فيها دائماً .

وتركت الشاب العالم مثبط العزم ، واعدة إياه بصداقة صارت لاتكفيه. وأخذت القطار دون أن تعد بشىء . . . وهو يتبعها بالفكر . . يريد أن يجتمع بها فى سويسرا ، حيث تقضى بضعة أسابيع مع أبيها ، الذى جاء للقائها . أو حتى فى بولونيا ، بولونيا التى هو غيور منها . . على أن ذلك ليس فى الإمكان .

فيمضى ، من بعيد ، يدافع عن قضيته . وحيثما ذهبت مارى ، تقضى شهور الصيف ، فى جرتياز ، أو لمبرج ، أو كراكوفيا ، أو فارسوفيا ، تتبعها تلك الخطابات ، المكتوبة بخط كخط الأطفال على ورق رخيص ، فى رأسه اسم مدرسة الطبيعة والكيمياء ، تحاول أن تقنعها ، وتعيدها ، وتذكرها بأن بيير كورى ينتظرها .

إنها لرسائل جميلة مدهشة :

من بيير كورى إلى مارى سكلودوفسكى – ١٠ أغسطس ١٨٩٤ :

(... لا شيء يمكن أن يبهجنى أكثر من أن أعلم أخبارك . فان فكرة البقاء شهرين دون أن أسمع عنك شيئا ، لا يمكننى أن أطيقها .. وهذا يدلك على مدى ترحيبى بكلمتك الصغيرة . لعلك تختزنين كمية وافرة من الهواء النقى ، وتعودين الينا فى شهر اكتوبر . أما أنا . فلا أظننى سأسافر . سأبقى فى الريف ، وانى ، طول النهار ، لعلى نافذتى المفتوحة ، أو فى الحديقة .

وقد تواعدنا ، اليس كذلك ؟ على ان يحمل كل واحد منا للآخر ، على الأقل ، صداقة عظيمة . فليتك لا تغيرين رأيك !.. لأنه ما من وعد يربط فى مثل هذه الشؤون التى لا يوحيها الانسان . ومع ذلك فما أجمل أن نقضى الحياة جنبا الى جنب ، مأخوذين بأحلامنا: حلمك القومى، وحلمنا الانسانى، وحلمنا العلمى.

ومن هذه الأحلام كلها ، أعد الأخير : هو الحلم الوحيد المشروع . أريد بذلك أننا عاجزون عن تغيير النظام الاجتماعى ، وعلى ذلك فلسنا ندرى ما نفعل ، واذا اتجهنا وجهة ما ، فاننا لا ندرى : أنحسن بذلك الاتجاه أم نسىء ، بتأخيرنا تطورا محتوما ؟.. أما من وجهة النظر العلمية ، فعلى الضد من ذلك ، نستطيع أن نطمع فى عمل شيء . فالأرض هنا أشد صلابة ، وكل اكتشاف ، مهما كان صغيرا ، كاسب للمعرفة .

أليس الأولى أن تبقى معى فى فرنسا ؟.. اننى أعلم أن هذا السؤال يغضبك ، ولست أريد أن أكره عليك ، فضلا عن شعورى بأننى من كل وجهة ، لست جديرا بك ...

سأسعد كل السعادة ، اذا كتبت الى ؛ مؤكدة عودتك فى أكتوبر ، على عنوانى رأسا فى صو : بيير كورى ، ١٣ شارع سابلون ، صو – السين

بيير كورى

من بيير كورى إلى مارى سكلودوفسكى – فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ :

(... لم يستقر عزمى على اللحاق بك . وظللت يوما كاملا مترددا ، حتى وصلت الى هذه النتيجة السلبية . فأول ما خطر

لى ، عنـــد مطالعة كتابك ، انك تفضلين عدم حضورى . والثانى أنك كنت ، مع ذلك ، من العطف بحيث سمحت لى بقضـــاء ثلاثة أيام معك ، فكدت أسافر ! ثم شـــعرت بنوع من الاستنكاف من ملاحقتى اياك هكذا على رغمك . ثم كان مما حملنى نهائيـــا على البقاء : ثقتى المطلقــة بأن حضـــورى سيضايق والدك ، وينغص عليه مسرته بك ، والتمتع بصحبتك .

والآن ، وقد فات الأوان ، أجدنى آسفا لأننى لم أســـافر ! فمن يدرى ! لعل سفرى كان يضاعف صداقتنا ، خلال تلك الأيام الثلاثة ، ويحملنا على ألا يتناسى أحدنا الآخر ، فى الشهرين ونصف الشهر التى تفرق بيننا ! .

هـــل أنت قدرية ، تؤمنين بالقضـــاء والقدر ؟ أتذكرين يوم كرنفال الصيام : La Mi-Carême فقد أضللتك فجأة فى الزحام . ويخيل الى أن علاقتنا الودية ستنقطع هكذا فجأة ، دون أن يكون لأحد منا رغبة فى ذلك . لست قدريا ، ولكن قد يكون هذا نتيجة طباعنا . فلا أعرف كيف أتصرف فى الوقت المناسب ! .

وربما كانت الخيرة فى ذلك لك ؛ لأننى لا أدرى لماذا وضعت نصب عينى أن أستبقيك فى فرنســـا ، وأن أبعـــدك عن بلادك وعن أهلك ، دون أن يكون لدى ، من الطيبات ، ما أقـــدمه لك ، جزاء هذه التضحية ! .

ألا تكونين مزهوة بنفسك شيئا ما ، عندما تقولين أنك مطنقة الحرية ؟.. اننا ، ان كثيرا وان قليلا ، عبيد عواطفنا ، عبيد أحكام أولئك الذين نحبهم . ثم انه لابد لنا من أن نكسب عيشا ، وبذلك نصبح عجلات ميكانيكية ..

واشد ما يؤلم ، هو الامتيازات التى لابد من تقديمها للمجتمع الذى حولنا ، بأحكامه المبتسرة القاسية .. ونحن نقدم منها الأقل أو الأكثـــر ، تبعا لقوتنا أو ضعفنا . واذا لم نقـــدم منهـــا الكفاية سحقنا سحقا . واذا قدمنا أكثر مما ينبغى ، كنا حقيرين ، تتقزز انفسنا من انفسنا . وهأنذا بعيد عن المبـــادىء التى كنت أعتنقها

منــذ عشر سنين .. فقــد كنت ؛ فى ذلك العهد : اعتقد بضرورة التطرف فى كل شىء ، وعدم النزول عن شىء للوسط المحيط بنا . وكنت أقول بضرورة المغالاة فى العيوب ، كضرورتها فى الصفات .. وكنت ألبس قمصانا زرقاء كالعمال .. وما الى ذلك ..

« فها أنت ذى ، ترين أننى قد أصبحت شيخا كبيرا جدا ، وأحس بضعف شديد ..

أتمنى لك المسرة ، وأحييك ..)

صديقك المخلص
ب . كورى

من بيير كورى إلى مارى سكلودوفسكى — ٧ سبتمبر ١٨٩٤ :

(... ان خطابك قد سبب لى القلق ، كما تقــدرين . وانى أشير عليك بالعودة الى باريس فى شهر أكتوبر ، والا تألمت أشــد الألم . وليس هذا مجرد أنانية صديق ، بل على ثقة بأنك ستؤدين عملا متينا نافعا .

ان لك طريقة عجيبة فى فهم الأنانية !.. عندما كنت فى سن العشرين ، أصــابتنى نكبة : اذ فقــدت رفيقة صباى ، التى كنت أحبها كثــيرا ، وفقدتها فى ظروف مروعــة ، ولا أجد من نفسى شجاعة على قص ذلك عليك ... فأمضيت ، بعــد ذلك ، الأيام والليالى بفكرة ثابتة ، ووجدت لذة فى تعذيب نفسى هكذا بنفسى ، ثم نذرت نفسى ، عن طيبة خاطر ، لعيشة الرهبنة ، وواعدت نفسى بألا أهتم بعد ذلك الا بالأشياء، فلا أفكر بعد فى ذاتى ولا فى الناس. وطالما سألت نفسى منذ الحين : ألم يكن هذا الزهد فى الوجود مجرد تسويغ أمام نفسى ، لأحصل لها على حق النسيان ؟!

هل المراســلات حرة فى بلادكم ؟.. أشك فى ذلك كثــيرا .. وأرى أن الأفضل عدم الاغراق فى التــأملات ، فمع أنها فلسفية بحتة . فقد يساء تفسيرها . وتسبب لك ازعاجا ..)

صديقك المخلص
بيير كورى

من بيير كورى إلى مارى سكلودوفسكى — ١٠ أغسطس ١٨٩٤ :

(أثارنى خطابك ؛ اذ أحسست فيه بأنك قلقة غير مستقرة . ثم طمأنتنى رسالتك من فارسوفيا ؛ اذ شعرت بعودة الهدوء اليك . لقد أعجبتنى صورتك كثيرا . ما أجمل هذا الفكر الذى أوحى ارسالها الى ، فشكرا لك ، من مجامع قلبى .

اذن ستعودين الى باريس ، وأنت تعلمين مدى ما يغمرنى من سرور بذلك ؛ فانى أريد حقا أن تكون ، على الأقل ، صديقين ، لا تفرق بيننا الأيام . ألست ترين رأيى ؟ .

لو أنك كنت فرنسية، لتوصلت بسهولة الى التدريس فى احدى مدارس المعلمات . فهل تروقك هذه المهنة ؟ .

أظهرت أخى على صورتك .. أترييننى أخطأت ؟ .. وقد أعجب بك كثيرا . . . وأضاف : «انها تبدو ذات عزم شديد .. بل ذات عناد » ! ..) .

صديقك المخلص

ب . كورى

* * *

وأقبل اكتوبر . بيير كورى لاتسعه الدنيا من الهناءة . إن مارى قد عادت إلى باريس كما وعدت ، وصارت تشاهد مرة ثانية ، فى محاضرات السوربون ، وفى معمل ليبمان . ولكنها فى هذه السنة سنتها الأخيرة فى فرنسا — كما كانت تزعم — أصبحت لاتسكن الحى اللاتينى ، بل نزلت لها برونيا عن غرفة متصلة بالعيادة التى فتحتها فى ٢٩ شارع شاتودان . وكانت برونيا ماتزال تقطن حى المذبح ، ولا تجىء عيادتها إلا نهاراً ، فتستطيع مارى أن تعمل فى سلام .

وفى هذا المسكن المظلم ، الكئيب بعض الشىء ، استأنف بيير مرافعته العاطفية الحنون . . وهو على طريقته هذه عنيد مثلها . يطوى جوانحه

على مثل الإيمان الذى تنطوى عليه جوانح زوجته المستقبلة ، إيمان كامل نقى ، خالص من كل شائبة . وكان العلم عنده هو الهدف الوحيد . لذلك كانت مغامرته شيئاً غريباً ، لايكاد يصدق ؛ لأن فيها مشاعر تمس شغاف قلبه ، مع التنفس والطموح اللازمين لعقله . كان هذا العالم مندفعاً نحو مارى بقوة العاطفة ، وفى الوقت نفسه بقوة الحاجة الذهنية .

بل إنه سيكون مستعداً للتضحية بما يسميه الناس : « الهناء » ، فى سبيل « هناء » يعرفه هو وحده . فعرض على مارى اقتراحاً ، يبدو أول وهلة غريباً ، ويمكن أن يعلل بأنه خدعة أو زلفى ، غير أنه يتفق تماما مع طبيعته . فاذا كانت مارى لاتشعر نحوه بحب ، فهل ترضى بترتيب من وحى الصداقة الخالصة ، وهو : أن تعمل معه فى شقة بشارع موفتار Mouffetard لها نوافذ مطلة على حدائق، وهى شقة يمكن أن تقسم إلى قسمين مستقلين ؟.

أولا – ولابد مما ليس منه بد – إذا ذهب بيير كورى للعيش فى بولونيا أفلا تتزوجه عندئذ ؟ . وسيبدأ باعطاء دروس فرنسية . ثم يعكف معها ، قدر الطاقة ، على البحث العلمى . . .

إن هذا الرجل الفذ ، أمام « مربية الأولاد » السابقة ، تلك التى احتقرتها أسرة قروية بولونية ، يتوسل ، ويتذلل . . .

فأسرت مارى لأختها برونيا بترددها ، وحدثتها عما عرضه بيير من التغرب عن بلاده . . وهى تحس أن ليس من حقها أن تقبل مثل هذه التضحية .. بيد أنها اضطربت تأثراً من مرور هذا الخاطر على باله .

ولما عرف أن الفتاة حدثت أختها وزوجها عنه ، حاول هجوماً

جديداً من هذه الناحية ، فذهب للقاء برونيا – وقد سبق له أن رآها مراراً ، وكسبها بكليتها لصفه – ودعاها مع ماري لزيارة أهله في « صو » وأخذت أمه برونيا ، وانتحت بها ناحية ، وسألتها بصوت رقيق مؤثر : أن تتدخل لدى أختها الصغرى ، وقالت لها مؤكدة :

– ليس في الدنيا مخلوق يساوي ولدي بيير . . فلا تدعي أختك تتردد . . إنها ستكون معه أسعد منها مع أي إنسان آخر !

وكان لابد من مرور عشرة أشهر أخرى ، قبل أن تقبل البولونية العنيدة فكرة الزواج . . وحينذاك طاب نفساً ، وقر عيناً . . فان ما كان يربطه بها ، ويبهره فيها ، وهو : تفانيها المطلق في العمل ، وما يتوسمه فيها من عبقرية .. وكذلك شجاعتها ونبالتها . ومع هذا كله فان لهذه الفتاة الرشيقة . . أخلاق الرجل العظيم ، ومواهبه . . .

أما المبادئ ، فهو أيضاً قد عاش بها دهراً ، ثم دلته الحياة على سخافتها . . أو لم يكن من مبدئه ألا يتزوج ، وقد عاهد النفس على ذلك ! لم يكن وراءه بولونيا المضطهدة ، يدافع عنها . . ولكنه كان يزعم دائماً : أن الزواج يتعارض مع وقف النفس على العلم . . والخاتمة الفاجعة لغرام شقي في شبابه ، قد جعلته ينطوي على ذات نفسه وصرفته عن النساء . . فلم يعد يريد حباً وهو مبدأ خيّر حفظه من زواج تافه ، وجعله ينتظر لقاء المرأة الموعودة ، ذات الصفات النادرة : « **المرأة التي خلقت له** » . . وكانت تدعى : **ماري** ! . . فلن يكون الآن من الغباء بحيث يترك ، باسم المبدأ : فرصة هـذا الهناء العظيم ، تفوته ، وفرصة هذا التعاون الرائع ! تفلت منه . . إنه

أراد أن يتخذ من « الفتـاة » ، ومن « البولونية » ، ومن « العـالمة بالطبيعيات » : زوجاً له . . . هؤلاء الأشخاص الثلاثة شخص واحد صاروا ألزم ما يكونون له .

وهذا ما أظهر عليه ، فى لطف ورقة ، الآنسة سكلودوفسكى ، بالأقوال .. وبما هو أحن وأحلى : بما يسطه عليها من رعاية ، وبالظرف الأصيل الذى لايقاوم ،وبوجوده كل يوم إلى جانبها : استطاع بيير كورى أن يجعل ، شيئاً فشيئا ، إنسانة ، من تلك الشابة المستوحشة الناسـكة ، المتبتلة ! . .

* * *

وفى ١٤ يوليه ١٨٩٥ ، أرسل جوزيف ، أخو ماريا ، رسالة إليها من فارسوفيا ، تحمل تحليل أسرة سكلودوفسكى لزواجها ، وتسوغ تصرفها ، وتباركها :

(. . . أما وأنت الآن خطيبة المسيو كورى ، فانى ابدا فأوجه اليك أصدق تمنياتى : بأن تجدى الى جانبه ، من السعادة والفرح ؛ ما تستحقين فى عينى وفى عيون كل الذين عرفوا قلبـك الـكريم وخلقك . .

. . . وأعتقد انك على حق فى اتباع قلبك . وما من شخص عادل يستطيع أن يلومك فى هذا . اما وانا اعرفك ، فانى مقتنع بأنك ستظلين دائما بولونيـة بكل روحك ، وانك لن تكفى ابداً فى قلبك عن أن تكونى عضواً فى اسرتنا . وكذلك نحن لن نكف عن حبك . . .

وانى لأوثر مئة مرة ان اراك فى باريس : سعيدة هانئة ، على أن أراك تعودين الى بلادك محطمة بتضحية حياة كاملة ، وشهيدة المبالغة فى واجبك .

وعلينـــا الآن : ألا يحرم بعضنـــا رؤية بعض ، مهمـــا تكن الظروف .

أقبلك مئة قبلة ، يا عزيزتى مانيـا .. وأكرر لك تمنياتى بالسعادة والفرح والفلاح . وبلغى خطيبك ارق تهانئى . وقولى له : انى ارحب به عضوا جديداً فى اسرتنا ، وانى اقدم اليـه : صداقتى . ومحبتى المطلقة . ولعله يمنحنى كذلك صداقته .)

اخوك الذى يحبك

جوزيف

وبعد أيام . كتبت مارى إلى صديقتها كازيا . رفيقة المدرسة ، تعلن إليها قرارها الحاسم :

(... عندما تصلك هذه الرسالة : تكون صديقتك مانيا قد غيرت اسمها . فسأقترن بالرجل الذى حدثتك عنه العام الماضى فى فارسوفيا . وانى ليحزننى أن أبقى دائماً فى باريس ، ولكن ما العمل ؟ ان القدر جعل كلا منا يتعلق بالآخر اشد التعلق ، فلا نحتمل فكرة الفراق .

ولم أكتب اليك ، من قبل ، عن هذا كله ؛ لأن هذا كله قد تقرر من وقت قريب ، تقـرر بغتة . ولقـد ظللت عاماً كاملا مترددة ، لا يقر لى قرار . وأخيراً تغلبت فكرة البقاء هنا . فعندما تتسلمين هذه الرسالة ، اكتبى الى بهذا العنوان :

« مدام كورى ، مدرسة الطبيعة والكيمياء ، ٢٤ شارع لومون »

فهكذا سأدعى من الآن فصاعداً . وزوجى استاذ فى هـذه المدرسة . وفى السنة القادمة ، سأجىء به الى بولونيا ، لكى يعرف بلادى .. ولن أغفل عندئذ عن ان أقـدمه الى الأخت الحبيبة الصغيرة كازيا ، وأن اسألها : ان توده ...)

وأخيراً ، فى ٢٦ يوليه . استيقظت ماريا ، لآخر مرة فى مسكن شارع شاتودان . وكان يوماً صحواً جميلا . وكان وجه الفتاة رائع الحسن.

وقد تضوع فيه وازدهر شيء لم يعهده فيها رفيقاتها في الدرس . اليوم تصبح مدموازيل سكلودوفسكي : **مدام بيير كوري** .

زينت شعرها البديع ، ووضعت ثوب العرس ، وكان هدية من والدة كازيمير دلوسكي ، التي تسكن الآن شارع ألمانيا بحي المذبح . وكانت ماري قد قالت لها : « إنني لا أملك ثوباً آخر غير الذي ألبسه كل يوم . . فاذا تعطفت باعطائي ثوباً ، فاني أريده قاتم اللون ، نافعاً ، بحيث أستطيع بعد ذلك أن أرتديه ، وأذهب به إلى المعمل » ! . ففصلت لها خياطة فقيرة : ثوباً من الصوف الأزرق القاتم ، مع « بلوز » أزرق فاتح ، بدت فيه ماري فتانة ، ناضرة ، فتية . .

وكانت ماري راضيــة عن فكرة هــذا الزواج ، الذي يختلف في تفاصيله عن كل زواج . فلا ثوب أبيض ، ولا خاتم من ذهب ، ولا مأدبة عرس ، ولا حفلة كنسية . . لا شيء ، إلا : التسجيل المدني ثم ركوب دراجتين لامعتين ، اشترياهما بالأمس ، من هدية نقدية أرسلها أحد أبناء العم ، وستكونان مطيتيهما خلال الصيف ، في الريف !

أجل .. سيكون زواجاً جميلا ، ذاك الذي لا يحضره عدم الاكتراث ولا التطفل ، ولا الحسد . . ففي دار عمدية « صو » ، وفي حديقة شارع سابلون ، عند والدي بيير ، سيجتمع : برونيا وكازيمير ، وبعض الأصدقاء المقربين جدا من الجامعيين . ثم من فارسوفيا قد جاءت هيلا ، والبروفسور سكلودوفسكي ، الذي أدهش الدكتور كوري العزيز ، والد بيير . بلسانه الفرنسي السليم العريق . .

ولكنه قال له أولا ، بصوت منخفض ، متهدج ، شديد التأثر ، هذه الكلمات النابعة من قلبه الكريم :

ـ سيكون لك فى مارى بنت جديرة بالمحبة . فهى منذ مولدها ، لم تكن لى مصدر ألم قط .

* * *

وجاء بيير فأخذ مارى إلى القطار الذى يقوم من محطة لكسمبرج ، فى صميم الحى اللاتينى ، إلى ضاحية « صو » ، حيث كانت الأسرتان فى انتظارهما . .

وفى عربة الأمنيبوس ، فى الدور الأعلى المكشوف (الأمبريال) . . فى الشمس الضاحية البهيجة ، صعدا بولفار سان ميشيل . . ومن قمة عربتهما الظافرة نظرا إلى المشاهد المألوفة لهما . .

ولما حاذيا السوربون فى مرورهما أمامه ، عند مدخل كلية العلوم ، ضغطت مارى ذراع رفيقها ، تتلمس نظرته المشرقة المطمئنة . .

الفصل الحادى عشر

زوجان شابان

أمضيا شهر العسل ، فى الريف ، بين الحقول والغابات ، على الدراجتين المشهورتين ! . . يتغديان على العشب ، بقليل من الخبز والجبن والخوخ والكرز . وفى كل ليلة ، يقفان كيفما اتفق ، عند خان (auberge) صغير مجهول . . حيث يجدان حساء غليظاً ساخناً ، وغرفة ذات جدران قد بلى ورقها الملون ، ترقص الظلال على ضوء شمعتها . . فيقضيان الليل فى سكون الحقول ، لايقطعه إلا نباح يأتى من بعيد ، وإلا زقزقة العصافير ، ومواء القطط الشاكية ، وقرقعة خشب الأرضية المروع ! . .

وكان بيير يحب الريف حبا قويا . ولعل المشى الطويل الصامت كان لازماً لعبقريته ، فيساعد وقع خطاه المنتظمة المتسقة ، تأملاته فى العالم . وكان لايستطيع أن يبقى فى حديقة بغير حركة . كان لايعرف كيف يرتاح . وكذلك كان لايحب النزهات الحلوية المرسومة مقدماً . . فلماذا يسير نهاراً ، بدلا من أن يسرى ليلا ؟ . . ولماذا تحدد ساعات الغداء ؟ . . إنه منذ مولده قد تعود الرحيل فجأة : تارة فى الفجر وتارة فى الشفق ، دون أن يعرف متى يعود : أبعد أيام أم بعد ساعة واحدة !.. وكان يهجر باريس فى صباه ، وينطلق إلى واد ذى زرع ،

فى المساء ، يتنزه ماطاب له التنزه ، ويعود وفى رأسه عشرون فكرة ! .

وهذا التشرد فى صيف ١٨٩٥ : « تشرد العرس » ، كان ألذ وأحلى . . فالحب يجمله ويثيره . فبضعة فرنكات أجرة الغرفة الريفية ، وضربات على « بدال » الدراجتين . . وإذا بالزوجين الشابين يستمتعان خلال الليل والنهار السحريين ، بترف عيشهما معاً . جنباً إلى جنب ، وحيدين . . وكانا إذا سارا بين الحقول ، يتابع بيير بصوت مرتفع تأملاته الداخلية ، ويتحدث فى بحث من بحوثه العلمية ، وهو واثق ، دون أن يلتفت إلى مارى ، أنها تسمعه ، وأنها سترد عليه رداً ذكياً ، نافعاً ، أصيلا ، مطبوعاً بطابعها .

وهى أيضاً لها مشروعاتها : تريد أن تحضر لمسابقة « الأجريجاسيون » وهو لايشك فى أن مدير مدرسة الطبيعة والكيمياء سيسمح لها بعمل تجاريبها فى المعمل مع بيير . . فيعيشان معاً عيشاً متصلا . لايترك أحدهما فيه الآخر إطلاقاً ! . .

ووقفت مارى ، وهى تكاد لاتتحرك ، كأنها ناعسة ، تنظر إلى السماء تمر فيها سحب ضعيفة . . . ثم لم تلبث أن صرخت ، إذ أحست على راحتها شيئا باردا رطبا : ضفدعة خضراء تنتفض ، وضعها بيير بلطف فى يدها . . ولم يكن ذلك منه دعابة ، فان صداقة الضفادع شىء طبيعى للغاية عنده ! . فاحتجت مذعورة :

— بيير . . سبحان الله فى طبعك ! . .

فتضايق العالم ، وسألها :

— أفلا تحبين الضفادع ؟

– بلى . ولكنى لا أحبها فى يدى ! .

– أنت مخطئة . . إن ملاحظة الضفدع من أعظم المسليات . افتحى يدك بلطف . . وانظرى ، كم هى ظريفة ! . .

ثم استرد ضفدعته . . فتبسمت مارى ، وتنفست الصعداء . فوضع الضفدعة على حافة البركة ، وأخلى لها سبيلها ، وسار ، تتبعه زوجته مزدانة بحليها الساذجة من زهر السوسن والنيلوفر . . .

فى أيام السعادة هذه ، توثقت أجمل الروابط التى يمكن أن تربط دائماً رجلا بامرأة . قلبان يخفقان معاً ، جسمان متحدان ، عقلان عبقريان تعودا التفكير معاً . . وما كانت مارى لتستطيع الزواج من رجل آخر ، غير هذا العالم الكبير ، هذا الرجل الحكيم النبيل . وما كان بيير ليستطيع الزواج من امرأة أخرى ، غير هذه البولونية الشقراء ، هذه الحنون ، الفياضة بالحياة ، التى فى وسعها أن تكون ، فى لحظات معدودة ، صبية بسيطة ، أو سيدة سامية ، لأنها كانت صديقة ، وكانت خليلة . . كانت عاشقة ، وكانت عالمة ! . .

• • •

وتآلفت الأسرتان : الفرنسية والبولونية ، تآلفاً مشهوداً . يرجع إلى اتحاد الثقافة ، ولون التفكير ، وعطف القلوب . . ولم تكن فى بيير غريزة الحذر من الأجانب ، الغالبة على مواطنيه ، فهو يحب أهلها حبه لأهله . ولكى يقدم إلى زوجه برهاناً جديداً على الحب ، أرغم نفسه مع احتجاجها الرقيق ، على مجهود مؤثر : هو تعلم اللغة البولونية ، أصعب لغات أوربا ، لغة أمة مضطهدة ، لا كيان لها ، فهى إذن لغة قليلة الجدوى .

وكذلك اتخذت ماري بدورها القباء الفرنسي . . فقد أحبت أهل زوجها ، وبادلتهم حباً بحب ، وذلك كان مما خفف عليها منفاها عندما رحل عنها أبوها وأختها هيلا عائدين إلى فارسوفيا .

ولم يحدث زواج بيير بفتاة أجنبية فقيرة ، وجدها فى غرفة سطح بالحى اللاتينى ، أى صدمة أو دهشة لهذين الشيخين الممتازين ، فقد أعجبا بمارى من أول وهلة . . ولم يكن ذلك أثر السحر السلافى وحده ، بل فتنا أيضاً بذكائها الرجالى ، وبخلقها وشخصيتها .

وكان من الأشياء القليلة التى أدهشت مارى فى وسط « صو » : أن تكتشف شغف حميها وأصحابه بالسياسة . فالدكتور كورى (الأب) كان من أنصار أفكار ١٨٤٨ ، وعلى عهد الود الوثيق مع الراديكالى هنرى بريسون . وكان رجل كفاح . فنرى مارى التى نشأت فى جو نضال ضد المغتصبين الأجانب ، والتفانى السلمى فى مثل اجتماعى أعلى قد بدأت تعرف المنازعات الحزبية ، العزيزة على قلوب الفرنسيين . فتصغى إلى النقاش الطويل ، وإلى تفسير النظريات الحامية ، وإلى عرض الآراء العنيفة الكريمة فى وقت معاً . . فى حين يظل زوجها صامتاً حالماً . وإذا حاول ضيوف يوم الأحد ، فى حديقة منزل « صو » الصغيرة ، أن يحملوا بيير على التدخل فى المجادلات الخاصة بالحوادث الجارية ، أجاب العالم الطبيعى بلطف ، كأنه يعتذر . . إنه ليس من القوة بحيث يستفزه الغضب ! . .

وكتبت مارى :

« كان بيير كورى قليل الميل الى القيام بدور مهم فى

السياسة . وكان ، بتربيته وعاطفته ، يجنح الى الافكار الديمقراطية والاشتراكية . ولكنه لم يكن خاضعا لاية نزعة حزبيـة . وكان في الحياة العامة ، مثله في الحياة الخاصة ، لا يؤمن باستخدام العنف ... » .

وكانت قضية دريفوس من الأحوال النادرة التى خرج فيها بيير كورى عن تحفظه ، واندفع فى النضال السياسى ، ولكنه كان فى ذلك أيضاً مسيراً ، باتخاذه جانب رجل برىء مضطهد . . كان يكافح الظلم الذى يرعبه ، لأنه كان رجلا عدلا .

* * *

استقر الزوجان الشابان فى شقة صغيرة ، بالمنزل رقم ٢٤ بشارع لاجلاسيير La Glacière ، تطل نوافذها على حديقة كبيرة . وكان هذا كل جمال ذلك المسكن ، المجرد من كل أسباب الراحة .

ولم تعمل مارى وبيير شيئاً لزخرفة هذه الغرف الثلاث الضيقة . بل إنهما رفضا الأثاث الذى قدمه الدكتور كورى الوالد . فكل أريكة (كنبة) ، وكل مقعد ، يكون متاعاً ، لابد من تنفيضه فى الصباح ، ثم تلميعه فى يوم التنظيف العام . ولم تكن مارى بقادرة على ذلك ، إذ لم يكن لديها وقت ! ثم مانفع « كنبة » أومقعد ، مادام الزوجان الشابان قد اتفقا على إلغاء كل الاجتماعات وكل الزيارات ! فالطفيلى الذى يتسلق أربعة أدوار ليزعج الزوجين فى وكرهما ، لايلقى أهلا ولايحل سهلا ، بل يصطدم حين يدخل مكتب الزوجين ، بجدرانه العارية . كل أثاثه : مكتبة ومنضدة من خشب أبيض . . فى طرف المنضدة كرسى مارى ، وفى الطرف الآخر : كرسى بيير . وعلى المنضدة كتب الطبيعة ،

ومصباح غاز ، وطاقة زهر، لا أكثر . . وأمام هذين الكرسيين ، لا بينهما ، كرسي للزائر . وإزاء نظرات بيير وماري المهذبة الدهشة ، لا يسع أجرأ الزوار إلا أن يولى الأدبار ! . .

وكان هدف بيير الذي يرمي إليه من الحياة مثل واحد أعلى ، هو القيام بالبحث العلمي ، إلى جانب زوجة حبيبة ، تعيش مثله لأجل البحث العلمي . وكان نصيب ماري أشد مشقة وعناء ؛ فقد أضيفت إليها ، إلى جانب كدحها الذهني ، متاعب الواجبات الزوجية المرهقة . فأصبحت لا تستطيع ، بعد ، أن تهمل الحياة المادية . كما كانت تهملها وهي طالبة بالسوربون . وكان أول ما اشترته عند عودتها من الإجازة : كراسة ، تسجل فيها حساباتها . . وعلى غلافها الأسود ، بحروف ذهبية ، كلمة كبيرة : **نفقات** . . .

وبيير كوري يكسب الآن خمسمائة فرنك في الشهر ، من مدرسة الطبيعة والكيمياء . وفي انتظار حصول ماري على دبلوم الأجريجاسيون التي تمكنها من التدريس في فرنسا ، كانت خمسمائة الفرنك هي مورد رزقهما الوحيد .

وكان يمكن لبيت متواضع أن يعيش بهذا المبلغ عيشاً طيباً . فتعلمت ماري الاقتصاد . وكان أصعب ما في الأمر أن تحشد أعباء يومها الناهكة في الساعات الأربع والعشرين . وكانت تقضي أكثر وقتها في معمل المدرسة ؛ إذ كان المعمل لديها هو السعادة ! غير أن هناك أيضاً . في شارع لاجلاسيير ، سريراً يجب أن يرتب . وأرضاً يجب أن تكنس ، وملابس زوج يجب أن تنظف ، ووجبات طعام يجب أن تجهز . . كل ذلك بغير خادم ! . .

وعلى ذلك تنهض مارى مبكرة جدا ، فتذهب إلى السوق . .

وفى آخر النهار ، تعود من المدرسة فى ذراع بيير ، فتدخل معه عند البقال وعند اللبان . أين الزمان الذى كانت فيه مدموازيل سكلودوفسكى اللاهية تجهل العناصر اللازمة لصنع المرق ! ؟ إن مدام بيير كورى قد جعلت كرامتها رهنا بمعرفة ذلك ! . . فما كاد يتقرر زواجها حتى ذهبت الطالبة ، فى السر ، تسأل أختها برونيا وحماة برونيا (والدة الدكتور دلوسكى) دروساً فى الطهى .. فتمرنت على تحمير الدجاجة. وقلى البطاطس . . وأخذت تعد طعاماً طيباً لزوجها ، الذى كان « التسامح » ماثلا فى رجل . وكان من اشتغاله بعلومه ، بحيث لم يلحظ هذا الجهد الكبير .

إن كرامة مارى لتحفزها على إتقان الطعام . . ماذا كانت تقول حماتها الفرنسية لو رأت عجز كنتها عن صنع « العجة » ؟ وما يكون حكمها على ما يتعلمه بنات فارسوفيا ؟ ! . فعكفت على درس « وصفات » الطبخ ، تسجل ، وتعيد ، وتحفظ ، وتجرب ، وتسجل الاخفاق أو النجاح . وابتكرت ألواناً لا تتطلب عناية كبيرة ، بل تطبخ « نفسها بنفسها » حين تكون هى فى المدرسة ! . . ولكن الطهى علم صعب كالكيمياء ، محاط بالأسرار مثله ! . . ماذا تفعل حتى لا تلتصق المكرونة بعضها ببعض ، وحتى لا تلتصق بالحلة ؟ ! ماهى المدة التى يستغرقها نضج لحم الفخذ بالفاصوليا الخضراء ؟ ووقفت مارى أمام فرنها . وقد اشتعلت وجنتاها كالنار ، وهى تتنهد من كبد حرى ! . . لقد كان الأسهل عليها ، يوماً ما ، أن تتغذى بالخبز المدهون بالزبد ، والشاى ، والكرز ، والفجل ! . .

وظلت شيئاً فشيئا تغزو مناطق الغذاء . وأصبح النمرن ، الذى كثيراً ما أحرق اللحم ، يخضع لها ، ويطيع ، عارفاً بالواجب ! . . فقبلما تخرج ، تنظم العاملة بالطبيعة مشعلا بدقة ، ثم تلقى نظرة قلق أخيرة على الحلل التى عهدت بها إلى النار ، ثم تقفل باب السلم ، وتسرع ، لتدرك زوجها ، فتقطع معه الطريق إلى المدرسة .

وبعد ربع ساعة ، تكون قد انحنت على أفران أخرى ، وبالعناية والدقة نفسيهما ، تنظم مشعل النار فى معمل الكيمياء ، لتحليل المعادن ، واستخراج الأسرار ! . .

* * *

من مارى إلى جوزيف وزوجته – فى ١٧ يوليه ١٨٩٦ :

(يا أعزائى ! لشد ما كنت أريد السفر الى البلاد هذه السنة ، لأضمكما بين ذراعى !. . ولكنى لا أستطيع ، وا أسفاه ، لضيق ذات اليد ، وضيق الوقت .. وامتحانات الأجريجاسيون ، التى أجتازها فى هذه الآونة ، قد تمتد الى منتصف اغسطس . .)

ثمانى ساعات دراسة علمية ، وساعتان أو ثلاث ساعات تدبير منزل ! . . وها هى ذى ، مارى كورى فى مسابقة الأجريجاسيون للتعليم الثانوى ، تنجح ، وتكون **الأولى** . . . فيلقى بيير ذراعه حول عنق البولونية فخوراً بها ، ويخفان مسرعين إلى شارع لاجلاسير . . فينفخان من فورهما عجل الدراجتين ، ويملآن جعبتهما طعاماً ، ويسيران فى طريق الأوفرن L'auvergne فى سياحة كشفية ! . . فما أشد اعتداد هذين الزوجين بقواهما الذهنية والبدنية ! . . حتى إجازتهما : مرح ، ولهو . . . وتدريب للإرادة والعزم ! . .

ونحن فى السنة الثانية للزواج ، لانجدها تختلف عن الأولى إلا فى حالة مارى الصحية التى يزعزعها الحمل، وهى قد أرادت هذا الولد ، ولكنها مغيظة من شعورها بالألم الشديد، محنقة من عجزها فى تعبها عن دراسة مغنطة الصلب . . وهى تشكو.

من مارى إلى كازيا – فى ٢ مارس ١٨٩٧ :

(يا عزيزتى كازيا ! عفوا لتأخرى فى تهنئتك بعيد ميلادك ؛ فقد كنت فى هذه الأوقات الأخيرة مريضة جدا ، وحرمنى مرضى الارادة والصفاء اللازمين للكتابة . وانى لا البث أن أضع مولودا . وهذا الرجاء يسبب لى أشد العناء . فمنذ أكثر من شهرين ، وانا أصاب بدوار مستمر ، من الصباح حتى المساء . فتعبت ، وضعفت ، وعجزت عن العمل ، وساءت حالتى المعنوية .. وبقدر ما تضايقنى حالتى ، تسوءنى حالة حماتى الصحية ، التى هى فى أشد الخطر . . .) .

من مارى إلى جوزيف سكلودوفسكى – فى ٣١ مارس ١٨٩٧ :

(... لا شىء جديد ... فما زلت طوال الوقت مريضة ، وان كنت مع ذلك لم أذبل ، بل راق محياى !.. ان حالة حماتى على ما هى عليه ، ولأنها مريضة بداء لا دواء له « سرطان فى الثدى (١) » تجدنا فى شدة الهم . وان اقسى ما اخافه . أن يبلغ بها الداء الوبيل درجته القصوى فى الوقت الذى اضع فيه .. فتصور اذن ما يصيب زوجى المسكين فى تلك الأسابيع المروعة ! ..) .

---

(١) هو الداء الذى توفيت به والدة ناقل هذا الكتاب ، وقد نفعت فيه العملية الجراحية ، التى اجراها الأستاذ الدكتور عبد الوهاب مورو بك . وأفاد استخدام « الراديوم » الذى اكتشفته « التلميذة الخالدة » فائدة كبيرة ، على يد الأستاذين الفاضلين الدكتور عبد الله على والدكتور الصدر . وهو العلاج الذى يرجو فطاحل العلماء أن يتم لهم به الانتصار على هذا الداء العياء . كفى الله أحبابنا وأعداءنا والناس جميعا شره .. فهو أشد ما بليت به الانسانية . « ص »

وعادت ماري من إجازتها إلى باريس ، حيث وضعت في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٧ ، طفلة جميلة : **« ايرين Irène »** . . ستنال مثل أبويها ومثل أمها يوماً ما جائزة نوبل ! . . وكان الدكتور كوري الوالد مشرفاً على الوضع ، الذي تحملته مدام كوري وهي تعض على أسنانها ، دون أن تصرخ صرخة واحدة ! . .

من ماري إلى أبيها مسيو سكلودوفسكي – في ١٠ نوفمبر ١٨٩٧ :

(. . . اني ما زلت أرضع ملكتي الصغيرة . . ولكني أخشى أن أعجز عن ذلك في المستقبل · فقد نقص وزن الطفلة كثيرا ، خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة · ولكنها أحسن منذ أيام ، فاذا استمر التحسن مضيت في ارضاعها ، والا اضطررت الى مرضع ، رغم الحزن الذي يسببه لي ذلك ، ورغم النفقات . . الجو صحو جميل ، والشمس ساطعة . . و « ايرين » تذهب كل يوم للتنزه معي ، أو مع الخادمة في حديقة مونسوري · واني أحميها في طست الغسيل الصغير) ·

ولم تلبث ماري أن اضطرت إلى التخلي عن إرضاع طفلتها كما أشار الطبيب ، الذي خشي على ماري أن يصيبها ما أصاب أمها من داء الصدر .. وإن ظلت ساهرة على العناية بملبسها ونزهتها .. ووجدت في حميها عوناً كريماً . . فان الدكتور كوري والد بيير ، الذي ماتت زوجته بعد أيام من مولد إيرين ، قد تعلق بالطفلة ، وسهر على خطواتها الأولى في حديقة بيته بضاحية « صو » . حتى إذا انتقل بيير وماري ، إلى فيلا متواضعة ، ببولفار كارمان ، جاء الشيخ فسكن معهما ، وصار لإيرين خير مرب ، وأعز صديق . . .

يا للطريق الطويل الذي قطعته تلك الفتاة البولونية ، منذ وصولها

صباح يوم من أيام نوفمبر ١٨٩١ ، إلى محطة الشمال ، محملة بالصرر والطرود ، فى عربة الدرجة الثالثة ! . .

إن مانيا سكلودوفسكى قد اكتشفت الطبيعيات ، والكيمياء .. واكتشفت كل حياة المرأة ! . . وقد ذللت عقبات بسيطة وعقبات هائلة ، دون أن تتبين لحظة من زمنها ، أن مافعلته إنما فعلته لما أوتيت من عناد لانظير له ، ومن شجاعة خارقة للعادة .

هذا الكفاح والنضال ، وهذه الانتصارات ، قد غيرتها جسمانيا ، وكونت لها وجهاً جديداً . حتى ليستحيل على المرء أن ينظر ، بلا تأثر ، إلى صورة فوتوغرافية لمارى كورى ، بعد سن الثلاثين بقليل . . فان الفتاة القوية العبلة ، قد تحولت إلى خيال لمخلوقة روحية ، يكاد من يراها يقول : « يالها من امرأة جذابة ، مدهشة ، جميلة ! » . . لكنه لايجرؤ على هذا القول ، نظراً لجبهتها السامية العريضة ، ونظرتها السارحة فى عالم آخر .

ان مدام كورى قد ضربت للمجد موعدا . فتجملت له ...

الفصل الثاني عشر

اكتشاف الراديوم

زوجة شابة ، تدبر بيتها ، وتحمى بنتها ، وتضع على النار قدرها . . وامرأة عالمة ، فى ذلك المعمل المتواضع بمدرسة الطبيعة والكيمياء ، تقوم بأعظم اكتشاف فى العلم الحديث .

إجازتا ليسانس ، ومسابقة الأجريجاسيون ، ومبحث فى مغنطة الفولاذ المسقى ، تلك هى ، فى آخر ١٨٩٧ ، ميزانية نشاط مارى ودأبها ، مارى التى ما كادت تنهض من نفاسها ، حتى عادت إلى عملها ! . .

والمرحلة التالية ، التى تتمشى مع التطور المنطقى لمهنتها ، هى الحصول على الدكتوراه . فمرت أسابيع لا يستقر لها فيها رأى ، إذ لابد من اختيار موضوع بحث طريف خصب ، يضاف إلى تراث المعرفة . وكان رأى بيير فى هذا يعتد به ، فهو رئيس معمل مارى ، وهو « مديرها » ، وهو أكبر منها سنا وأوفر تجربة ، وهى إلى جانب زوجها ترى نفسها شبه مبتدئة .

بيد أن خلق البولونية وطبيعتها ، لهما أثرهما البعيد فى تحديد اختيار الموضوع ، فهى تحمل فى ذاتها ، منذ صباها ، تطلع المستكشفين وجرأتهم . وهذه هى الغريزة التى دفعتها من قبل إلى مغادرة فارسوفيا لاستكشاف باريس والسوربون ، وهى التى جعلتها تؤثر غرفة منفردة

فى الحى اللاتينى ، على شقة أختها الطيبة المقام ، بل كانت ، فى أشواطها خلال الغابة ، تختار دائماً الطريق غير الممهد ، فى الأرض البكر التى لم تطأها الأقدام .

فبعد اكتشاف رونتجن Rontgen : أشعة X ، خطر لهنرى بوانكاريه أن يعود فيبحث فى ضروب الأشعة المشابهة لأشعة X ، وهل هى مرسلة من أجسام ذوات خواص تحول الضوء الذى تتلقاه إلى إشعاعات مضيئة ذوات موجات أطول ؟ . وهى نظرية لفتت هنرى بكرل Becquerel ، فبحث فى أملاح « معدن نادر » ، هو « الأورانيوم » . . ولكنه ، بدلا من أن يجد الظاهرة المتوقعة ، لاحظ ظاهرة أخرى مختلفة عنها كل الاختلاف ، وغير مفهومة : فان أملاح الأورانيوم ترسل – من تلقاء نفسها (دون عمل سابق للضوء) – إشعاعات ذوات طبيعة مجهولة . فاذا وضع مزيج من الأورانيوم على لوح زجاج فوتوغرافى ، محاط بالورق الأسود ، فانه يؤثر فيه من خلال الورق ، ويحدث تفاعلات . وهذه الإشعاعات والتفاعلات « الأورانيومية » المدهشة ، تكهرب ما يحيط بها من الهواء ، بحيث يصبح موصلا جيداً للكهربية ! . .

فهنرى بكرل قد اكتشف الظاهرة التى ستطلق عليها مارى كورى فيما بعد اسم : «**النشاط الاشعاعى** Radioactivité » . . ولكن أصل هذا الاشعاع وطبيعته قد ظلا لغزاً من الألغاز .

وقد جذب اكتشاف « بكرل » : كورى وزوجته إلى أقصى حد . فمن أين تصدر تلك القوة ، كائناً ما كان ضعفها ، هذه القوة التى

تنفصل عنها باستمرار تفاعلات الأورانيوم فى شكل إشعاعات ؟ وهذه الإشعاعات ، ما هى إذن طبيعتها ؟ . . هذا هو البحث العظيم الذى يصلح موضوعاً لرسالة الدكتوراه ! . . وقد شاق الموضوع مارى ، لأنه كان ميدانا للاستكشاف مازال بكراً . فان تجاريب بكرل حديثة. وفى معامل أوربا ، لم يحاول أحد بعد — فيما تعرف — التعمق فى دراسة الإشعاعات الأورانيومية . فها هى ذى ستبدأ بحثها ، وليس تحت يدها من المواد اللازمة له إلا الموضوعات التى قدمها هنرى بكرل إلى أكاديمية العلوم خلال عام ١٨٩٦ .

ما ألذ هذه المغامرة ! وما ألذ الاندفاع فى ساحة المجهول ! . .

* * *

لم يبق إلا أن تجد مارى المكان اللازم للقيام بتجاربها . ومن هنا تبدأ الصعوبات . إن مساعى بيير المتكررة ، عند مدير مدرسة الطبيعة والكيمياء ، لم تؤد إلا إلى نتيجة ضئيلة ، هى السماح لمارى بالعمل فى غرفة تستخدم فى المدرسة مخزناً وقاعة للماكينات ، فلا استعداد فيها ولا راحة . لكن الشابة الباسلة لم تيأس . فبالرغم من حرمانها تركيب الأجهزة الكهربائية ، التى لابد منها فى كل البحوث العلمية ، وجدت السبيل لتسيير آلاتها . . ولم يكن ذلك أمراً هيناً ، فان للأجهزة الدقيقة عدوا لدوداً ، هو : الرطوبة وتغيرات الجو . وهكذا كان جو هـــذا المعمل الصغير . وكما كان ضارا بالآلات الكهربائية الدقيقة الحساسة ؛ كان كذلك ضارا بصحة مارى . . ولكن صحتها لم تكن عندها يوماً ما فى المحل الأول ! .

وأمعنت مارى فى : درسها ، وبحثها ، واستقرائها ، وتجاربها . . فأدركت أن إشعاعات الأورانيوم ، رغم ضعفها الشديد ، ليست وليدة شيء . ولا شبيهة شيء ؛ بل هى إشعاعات ذوات « شخصية » قائمة بنفسها .

ولكن هل الأورانيوم وحده هو مصدر هذه الإشعاعات التى انفرد بها ؟ لماذا لاتكون هناك عناصر أخرى ، لها الخاصية الإشعاعية نفسها ، وفى وسعها توليدها ؟ . . فلعل اكتشاف هذه الإشعاعات فى الأورانيوم أولا ، بطريق المصادفة ، هو الذى جعلها مرتبطة به فى عقول الطبيعيين. فالآن يجب أن نبحث عنها فى شيء آخر.

وما كاد يخطر ذلك لمارى ، حتى راحت تعمل . نبذت دراسة الأورانيوم ، لتتولى تجربة « كل العناصر الكيميائية المعروفة » ! . . ولم تبطيء عليها النتيجة ، فقد وجدت فى أجسام معدن « التوريوم Thorium » : إشعاعات أخرى مندفعة من نفسها ، تشبه ما فى الأورانيوم ، وبنسبة مماثلة . . ورأت العالمة الشابة بجلاء أن هذه الظاهرة ليست من خواص الأورانيوم وحده قطعاً ، فأطلقت عليها اسم : «**النشاط الاشعاعى** Radioactivité »

وكان « النشاط الإشعاعى » هذا ، يفتن مدام كورى ، حتى إنها لم تمل دراسة أشد المواد تنوعاً ، بطريقتها الأولى نفسها . وإن هذا الفضول النسوى العجيب هو من أول فضائلها ، وهو من صفات العلماء وهو غريزى فيها إلى أقصى الحدود ! . . فبدلا من أن تقف ملاحظاتها عند حد الأملاح والأحماض ، اندفعت ، فجأة ، نحو مجموعة معادن

مدرسة الطبيعة والكيمياء ، تحولها إلى « عيّنات » ، كيفما اتفق ، تجرى عليها تجاربها ، وتسجل نتائج امتحاناتها العملية .

وفكرة مارى بسيطة ، بسيطة مثل كل ماتكشف عنه العبقريات. فان مئات العلماء والباحثين ، كانوا إذا عرض لهم مثل ما عرض لمدام كورى ، قضوا الشهور بل السنين ، واقفين حائرين مترددين . . أما مارى فقد ساءلت نفسها عن هذا التفاعل الإشعاعى النشيط الخفى ، ودهشت له . . بيد أنها حولت دهشتها إلى عمل مثمر . وكانت كل تجربة لهـا ، خطوة تخطوها نحو ذلك السر المجهول .

وإذا بها أمام مفاجأة مسرحية : لقد اتضح لها أن هذا النشاط الإشعاعى قد بدا **«أقوى بكثير جدا»** مما كان يتوقع ، من كل ما بدا فى كميات الأورانيوم ، أو التوريوم ، التى امتحنتها . . . فهل كانت غلطة فى التجربة ؟ . . لقد أعادت مقاييسها وموازينها ، بدقة وثبات ، على المواد نفسها ، وأعادتها عشر مرات ، وعشرين مرة . . . فتيقنت ، بداهة ، أن كميات الأوراتيوم والتوريوم التى فى المعادن الممتحنة ، لاتكفى البتة لتحقيق وجود هذه القوة الخارقة ، فى الإشعاعات التى تشاهدها .

فمن أين تجىء هذه الإشعاعات الفائقة الخارقة إذن ؟ ! لابد أن تفرض مارى فرضاً جريئاً جديراً بها ، وهو : أن هذه المعادن ، التى ترسل تلك الإشعاعات كلها ، لابد أن تكون حاوية لعنصر كيميائى ، مجهول حتى يومنا هذا : **عنصر جديد !** . .

مادة جديدة ! . . فرض فاتن مغر .. ولكنه فرض على كل حال .. فإلى الآن، لا وجود لهذه المادة ذات الإشعاع الدائب الهائل، إلا فى مخيلة ماري . ومخيلة بيير كوري. ولكنها موجودة فعلا ، ولها عندهما مكانها ! ..
وقالت ماري لأختها برونيا ذات يوم ، بصوت حار ثابت :

ـ أتعلمين يا برونيا : أن الإشعاع الذى لاأستطيع تفسيره ، آت من عنصر كيميائى مجهول ؟ .. فالعنصر كائن ، ولم يبق إلا أن نجده، ونحن على ثقة من وجوده ! . أما العلماء الطبيعيون الذين حدثناهم فى شأنه ، فقد زعموا أنها غلطة فى التجارب ، وأشاروا علينا بالحذر . .. ولكننى مقتنعة ، ولست مخطئة ! . .

يالها من دقائق فذة ، فى هذه الحياة الفذة ! . إن السطحيين من الناس، يرسمون فكرة خيالية لاأساس لها، عن المكتشف واكتشافه . فان « لحظة الاكتشاف » لا توجد على الدوام فى كل الأحوال . فان بحوث العالم متصلة اتصالا متتابعاً ، يجعل من العسير عليه : أن يحكم على لحظة النجاح واليقين التى تجىء فجأة ، خطفاً ، كالبرق الذى يبهر الأبصار . . وها هى ذى ماري ، واقفة أمام آلاتها وأجهزتها المنوعة العويصة ، لم تستطع أن تتذوق نشوة الفوز المباغتة ، لأن النشوة ظلت تسرى فيها على مدى أيام من الجهد المضنى ، المشتعل بحمى الرجاء الرائع . . غير أن اللحظة التى أدركت فيها ، وتحققت فى ذهنها ، أنها قد أمسكت بطرف مادة مجهولة ، كانت لحظة مثيرة حتما .

أطلعت أختها الكبرى برونيا على سرها ، فعاشت الأختان مرة أخرى فى ذكرى سنوات الهم ، والغم ، والانتظار ، والتضحية المشتركة ، وعناء حياتهما

طالبتين : حياة ملؤها الحلم الجميل ، مع الإيمان واليقين . .

إنها منذ أربع سنوات فقط كانت قد كتبت :

(... فالحياة ، فيما يلوح ، ليست سهلة ميسرة على أحد منا . ولكن لابد من المثابرة ، ومن الثقة بالنفس . ولابد من الاعتقاد بأن المرء منا موهوب فى شىء ، وهذا الشىء لابد من بلوغه مهما يكن الثمن ...)

وفى رسالة رفعها البروفسور ليبمان إلى أكاديمية العلوم فى جلسة ١٢ أبريل ١٨٩٨ ، تعلن « مارى سكلودوفسكى كورى » :

احتمال وجود عنصر جديد فى معادن البتشبلند Pechblende ، متميز بنشاط اشعاعى قوى ، اقوى بكثير مما يوجد فعلا فى معدن الأورانيوم ...

وكانت هذه أول مرحلة فى اكتشاف الراديوم .

* * *

إن قوة وجدانها قد أظهرتها على أن تلك المادة المجهولة موجودة حتما ، فقررت وجودها . . ولكن بقى عليها أن تقتحم المنطقة المجهولة ، وتكشف عن هذا العنصر الخفى . لابد إذن من تحقيق الغرض بالتجربة ، وعزل المادة . لابد من أن يكون فى وسعها أن تحرر وتنشر : **« انها هنا !.. وقد رأيتها ! »**

وقد تابع بيير كورى ، باهتمام وشغف ، نجاح زوجته السريع فى تجاربها . وساعدها ، دون أن يتدخل تدخلا مباشراً ، بملاحظاته ومشورته . . وأمام الأهمية الباهرة ، التى تحير العقول فى هذه البحوث ، قرر بيير كورى : أن يدع مؤقتاً دراسته فى التبلور ، وأن يضم جهوده إلى جهود مارى ، للقبض على المادة الجديدة العجيبة .

وهكذا ، عندما قضت خطورة عمل هائل بالتعاون ، ظهر العالم الطبيعى العظيم إلى جانب العالمة . . وكان هـذا العالم هو رفيق حياتها .

ومنذ ثلاث سنوات ، جمع الحب بين هذا الرجل وهذه المرأة النادرين . وهاهو ذا الحب يلبى نداء القدر الخفى ، ويقف بينهما ، يأخذ بيديهما ، ويحارب بسلاحهما ، الذى سوف يستل للإنسان علماً جديداً مجيداً ، من ظلمات الجهل الضنين . . .

* * *

لقد تضاعفت الآن قوى الكفاح . فى ذلك « الأتلييه » الرطب بشارع لومون : عقلان ، وأربع أيد ، تبحث عن الجسم المجهول . . ومن الآن فصاعداً سيكون من المستحيل التفرقة بين مالكل منهما فى هذا الجهاد من نصيب . . فكل منهما ، قبل ذلك وبعد ذلك ، قد أتى بالبراهين الدامغة على كفايته ، وعبقريته . فلا نستطيع ، ولا يجوز لنا أن نبحث خلال هذه الأعوام الثمانية ، عما يعود إلى مارى ، وعما ينسب إلى بيير ؛ فهذا مالم يرده الزوجان . . ويكفى أن تقرأ بعـد ذلك رسائلهما إلى الأكاديمية ، لتجدها كلها موقعة منهما معاً . . وفى خلالها تجد : « أن واحداً منا رأى ، وواحداً منا أثبت . . . ونحن نقترح أن تسمى مادة كذا : « **بولونيوم** » . نسبة إلى مسقط رأس أحدنا ... » الخ .

ولم يتغير العيش فى مسكن شارع لاجلاسيير . فمارى وبيير يشتغلان أكثر من العادة ، وهذا هو كل الفرق . . وعندما هبت روائح الصيف . وجدت مارى من وقتها متسعاً لتشترى من سوق الخضر

Halles سلال الفاكهة ، وتصنع منها « مرطبانات مربى » للشتاء ، طبقاً للوصفة المعروفة عند أسرة كورى . . ثم أغلقت نوافذها المطلة على الأشجار المورقة ، وسجلت الدراجتين فى محطة أورليان ، وفعلت ماتفعله ألوف الشابات الباريسيات : سافرت فى الإجازة مع زوجها وابنتها .

غير أن حزناً يصيب مارى ، إذ اعتزمت برونيا أختها ، وزوجها الدكتور كازيمير دلوسكى مغادرة باريس ، والاستقرار فى بولونيا ، وتأسيس مصحة للمسلولين . . وكان وداع مارى وبرونيا مؤثراً جداً . . فان مارى تفقد شقيقتها . صديقتها وراعيتها . . ولأول مرة تحس وطأة المنفى :

من مارى إلى برونيا — فى ٢ ديسمبر ١٨٩٨ :

(... ليس فى امكانك : أن تتصورى الفراغ الذى احدثته فى حياتى . فاننى أفقد بفقدكما ما كنت اتمسك به فى باريس ، ما خلا زوجى وطفلتى . ويخيل الى الآن : ان ليس لباريس وجود ، خارج مسكننا ، والمدرسة التى نعمل فيها .

اسألى مدام دلوسكا الوالدة (حماة برونيا) : أمن الحتم سقى النبتة الخضراء التى تركتموها ؟ وكم مرة تسقى فى اليوم ؟.. وهل هى بحاجة الى كثير من الحرارة والشمس ؟

اننا فى صحة جيدة ، رغم رداءة الجو والمطر والوحل . ايرين تتحول بنتا كبيرة ، وهى شديدة الزهد فى الغذاء ، لا تريد ، بخلاف التابيوكا باللبن ، أن تأكل شيئا ما بانتظام ، حتى ولا البيض . فاكتبى الى : ما هو الغذاء الذى يوافق من كان فى مثل سنها ؟..)

ثم كتبت فى ١٥ أغسطس :

« لقد ظهرت سن ايرين السابعة ، فى فكها الأسفل ؛ الى اليسار .. وهى تقف نصف دقيقة وحدها . ومنذ ثلاثة ايام أخذنا نحميها فى النهير ؛ وهى تبكى وتصيح .. ولكنها اليوم فى حمامها الرابع قد كفت عن النحيب ، وضربت فى الماء بيديها . وهى تلعب مع القط ، وتجرى من خلفه ، صائحة صيحات الحرب .. وصارت لا تخاف الغرباء . وهى تغنى كثيرا ، وتصعد على المنضدة ، من فوق كرسيها ... »

وبعد ثلاثة أشهر ، دونت مارى فى ١٧ أكتوبر ، بمباهاة :

« ايرين تمشى جيدا .. وأصبحت لا تمشى على أربع .. » .

وفى ٥ يناير ١٨٩٩ :

« ايرين لها خمس عشرة سنا !.. »

* * *

وبين هاتين المذكرتين : تلك التى سجلت فى ١٧ أكتوبر أن إيرين أصبحت لاتمشى على أربع ، وتلك التى سجلت فى ٥ يناير ١٨٩٩ أن قد صار لها خمس عشرة سناً ، ثم مذكرة صنع « مرطبانات المربى » ، أثناء ذلك ، من ثمانية أرطال فاكهة ، وسكر ، وتوفيقها فى صنعها ! نجد سطوراً أخرى فى سجلات جلسة ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ بأكاديمية العلوم ، تقول :

« ... أن الأسباب المختلفة ، التى سبق ان عددناها هنا ، تحملنا على الظن بأن المادة الجديدة للنشاط الاشعاعى ، تحوى عنصرا جديدا ، نقترح أن يطلق عليه اسم : « **الراديوم** » ... »

الفصل الثالث عشر

أربع سنوات فى « سقيفة »

لو أننا أخذنا رجلا ، كيفما اتفق ، من بين الجماهير ، ليقرأ خبر اكتشاف الراديوم ، لما شك لحظة فى وجود الراديوم ؛ فإن الناس الذين لم ترهف الثقافة ، ولم يشوه التخصص ، حاسة النقد فيهم : يحتفظون بمخيلة طلقة . . وهم على استعداد لقبول حقيقة غير منظورة ، والافتتان بها ، مهما بدت غير مألوفة . .

أما زملاء كورى وزوجته ، من الطبيعيين ، فقد نقلوا النبأ على طريقتهم من التحفظ . . فان خواص البولونيوم والراديوم تقلب النظريات الأساسية ، التى اعتنقها العلماء منذ أجيال . . وهم ، على شدة اهتمامهم بهذا الاستكشاف العجيب ، كانوا ينتظرون النتائج الحاسمة ، التى تقطع شكوكهم باليقين .

وكان الكيميائيون أشد من الطبيعيين تعنتاً . فالكيميائى هو : « ذاك الذى لا يعتقد بوجود مادة جديدة ، إلا إذا شاهد هذه المادة ، ولمسها ووزنها وفحصها ، وامتحنها بالأحماض ، ووضعها فى زجاجة ، وقرر ثقلها الذرى » ! . .

هذا ، وإلى الآن : **ما من احد راى الراديوم راى العين** ، وما من

أحد عرف وزن الراديوم الذرّى.. ولذلك ظل الكيميائيون مخلصين لمبادئهم وجزموا بأنه : « لا ثقل ذرّى. فلا راديوم . أرونا الراديوم ونحن نصدقكم ! ».

ولكى يظهر بيير ومارى كورى : البولونيوم والراديوم للمتشككين ، ولكى يبرهنا للعالم على وجود « طفليهما » ، ولكى يتمما ، هما نفسهما ، يقينهما ، سيضطران إلى العمل ، منذ الآن ، مدى أربع سنوات .

وكان الهدف هو : الحصول على الراديوم والبولونيوم النقيين. ولعزل هذين المعدنين ، الجديدين ، الثمينين ، من الطفيليات والشوائب ، لابد من مقادير هائلة من المواد الأولية . وهنا تعرض ثلاثة أسئلة كاربة :

– كيف يمكن الحصول على مقدار كاف من المعادن الخام ؟ .

– فى أى مكان تقام التجارب ؟ .

– من أى نقود تدفع نفقات هذا العمل ، التى لابد منها ؟ .

وكانت صخور البتشبلند : « La Pechblende » المعدنية ، التى يختفى فيها عنصرا البولونيوم والراديوم ، من المعادن الثمينة ، التى تستخرج من مناجم « سان جواكيمستال Saint–Joachimsthal » فى بوهيميا ، للحصول منها على أملاح الأورانيوم المستخدمة فى صناعة الزجاج . وأطنان البتشبلند تكلف مالا طائلا ، أكثر بكثير من أن يقوم به بيت كورى ! . . .

ولكن الحذق سيسد مسد المال . فقد جزم العالمان بأن آثار الراديوم توجد فى نفاية البتشبلند . فإذا كان هذا المعدن الخام غالياً ، فإن فضلاته قليلة الكلف ، وإذا عولجت بالمعرفة ، أدت إلى النتيجة نفسها . فاذا سألا أحد زملائهما النمسويين : التوصية على طلبهما لدى

مديرى مناجم سان جواكيمستال ، فقد لايتعذر الحصول على مقدار كاف من تراب هذا المعدن الصخرى ، بأسعار معقولة .

وكان ذلك أمراً بسيطاً ، لكن لابد من خطوره على البال ! .

ثم لابد من دفع ثمن هذه المادة الخام ، ودفع كلف نقلها إلى باريس . وسيكون ذلك . سيدفعه بيير ومارى ، من ادخارهما الضئيل . فليسا من السذاجة بحيث يطلبان اعتمادات رسمية . . . ولو أن هذين العالمين الطبيعيين ، اللذين كانا على وشك اكتشاف هائل ، طلبا معونة جامعة باريس ، أوسألا الحكومة إعانة لشراء تراب البتشبلند ، لضحكت منهما الجامعة ، وسخرت منهما الحكومة ، ولكان خطابهما على أى حال ، قد ضاع فى أضابير بعض المكاتب ، ولابد لهما من الانتظار الشهور الطوال ، قبل أن يتسلما رداً . ربما جاء آخر الأمر بالرفض . فكأن الدولة مازالت تسير على النهج الذى أدى إلى إعدام العالم الكيميائى المشهور : « لافوازييه : Lavoisier » على المقصلة فى عام ١٧٩٤ ، وقد أصدر قتلته الحكم عليه بحجة : «أن الجمهورية ليست فى حاجة إلى علماء » ! . .

ثم أين المكان ؟ .. أيمكن أن يجدا فسحة فى المبانى العديدة الملحقة بالسوربون ؟ ! الظاهر أن لا ! . . فبعد ما بذل بيير ومارى المساعى الكثيرة عادا بصفقة المغبون . من حيث بدآ ، أى إلى مدرسة البلدية للطبيعة والكيمياء ، حيث يدرس بيير ، إلى ذلك «الأتلييه» الذى استخدمته مارى فى تجاربها الأولى ، الذى هو سقيفة من خشب ، كعنبر مهجور ، سقفه من زجاج ، فى حالة زرية ، بحيث يتساقط

منه المطر ! . . وكانت كلية الطب فيما سلف تستخدمه غرفة مشرحة ، ثم نبذته منذ أمد ، إذ وجدته غير لائق حتى باستقبال جثث الموتى ! . وليست أرضه من خشب ! . . بل هى مغطاة بطبقة من القار ، وليس فيه من الأثاث إلا بعض مناضد مطبخ محطمة ، وسبورة سوداء لايدرى أحد سر خيبتها وبقائها هنا ، وموقد قديم من حديد صدىء ! . .

وما كان لعامل بسيط أن يقبل ، راضياً ، على العمل فى مثل ذلك المكان . . غير أن مارى وبيير أقبلا عليه مستسلمين . وكانت ميزته الفريدة ، على سوءاته ، أن لم يفكر أحد فى حرمان الزوجين من اتخاذهما إياه معملا ! .

وبينا كانا يضعان اليد على هذه المستعمرة ، جاءهما الرد من النمسا : أخبار طيبة ! . . فبفضل تدخل البروفسور « سويس Suess » ، عضو أكاديمية العلوم فى فينا ، قررت الحكومة النمسوية ، وهى المالكة لمناجم سان جواكيمستال ، أن تضع مجاناً طنا من المعدن الثمين تحت تصرف هذين « المجنونين » ، اللذين يدعيان حاجتهما إليه ! . . وإذا كانا فى حاجة إلى مقدار آخر أكبر من ذلك ، فيما بعد ، فهى تقدمه إليهما بثمن بخس .

وفى ذات صباح ، تصل عربة نقل ضخمة ، تجرها الخيول ، كتلك التى تنقل الفحم ، وتقف أمام مدرسة الطبيعة والكيمياء بشارع لومون . . . فتهرع مارى وبيير حاسرى الرأس ، وهما فى ميادع (مرايل) المعمل . . . وحافظ بيير على هدوئه المعتاد . أما مارى ، فان رؤيتها الحمالين يفرغون أكياس البتشبلند ، قد حملتها على أجنحة

الفرح ! . . فاندفعت ، فى تطلع ونفاد صبر ، تفتح كيساً ، وتتأمل كنزها الثمين : تقطع خيط « الدوبارة » ، وتكشف القماش السميك ، وتضع يديها فى تراب المعدن الصخرى الخام ، الذى مازال ممتزجاً بإبر صنوبر بوهيميا . . .

إنه هاهنا : يختبئ الراديوم ! . . إنه من هنا سوف تستخرجه مارى . . ولو كان شامخاً كالجبل الأشم . . هذا الشيء الهامد الذى يشبه حصباء الطريق . . .

* * *

فى غرفة سطح ، عاشت مارى سكلودوفسكى ألذ الساعات نشوة فى حياتها طالبة . ولا تلبث مارى أن تتذوق ، فى غرفة مشرحة مهجورة أفراحاً شائقة ! . . فيا لعودة السعد الذى وعدت به امرأة : (لم توعد بمثله ، ولم تعرفه ولا ريب ، امرأة قبل مارى) . . اختارها الله لكل هذا الهناء ، فى كل هذا البؤس والعناء ! . .

فهذه « السقيفة » الخشبية بشارع لومون ، هى آخر ما يصلح للتجارب العلمية . فى الصيف ، نظراً لسقفها الزجاجى ، تغلى كالمرجل . وفى الشتاء لايدرى أهلها : أيتمنون الجمد أم المطر . فإذا أمطرت السماء ، تساقط الماء على الأرض قطرة قطرة ، بدوى خفيف ، يلح ، ويثير الأعصاب ، وتساقط على مناضد العمل ، فى أماكن أشّر العالمان على مواضعها ، ليتحاشياها فلا يضعا فيها أجهزتهما . .

وإذا برد الجو ، تثلج المكان وأصحابه . . فلا علاج . حتى الموقد قد خيب آمالها ، فاذا اقتربا منه ، أصابا بعض الحرارة ، وإذا بعدا

خطوة عنه ، دخلا المنطقة المنجمدة ! . . ومع ذلك ، كان لابد له من التعود والصبر .

وكتبت مارى ، فيما بعد ، فى مذاكراتها :

« ليس عندنا مال ، ولا معمل ، ولا عون للسير بهذا العبء الجليل الثقيل .. فهو بمثابة خلق شىء من لاشىء . واذا كان كازيمير دلوسكى قد وصف سنواتى الدراسية ، بانها : « سنوات البطولة فى حياة أخت زوجتى » .. فانى أستطيع أن أقول دون مبالغة : بأن هذه الحقيقة كانت ، لزوجى ولى ، عهد البطولة فى حياتنا المشتركة . . .

ومع ذلك ، ففى هذا العنبر الزرى العتيق ، قد تتابعت أجمل سنى حياتنا وأسعدها ، موقوفة خالصة للعمل . وكنت أعد فى الغالب طعامنا حيث نحن ، لكيلا نقطع تجربة هامة .. وكنت أحيانا أقضى النهار بطوله ، أحرك سائلا يغلى على النار بعود من حديد ، طوله كطولى ، فاذا جاء المساء ، سقطت تعبا واعياء ... » .

وعلى هذه الحال ، وفى مثل هذه الأحوال ، عمل بيير كورى وزوجته ، من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٢ . . فهما فاعلا بناء ، وهما حمالا حطب ، وهما صاهرا حديد ، وهما نافخا نار ، وهما مكتشفا شىء لم يقر له قرار ! . .

فقد ظل الراديوم حافظاً سره ، لا يريد أن يميط عن نفسه اللثام . أو يعرف بنفسه بنى الإنسان ! . .

وصارت أيام العمل أشهراً ، وتحولت الأشهر إلى سنين . . . ولم يفقد بيير ولا مارى الأمل ، ولم تخنهما الشجاعة ؛ فان هذه المادة التى تقاومهما ، تفتنهما . . وقد جمعت بين الرجل وزوجه ألوان الحنان القلبى ، والهوى العقلى ، فعاشا حياة غير معقولة ، فى مشرحة

مهجورة ، عيشة خلقت له ، وخلقت لهما . . ولم تكن تصلح إلا لهما ! .

وعندما كان بيير وماري يتركان أجهزتهما وتجاربهما لحظة ، ليتحدثا ويستجما ، كان يدور حديثهما حول هذا الراديوم المحبوب.

فتسائل عنه ماري ، بالتطلع الحار الذى يشعر به طفل وُعد بلعبة :

– ليت شعرى كيف تراه سيكون ؟ . . كيف تتصور شكله يا بيير ؟ . .

فيجيبها العالم بلطف :

– والله ما أدرى ! . . غير أنى أتمنى أن يكون جميل اللون ! . .

* * *

ومن عجب أن رسائل مارى كورى إلى أهلها وصحبها ، لاتشير إلى جهادها الرائع العجيب . . فلم تشركهم فيما أصابها من شكوك ، وصعوبات ، ومهالك . . لقد اكتفت بقرينها ، وشريك روحها وعقلها ، تبوح له ، ويبوح لها . فهى ، إليه وحده ، تفضى بأفكارها وأحلامها . . وتكتفى بأن تحيط أهلها بهناءتها ؛ كزوجة وأم . . . فانظر إلى تواضعها وهى تخفى عبقريتها وعظمتها وراء : « امرأة كغيرها من النساء » :

من مارى إلى برونيا ، ١٨٩٩ :

« ان حياتنا تسير على وتيرة واحدة . فنحن نعمل كثيرا ، ولكننا ننام جيـدا ، ولذلك لا تسوء صحتنا . والمسـاء يقضى فى العناية بالبنت . ففى الصباح : ألبسها ثيابهـا ، وأطعمها . ثم أخرج فى العادة فى نحو الساعة التاسعة . ولم يحدث ، خلال السنة كلها ؛ ان ذهبنا الى مسرح تمثيل ، أو حفلة موسيقية ،

أو قمنا بزيارة ما .. ونحن لهذا بخير . ولا تنقصنى الا أسرتى ، ولا سيما أنتم ، ايها الأعزة ، وابى .. فانى كثيرا ما افكر بحزن فى عزلته . وليس لى ما اشكو منه ؛ فالصحة ليست سيئة ، والطفلة تنمو وتكبر ، وزوجى خير زوج يمكن ان تحلم به امراة . وما كنت لأمنى النفس بالعثور على مثله . فهو حقا هبة من عند الله ، وكلما عشنا معا ازددنا حبا ...

عملنا فى تقدم ، ولا ألبث أن ألقى محاضرة فى موضوعه) .

وهذا العمل الذى تكتفى مارى بالإشارة إليه لماماً ، كان يتقدم تقدماً مدهشاً . فمدام كورى تقترب من الهدف . وقد أشفق عليها زوجها من شدة ما تلقاه من إرهاق الذهن بالتفكير ، والساعد بحمل المعادن والأثقال ، والعمل أمام النار ، والتعرض لتيارات الهواء ، لتستخرج مادة نقية ، أنقى من الجوهر ، فى وسط هذه البلوى .. وبدا له أن دون ذلك أهوالا وأهوالا . فنصح صاحبته بعقد هدنة .. فكأنه لم يكن يعرف خلق امرأته . فإن مارى قد قررت عزل الراديوم عن كل مادة غريبة مختلطة به ، ولو كانت كما قلنا جبلا شاهقاً ، وسوف تعزله حتما . فهى تحتقر التعب والمشقة ، ولا يثنى عزمها أنها تحارب المجهول .

وفى ١٩٠٢ ، بعد خمسة وأربعين شهراً من اليوم الذى أعلن فيه كورى وزوجه احتمال وجود الراديوم ، تظفر مارى بالفوز النهائى فى حرب الفناء هذه .. فتوفق فى تحضير : **عشر الجرام من الراديوم النقى** وفى وزن ثقله النوعى ، فتجد وزن الجوهر الجديد ٢٢٥ .

ولم يبق أمام الكيميائيين المتعنتين المتشككين إلا أن ينحنوا أمام الواقع ، أمام عناد امرأة ، عناداً هو فوق طاقة البشر .

لقد أصبح الراديوم موجوداً رسميا .

* * *

الساعة التاسعة مساء . بيير وماري فى منزلها ، بشارع كلرمان ، حيث تختفى فيه ، عن عيون الناس ، حديقة ريفية صغيرة جميلة ، غاية فى الهدوء ، يمكنهما أحياناً التسرب من بابها الخلفى ، على الدراجة نحو الضواحى ، نحو الغابات . .

وقد اعتكف الدكتور كورى (الوالد الشيخ) فى غرفته . وأدخلت ماری بنتها الحمام ، ثم ظلت إلى جانبها حتى نامت ، وإلا لم تكف الطفلة عن مناداتها : « مه ! Mé » ، ذلك النداء الذى سيحل عند إيرين ، وعند إيف ، دائماً ، مهما كبرتا ، محل « ماما » . ولما انتظمت أنفاس الصغيرة ، التى تبلغ أربع سنوات ، واطمأنت عليها أمها ، نزلت إلى جانب زوجها ، الذى كان ينتظرها بفارغ الصبر ، يكاد يغار من طفلته ، لأنه اعتاد وجود ماری إلى جانبه . بحيث لو غابت عنه قليلا ، غاب معها نور العقل وخفقان القلب . .

ولو حدث أن تأخرت ماری لحظة أكثر مما ينبغى إلى جانب بنتها ، فانه يستقبل عودتها بعتب عصبى :

– إنك لاتعنين إلا بهذه الطفلة ! . . .

وطفق يتمشى ببطء ، فى الغرفة ، وجلست ماری تخيط لإيرين ميدعة جديدة .

ولكنها ، فى ذلك المساء ، لم تكن قادرة على المضى فى تركيز انتباهها فى الإبرة والغرزة . . فنهضت ، ثائرة الأعصاب ، ووضعت تطريزها ، وساءلت فجأة :

– ماذا يحدث لو أننا ذهبنا لحظة هناك ؟ ! . . .

وكانت فى لهجتها نغمة التوسل ، التى لم يكن بيير فى حاجة إليها ؛ لأنه هو نفسه كان مثلها يتحرق شوقاً إلى العودة إلى « السقيفة » ، التى تركاها منذ ساعتين . . . فالراديوم ، الفتان كمخلوق حيّ ، الجذاب كالحب ، يدعوهما إلى مسكنه ! . .

فحملا معطفيهما ، وأحاطا الدكتور كورى الوالد بهربهما ، واختفيا . . وسارا على القدمين ، وقد تشابكت ذراعاهما ، وتبادلا كلمات قليلة . . وتابعا طريقهما فى الشوارع المزدحمة بهذا الحى الغريب بمبانيه الصناعية ، وأرضه المهملة . وعماراته المتواضعة ، حتى وصلا إلى شارع لومون ، وعبرا الحوش . . ووضع بيير المفتاح فى القفل ، فكان للباب صرير ، كالذى سمعاه منه ألوف المرات . . وهما الآن فى دولتهما : فى حلمهما . . .

وأهابت مارى بزوجها فى الظلام :

– لا تشعل النور ! . .

ثم أضافت ، فى ضحكة صغيرة :

– أتذكر يوم قلت لى : « أريد أن يكون الراديوم جميل اللون » ! ؟.

وكانت الحقيقة أروع من كل التمنيات الساذجة التى تمناها بيير ومارى منذ بضعة أشهر . . فان للراديوم شيئاً آخر غير « اللون الجميل » فهو بنفسه نورانى مضىء ! . . وفى ذلك العنبر المظلم ، حيث وضعت ذراته الثمينة فى أنابيبها الزجاجية ، الموضوعة – لعدم وجود دواليب – على المناضد ، أو الرفوف المثبتة بالمسامير إلى الحيطان ، أرسلت أضواءها الفوسفورية ، الضاربة إلى الزرقة ، البراقة ، المعلقة فى كبد الظلمات . .

فتمتمت المرأة الشابة :

– انظر ! . . انظر ! . .

وتقدمت باحتراس ، وتلمست مقعداً من القش ، وجلست .

وفى الظلام والسكون . . اتجها نحو الأضواء الشاحبة ، نحو الينابيع الخفية للإشعاعات . . اتجها نحو اكتشافهما ، نحو **الراديوم** !..

وانحنت مارى بجسمها ، وأقبلت برأسها . واتخذت ذلك الموقف الذى كان ، منذ ساعة ، موقفها على حافة مهد طفلتها الجميلة النائمة . . .

ولمست يد رفيقها شعرها الذهبى .

ستظل تتذكر ، مدى العمر ، هذه الديدان الوهاجة . . وتتذكر هذا السحر . .

الفصل الرابع عشر

الحياة الشاقة

كان بيير ومارى يصبحان جد سعيدين ، لو أنهما استطاعا وقف قواهما على كفاحهما الإنسانى المثير ، فى معملهما الحقير .

أسفاً على أنه لابد لهما من مواجهة ضروب أخرى من الكفاح والنضال ، لايخرجان منها ظافرين .

كان على بيير ، مقابل خمسمائة الفرنك فى الشهر ، أن يعطى فى السنة مئة وعشرين درساً ، بمدرسة الطبيعة والكيمياء ، وأن يتولى الإشراف على تجارب الطلبة وتوجيههم . يضاف إلى المجهود المرهق : عمله ومباحثه . وعندما كان الرجل وزوجه بلا أولاد ، كانت خمسمائة الفرنك تقوم بحاجات البيت . . ولكن بعد مولد إيرين ، جاء أجر الخادم ، وراتب المرضع ، فأخلا بالميزانية . فجرد بيير ومارى حملة لإيجاد مصادر رزق جديدة .

فكيف العمل ، وبيير كورى ، كما نعرفه ، يؤثر المضى فى بحوثه بمعمله : المفتوح لعصف الريح وهطول المطر ، على الطعام والمنام ؟!

الحل بسيط ، بسيط جداً . فلو أن بيير عين أستاذاً فى السوربون ، وهى وظيفة تخوله إياها أعماله بداهة ، لأعطى دروساً أقل عدداً

من دروس المدرسة ، ولأضاف من علمه إلى معين الطلاب ، ولرفع من نفوذ الجامعة ، ولمـا طلب من القدر المزيد . فإن مطامحه تتلخص فى : « كرسى أستاذ » ليكسب عيشه ، ويربى شباب العلوم الطبيعية.. و « معمل لتجاربه » مستكمل الاستعداد الكهربى والفنى ، وفيه مكان لبعض المساعدين . . . ويكون فى الشتاء أكثر دفئاً . . .

هذه مغالاة جنونية فى الطموح !.. فإن وظيفة الأستاذية، لن يحصل عليها بيير كورى إلا فى عام ١٩٠٤ ، عندما تهتف الدنيا بأسرها بقدره! أما المعمل فلن يجد إليه أبداً سبيلا . والموت أسرع من السلطات العامة فى طلب عظماء الرجال ! .

وهو ، كعالم ، يجهل الدسائس الحكومية . . ومواهبه ، وصفاته وأعماله لن تغنى عنه شيئاً . لأنه لايستطيع إبراز قيمتها . . وقد قال عنه العالم الشهير هنرى بوانكاريه : « إنه على استعداد دائماً ، ليمحو نفسه أمام أصدقائه ، بل حتى أمام منافسيه » . .

فنى ١٨٩٨ يخلو كرسى « الكيمياء والطبيعة » فى السوربون . فيعزم بيير كورى على المطالبة به . وكان العدل يقضى بتعيينه فيه . . ولكنه لم يكن من تلاميذ مدرسة « النورمال » ، ولا من تلاميذ مدرسة « البوليتكنيك » .. فهو محروم من التأييد الحاسم ، الذى يسند به هذان المعهدان تلاميذهما القدماء . زد على هذا أن اكتشافاته ، منذ خمسة عشر عاماً ، ليست « تماماً » فى حيز « الكيمياء والطبيعة » . . فرفض ترشيحه ! .

ولكن بيير ومارى ليسا باللذين يضيعان وقتهما فى أبهاء الوزارات ،

ودسائس الجامعات . . فرضيا من الغنيمة بالإياب ، دون تذمر ولا شكوى . . على أنهما كانا يريان أن خمسمائة الفرنك ، ليست بالفقر المدقع ! .

من ماری إلى جوزيف سكلودوفسكى — ١٩ مارس ١٨٩٩ :

(لابد لنا من الحرص الشديد ، فليس راتب زوجى بالذى يكفى العيش عن سعة ، وان كان لا يحدث عجزا .

ونرجو ، أنا وزوجى ، أن يتمكن قريبا من الحصول على مهنة ثابتة ، لا لنكفل تغطية نفقاتنا فحسب ، بل لندخر أيضا شيئا يكفل مستقبل طفلتنا . وأريد ان اقدم رسالة الدكتوراه اولا ، قبل أن أبحث عن عمل .

ونحن فى هذه الآونة مشغولان بمعادننا الجديدة ، حتى انى لا أستطيع أن أحضر رسالتى ، وهى حقيقة تقوم على هذا العمل نفسه ، ولكنها تتطلب دراسات تكميلية ، لا طاقة لى بها الآن .

صحتنا جيدة . ولا يشكو زوجى الآن من الروماتيزم مثل ماكان يشكو من قبل . . أما أنا فأصبحت لا أسعل بتاتا ، ولا شىء فى رئتى ، كما دل الفحص الطبى .

ايرين تنمو نموا طبيعيا ، وقد فطمتها فى شهرها الثامن عشر ، ولكننى بالطبع أعطيها منذ حين حساء اللبن . والآن اغذيها بهذ الحساء والبيض الطازج) .

* * *

سنة ١٩٠٠ . . . دفتر الحساب يدل على أن « الخرج » يفوق « الدخل » . وقد سكن الدكتور كورى الوالد مع ولده فى بولفار كلرمان ، وأجر بيته بضاحية « صو » . ومارى تدفع الآن فى بيتها هذا ١٤٠٠ فرنك سنويا . . واضطرت الحاجة ببيير كورى إلى قبول وظيفة « معيد » فى مدرسة البوليتكنيك ! . فزاد الدخل ألفين وخمسمائة فرنك فى السنة .

ثم هبط عليهما فجأة اقتراح غير مأمول . . ولكنه لايجئ من فرنسا ، بل من جامعة جنيف ، التي قدرت هذين العالمين حق قدرهما ، فعرض العميد على بيير كورى كرسي أستاذية الفيزيقا ، براتب عشرة آلاف فرنك ، وراتب إقامة وإدارة معمل مجهز بكل ما يلزم ، مع مساعدين له . . كما منحت مارى وظيفة رسمية في المعمل نفسه . . فياليت هذا العرض قد جاء من جامعة باريس ! . . إذن لطاب العيش ونعمت العقبى ! . .

فيسافران في يوليه إلى سويسرا ، ويعتزمان القبول . . ثم تبدأ الوساوس والتردد : كيف يضحيان بعدة شهور في التحضير للدراسة ويعطلان إلى حين بحثهما في الراديوم ، وليس نقل معدات الاكتشاف من الهينات . . فيرسل بيير كورى : شاكرا ، معتذراً ، مستقيلا . . لقد دفعا هذا الإغراء عنهما ، حباً في الراديوم ، وقررا البقاء في باريس . . ولا يلبث بيير أن يغادر مدرسة البوليتكنيك ، ليتولى التدريس في قسم الـ P. C. N. (الفيزيقا ، والكيمياء ، والعلوم الطبيعية) الملحق بالسوربون . . وشاركته مارى في القيام بنصيبها ، فرشحت نفسها للتدريس بمدرسة النورمال العليا للبنات في سيفر ، قرب فرساى ، فجاءها الرد من العميد :

سيمرتي :

(أتشرف باحاطتك : بأنك ، بناء على اقتراحى ، قد كلفت خلال السنة الدراسية « ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ » ، بمحاضرات الطبيعة للسنتين : الأولى والثانية ، بمدرسة النورمال فى سيفر .
فتفضلى بتقديم نفسك الى الآنسة الناظرة ، ابتداء من يوم الاثنين القادم ٢٩ الجارى) .

توفيقان . . لقد توازنت الميزانية لزمن طويل . . برغم أن بيير قد حرم الكرسى الجديربه فى السوربون . . فما أكثر الوقت الضائع بين معاهد التعليم فى دروس ثانوية !.. وما أبعد الشقة على مارى فى سفرها مرات كل أسبوع إلى سيفر ، فى ترام بطئ بطئاً موئساً ، تنتظره نصف ساعة كاملة ، واقفة على الرصيف ! . . وبيير يجرى من شارع لومون إلى شارع كوفييه ، ليدرس لقسم P. C. N. ثم يعود يجرى إلى المعمل الملعون ! . .

ويرشح نفسه لعضوية المجمع العلمى بإجماع صحبه . . فينال منافسه « أماجا » Amagat ٢٣ صوتاً ، وينال هو ٢٠ صوتاً ، والثالث Gernez ستة أصوات ! . . وما أكثر ما أضاع أيضاً من وقت وزيارات من أجل هذه النتيجة العرجاء ! . .

أما عميد الجامعة الجديد ، بول آبل ، الذى كانت تسمعه مارى سكلودوفسكى وهو يلقى دروسه فى السوربون ، مبهورة ، مأخوذة ، فقد عرف لبيير قدره ، وألح عليه أشد الإلحاح فى قبول ترشيحه لوسام اللجيون دونور . . ويكتب إليه فى هذا ، ويكتب إلى مارى لتؤثر فى زوجها ، وتحمله على القبول . ولكن بيير يرفض ، ويصر على الاعتذار ، ويكتب إليه : بأن حاجته إلى معمل أشد من حاجته إلى وسام ! . .

من جورج سانياك إلى بيير كورى :

(. . . لقد راعنى ما رأيته فى مدام كورى من تغير ملامحه وذبولها . وانى أعلم انها ترهق نفسها فى اكتشافها وتحضير رسالتها . ولكن هذا دلنى على ان قوة مقاومتها غير كافيه لتعيش هذه العيشة الذهنية البحتة ، كما تفعل . .

وما اقوله عنها ، اقوله عنك .. فكلاكما لا يأكل الكفاية .
وقد رايت اكثر من مرة مدام كورى تقضم قطعتين من النقانق « السجق » ، وتبلعهما بفنجان من الشاى · فهل تظن بنية ، مهما يكن فيها من قوة ، لا تتأثر ، مع هذه التغذية غير الكافية ؟ فماذا يصيبك لو أن مدام كورى فقدت صحتها ؟

ان عدم الاكتراث والعناد من جانبها ليسا عذرا لك . وقد تعتذر بأنها ليست جائعة !·· وأنها كبيرة تعرف ما يجب عليها أن تعمله ! · ولكن ، لا ·· انها تتصرف الآن تصرف الأطفال ·· فأنتما لا تلقيان الى الطعام بالا ، وتتناولانه فى أية ساعة ، كيفما اتفق · وفى المساء تتأخران ، حتى تتمرد المعدة من طول انتظارها ، فتأبى العمل مع الأيام .. فلا تتخذا هذا التأخير عادة . ومن الضرورى ألا تخلطا الشواغل العلمية بكل دقائق حياتكما · فدعا الجسم يتنفس ... ولابد لكما من الجلوس براحة أمام المائدة ، تأكلان فى أناة ، وتتجنبان الكلام فى أشياء محزنة ، أو مرهقة للدماغ .. وليس لكما أن تقرآ أثناء الأكل ، ولا أن تتكلما فى علم الفيزيقا ··)

وستحمل لها السنة القادمة حوادث أليمة . فقد حملت مارى ، ثم سقط الجنين . فاسمع إلى بثها وحزنها :

من مارى إلى برونيا – ٢٠ أغسطس ١٩٠٣ :

(... اننى شديدة الجزع من هذا الحادث ، حتى لا اجد الشجاعة للكتابة الى انسان ؛ فقد تعودت انتظار هذا الطفل ، الى حد لا أجد بعده عزاء · فرجائى الكبير أن تكتبى الى فى هذا الأمر ؛ أيرجع الذنب فيه الى ضعفى العام ؟ فاننى لا أخفى عليك أننى لم ادخر لقواى جهدا فقد كنت مو نورة الثقة ببنيتى ، والآن صرت أندم على ذلك ؛ لأننى دفعت فيه ثمنا غاليا· لقد كانت طفلة ، بنتا صغيرة ، فى حالة طيبة ، وكانت حية ·· وأنا فى أشد الحاجة اليها ، وقد تمنيتها ··)

ثم تجيء أخبار سيئة من بولونيا . فقد ولد لبرونيا طفل ثان : صبي ، مات في خلال أيام ، فحدث عن حزن مارى على ماأصاب أختها ، وتساؤلها عن موت ولد كان في تمام العافية ، وماذا يفعل الوالدان ، إذن ، للاحتفاظ بالأولاد ، وتربيتهم ، أكثر مما فعلا ؟!... وهي لاتكاد الآن تنظر إلى ابنتها إيرين ، حتى ترتجف هلعاً عليها . .

وألح الروماتيزم على بيير كورى ، وتركه في حالة يرثى لها . فكان يئن طوال الليل ، وامرأته الوالهة ساهرة إلى جانبه . .

وهي ، في هذا الويل كله ، تؤدى دروسها في سيفر ، وكلاهما يتلهف على العودة إلى المعمل . . ففي مرة ، مرة واحدة ، لم يستطع بيير صبراً : فصدرت منه هذه الشكاة الخافتة :

– إن الحياة التي اخترناها شاقة عسيرة . .

فحاولت مارى أن تحتج ، ولكنها لم تستطع إخفاء جزعها . . فإذا كان بيير قانطاً إلى هذا الحد ، فهل خانته قواه ؟ . . أيكون مريضاً بداء عضال ؟ . . إن فكرة الموت كانت تتردد في الأشهر الأخيرة حول هذه المرأة . . فصاحت :

– بيير ! . .

فدهش العالم ، والتفت إلى مارى التي نادته بيأس ، وصوت مختنق ! . وسأل :

– ماذا حدث ؟ . . ماذا أصابك يا حبيبتي ؟

– بيير . . . إذا اختفى أحدنا فلا ينبغي للآخر أن يعيش بعده . . فليس في وسع أحدنا أن يعيش دون الآخر . . أليس كذلك ؟ . .

فهز بيير رأسه . . فان كلمات المرأة ، كلمات الزوجة العاشقة ، التي نسيت ، لحظة من دهرها ، رسالتها ، قد ذكرته بأن العالم لايحق له هجر العلم : هدف حياته . .

فتأمل ، هنيهة ، وجه مارى ، المربد من الأسى . . ثم قال بحزم :

– أنت مخطئة . فمهما يكن من أحداث ، ولو أصبحنا جسداً بغير روح ، فلا بد من المضى فى العمل والكفاح . . .

الفصل الخامس عشر

رسالة الدكتوراه

وحديث خمس دقائق

ماذا يهم العلم ، من أن يكون خدمه وسدنته أغنياء أو فقراء ، سعداء أو أشقياء ، أصحاء أو مرضى ؟.. فالعلم إنما يوقن بأنهم خلقوا : للبحث ، والاستقراء ، والاستكشاف ، يظلون يبحثون ويجدون إلى أن تخونهم قواهم ، وتحين ساعتهم . وليس فى مقدور العالم أن يقاوم استعداده أو يكافح مواهبه وإلهامه . وهو ، حتى فى أيام « القرف » والتمرد ، تنساق به رجلاه ، دون وعى منه إلى أجهزة معمله .

فلا عجب إذن من ازدهار أعمال بيير ومارى ، ونجاحها خلال هذه السنين الشاقة العسيرة .. هاهو ذا استكشافهما « النشاط الاشعاعى » قد سطع ، وبهر العقول والأنظار فى حين قصم ، شيئاً فشيئا ، ظهرى العالمين اللذين وهباله الحياة .

فنرى أنهما ، من سنة ۱۸۹۹ إلى ۱۹۰٤ ، قد نشرا — معاً ، أو على انفراد ، أو مع زملاء لهما — اثنين وثلاثين بحثاً علميا .. ولم يلبث اكتشافهما ، الذى ولد فى فرنسا ، أن اجتاح الخارج بسرعة .. فانهالت منذ ۱۹۰۰ ، من : انجلترا ، وألمانيا ،

والنمسا ، والدانمرك ، الرسائل والاستعلامات الموقع عليها من أعظم أساطين العلم وفطاحله ومعنونة بشارع لومون . . .

وعكف العلماء ، فى جميع بقاع **الأرض** المتحضرة ، على دراسة الراديوم وخواصه ، وتأثيره الذى راعهم ، إذ ظهر أن إشعاعه أقوى من إشعاع الأورانيوم **بمليونى مرة** ! . . واتضح أن تأثيره فى كل ما يعرض له ، أشد من تأثير السحر فى الزمن الحالى ! . . فهو لايبالى بالورق الأسود ، الذى يحجب اللوحات الفوتوغرافية ، فيطبعها بما يريد . وهو يحوّل الجو موصلا كهربيا ، وبذلك يفرغ الألكترسكوب (مقياس الكهرباء) عن بعد . . وهو يصبغ بلون البنفسج الأنابيب الزجاجية ، التى تتشرف بأضوائه . وهو يقضم ، شيئاً فشيئاً ، الورق أو القطن الذى يلف فيه ، ويحوله إلى مسحوق ! . . وهو – كما سبق أن قلنا – نورانى مضىء ، حتى لتمكن المطالعة على ضوئه ليلا ! . ولكن ليس هذا آخر عجائب الراديوم . . فهو يمنح الضوء أيضاً لأجسام مظلمة ، كان يستحيل عليها أن تضىء بنفسها ، مثل الماس. زد على هذا أن الراديوم له صفة « العدوى » . . ينتقل كشذا العطر ، ويعدى كالمرض ! . . ويستحيل أن يُترك جماد ، أو نبات ، أوحيوان أو إنسان ، أمام أنبوبة راديوم ، دون أن يحدث فيه فى التو « تفاعل نورانى » محسوس ، يمكن آلة دقيقة أن تسجله . وكانت هذه العدوى التى تدخلت فى نتائج التجارب الدقيقة ، عدوا لدوداً مقيما ، لبيير ومارى كورى .

وكتبت مارى :

« لابد من اتخاذ احتيـاطات خاصـة . فاذا أردنا الاسـتمرار فى عمليـات المقـاييس الدقيقة ، فان مختلف الأدوات المسـتعملة فى معمل الكيمياء ، وتلك التى تخدم تجارب الفيزيقا ، لا تلبث أن تتـأثر بالاشعاع الـكهربى ، وتصبح كلهـا اشعاعية ، فتؤثر فى الزجاج الفوتوغرافى ، رغم الورق الأسود . ويصبح التراب ، وهواء الغرفة والملابس : ذوات اشعاع .. ويتحول هواء الغرفة موصلا كهربيا . وقد ضـاق بنا الحـال فى المعمل الذى نشـتغل فيه ؛ اذ لم يبق لنا جهاز واحد معزول ، غير متاثر بالراديوم !.. »

وإنا لنجد ، بعد وفاة بيير ومارى كورى بزمن طويل ، أن كراسات مذكراتهما العلمية مازالت متأثرة ، فى تضاعيف أوراقها ، بهذا « التفاعل » الخفى الإشعاعى العجيب ، حتى ظلت تؤثر أيضاً ، بعد ثلاثين أو أربعين عاماً ، فى أجهزة الموازين التى تكون منها دانية !..

وقد يلوح الراديوم ، لمن لايعرفه ، جسما جامداً ، فى حين أنه قوة هائلة : خالقة ، محطمة ، قاتلة ، تسبب المـآسى والانتحار ، وتحول الأقدار ، وينشأ عنها الحياة والموت .

ولم يبق ، منذ اكتشاف الراديوم ، أمام الفلاسفة ، إلا أن يبدأوا ، من جديد ، فلسفتهم .. كما بدأ العلماء ، من جديد ، علمهم !..

* * *

أما آخر عجائب الراديوم ، وأشـدها تأثيراً فهو مساهمته فى خير الإنسانية وسعادة البشر . فانه سيصبح حليفاً لهم على داء السرطان الوبيل .

فقد أعلن العالمـان الألمـانيان : ولكخوف Walkhoff ، وجيزل Giesel فى عام ١٩٠٠ ، أن المـادة الجديدة لها تأثيرات

فيزيولوجية : فبادر بيير كورى ، غير مكترث بالخطر ، إلى تعريض ذراعه ، على الفور ، لتأثير الراديوم . فلم يلبث أن ظهر الضرر ، الذى فرح به ، وسجل عوارضه فى رسالة الأكاديمية ، وصفه فيها :

« أحمر الجلد على سطح ستة سنتيمترات مربعة . وكان أقرب فى الشكل الى الاحتراق ، ولكنه لم يتسع ، بل ارتفع ، بحيث كون فى اليوم العشرين قشرة ، ثم جرحا ربطته . وفى اليوم الثانى والأربعين ، بدأت طبقة الجلد الظاهرة تتكون فى الأطراف ، وتتجه الى الوسط ، وبعد اثنين وخمسين يوما من عمل الأشعة ، كان لا يزال باقيا ، موضع الجرح ، مسطح سنتيمتر مربع واحد ، بحالة جريحة ، اتخذت لونا داكنا ، يدل على تأثر أشد عمقا .

زد على هذا أن مدام كورى ، وهى تنقل أنبوبة صغيرة مختومة ، تحتوى على بضعة أجزاء من عشر الجرام من هذه المادة ، قد أصيبت باحتراقات كهذه ، على الرغم من أن الأنبوبة الصغيرة كانت موضوعة أيضا فى علبة معدنية رقيقة !..

وفضلا عن هذه التفاعلات الحية ، فقد أصابت أيدينا ، اثناء البحوث التى قمنا بها فى تحضير عناصر الراديوم ، تفاعلات منوعة . فقد أصيبت الأيدى بتقشف عام . وأطراف الأصابع ، التى أمسكت الأنابيب ، أو الكبسول الذى يحوى المادة ، نالتها احيانا أوجاع أليمة جدا . واصيب أحدنا (يقصد بذلك نفسه او مدام كورى) بالتهاب فى أطراف الأنامل ، استمر خمسة عشر يوما ، وانتهى بسقوط الجلد ، ولكن الاحساس المؤلم لم ينته تماما ، برغم مضى شهرين .. »

هذا ، وكان زميلهما وصديقهما البروفسور هنرى بكرل ، يحمل فى جيب صدريته أنبوبة زجاجية تحوى بعض الراديوم ، فأصيب أيضاً باحتراق (لم يكن يتمناه !) ... فبهت من العجب ،

ومن الغضب ، وهرول إلى دار كورى ، يشكو لهما ما أصابه من مآثر ولدهما المروع ! . . وختم كلامه بقوله :

– إن هذا الراديوم ! . . أحبه ، ولكنى حانق عليه ! . .

وبهر بيير كورى من شدة سلطان إشعاع الراديوم ، فجربه فى الحيوان مع بعض الأطباء البارزين ، كالأساتذة بوشار وبلتازار . فوصلوا إلى نتيجة تقطع بأن : الراديوم يفتك بالخلايا المريضة ، فيشفى : القرح الجلدية ، والدمامل ، وبعض أشكال السرطان . واتخذ هذا العلاج اسم كوريتيرابى Curiethérapie وكان كبار الأطباء الفرنسيين (أمثال : دولوس ، وويكهام ، ودمونيتشى ، ودجريه ..الخ) يطبقونه بنجاح فى علاج المرضى ، باستعارتهم أنابيب الراديوم من مارى وبيير كورى . كما استخدمه الدكتور دولوس ، فى مستشفى سان لويس بباريس ، فى معالجة البشرة ، فاتخذت جلداً جديداً ! . .

إذن ، فالراديوم نافع نفعاً مدهشاً ، رائعاً ، لاحد له ! . . وقد تكهن له الثقات بنتائج مباشرة ، نافعة ، لاغنى عنها للإنسانية .

وعلى ذلك ستنشأ « **صناعة الراديوم** » ! . .

وأشرف بيير ومارى على بداءة هذه الصناعة . وحضرا بأيديهما – ولاسيما بيدى مارى – أول جرام من الراديوم . وذلك باستخراجه من ثمانية أطنان من تراب البتشيلند ، فى عنبر مدرسة الطبيعة والكيمياء طبقاً لاختراعهما .

وفى ١٩٠٤ خطر لرجل صناعى فرنسى ، همام ذكى ، يدعى : « أرميه دى ليل Armet de Lisle » : أن يؤسس مصنعاً لعمل

الراديوم ، وتقديمه للأطباء ، وعرض على بيير ومارى معملا متصلا بمصنعه ، يمكنهما فيه أن يقوما ، فى راحة ودقة ، بأشغالهما . فاتخذا لهما مساعدين لتكوينهم وتدريبهم .

أما مارى ، فلن تفترق عن أول جرام من الراديوم رأى النور على يديها ، بل ستهديه فيما بعد إلى معهدها . ولم يكن لها ، ولن يكون ، من ورائه ، إلا جهدها الشاق المضنى . وعندما ينهار ذلك العنبر الخشبى ذو السقف الزجاجى المحطم ، تحت فؤوس الهدم ، وعندما تغيب مدام كورى عن هذا العالم ، سيظل هذا الجرام من الراديوم : الرمز المشع ضياء ونوراً لعمل عظيم ، ولجهاد بطلين من صنّاع التاريخ .

أما الجرامات الأخرى ، فسوف تتخذ قيمة أخرى : قيمة ذهبية. فقد أصبح الراديوم صناعة ، ثم سلعة تعرض للبيع ، كأثمن مادة وأغلى بضاعة عرفت فى عالم التجارة . وقد قدر الجرام الواحد منه بسبعمئة الف فرنك ذهباً ، أى ما يعادل ثمانية وعشرين ألف جنيه مصرى ! ! !

* * *

إذا كانت أعمال العلماء فى الراديوم مخصبة مثمرة فى مختلف البلدان ، وإذا كانت قد خلقت صناعة جديدة ، وإذا كانت التجارب الأولى من تطبيق الأشعة فى معالجة أبشع الأمراض ، قد كللت بالنجاح فذلك كله كان ، لأن امرأة شابة شقراء ، حملها التطلع المعروف فى النساء ، والتحمس للعلم المشهود فى الرجال ، على اختيار هذا الموضوع لرسالتها . . وما ذلك إلا لأنها عرفت كيف تتوسم ، وتتكهن بما فى « البتشبلند » من عنصر جديد ، ولأنها ضمت جهودها إلى جهود

زوجها ، فأثبتت وجود هذا العنصر ، ولأنها وفقت بعد ذلك بعزل الراديوم ، فصار نقيا ، كأثمن جوهر فى الوجود ، منذ وجدت الأرض ومن عليها .

ها هى ذى : المرأة الشابة ، يوم ٢٥ يونيه ١٩٠٣ ، أمام سبورة سوداء ، فى قاعة صغيرة ، « قاعة الطلاب » ، فى السوربون ، يصلون إليها من سلم حلزونى ضيق منزوٍ . وقد مضى خمس سنوات على مارى منذ تهجمت على موضوع رسالتها ، ولكن شواغل استكشافها الهائل قد أخرت طويلا امتحان الدكتوراه ؛ لأنه لم يكن لديها من الوقت ما يكفى لاستجماع عناصره . وها هى ذى اليوم تقدم نفسها ، وتقف أمام قضاتها ! . . وكان موضوع الرسالة : « Recherches sur les substances radioactives » ، قدمت نصه ، كالمتبع إلى ممتحنيها الثلاثة ، وعلى رأسهم البروفسور ليبمان . .
– وياللحادث العجيب الذى لايصدق ! – فقد اشترت لنفسها ثوباً جديداً ، أسود ، شاملا « من صوف على حرير » ! !.. أو بالأحرى أن أختها برونيا ، التى جاءت إلى باريس لحضور مناقشة الرسالة ، قد عيرت أختها بثيابها اللامعة ، وأخذتها رغم أنفها إلى محل ، وتفاوضت مع البائعة ، واختارت القماش . وأشارت ببعض التصليح ، دون أن تهتم بأختها الصغرى ، السارحة فى ملكوت العلوم ، تنظر إليها كاسفة البال ! . .

وفى صباح يوم من شهر يونيه ، ضاحى الشمس ، مشهود الذكرى ، ألبست برونيا أختها مانيا ، بالعناية والتأثر ، اللذين شعرت

بهما منذ عشرين عاماً ، فى ١٨٨٣ ، يوم ألبست صغيرتها « مانيوزيا » ثوباً أسود كهذا الثوب ؛ إذ كان عليها أن تتقبل ، من يد موظف روسى ، المدالية الذهبية لمدرسة شارع كاركوفيا . . .

وقفت مدام كورى معتدلة القامة . . وعلى محياها الشاحب ، وعلى جبينها العريض المقبب ، الذى كشف عنه شعرها الأشقر المرفوع كالخوذة ، ظهرت غضون دقيقة جدًّا ، تدل على آثار المعركة التى خاضتها ، وكسبتها . . وتزاحم الطبيعيون والكيميائيون بالمناكب ، فى الغرفة التى تملؤها الشمس . . فجاءوا بمقاعد أخرى . . فان الأهمية الاستثنائية لموضوع الرسالة التى ستناقش هنا ، قد جذب رجال العلم. وأخذ الدكتور كورى الشيخ ، وبيير كورى ، وبرونيا ، أماكنهم فى آخر القاعة ، محشورين بين الطلاب . . وعلى مقربة منهم لفيف من الفتيات اليانعات يثرثرن ، هن تلميذات مارى بمدرسة سيفر ، جئن يصفقن لمعلمتهن . . .

وكان الممتحنون الثلاثة ، فى ثيابهم الرسمية ، جالسين وراء منضدة طويلة من البلوط.. فتناوبوا توجيه الأسئلة إلى طالبة الدكتوراه. وكانت مارى تجيب بصوت رقيق ، وفى يدها قطعة من « الطباشير » . ترسم بها أحياناً على السبورة تفسير بحوثها ، فحولت الاصطلاحات العلمية الباردة ، إلى صورة حماسية حارة : صورة أعظم اكتشاف فى العصر . . .

والعلماء لايجنحون إلى الذلاقة أو السفسطة . . فكذلك يمنح قضاة كلية العلوم مارى سكلودوفسكى كورى : درجة **الدكتوراه** ،

بكلمات غير لامعة ، تجعل لها بساطتها المطلقة عند قراءتها الآن ، بعد ثلاثين عاماً أو أربعين عاماً ، قيمة مؤثرة عميقة . . وقد نطق البروفسور ليمان ، الرئيس ، بالعبارة المقررة :

– إن جامعة باريس ، تمنحك لقب **دكتور** فى العلوم بدرجة **« مشرف جداً »** .

وعندما خفت تصفيق الحضور أضاف بمودة ، وبصوت الشيخ الجامعى الحيي :

– وإنى ، بإسم المحلفين ، ياسيدتى ، أعبر لك عن تهانئنا . . .

وهذه الامتحانات الصارمة ، وهذه الحفلات الجدية المتواضعة التى تجرى على وتيرة واحدة ، للباحث العبقرى ، وللعامل المجد الأمين ، على سواء لاتدعو إلى السخرية . . .

فهى لها أسلوبها ، ولهـا جمالهـا ، ولهـا جلالهـا . . .

* * *

وقبل مناقشة الرسالة بقليل ، وقبل تقدم صناعة الراديوم فى فرنسا وفى الخارج ، اتخذ كورى وزوجه قراراً لم يعلقا عليه شأناً كبيراً ، لكنه سيؤثر تأثيراً كبيراً فيما بقى من حياتهما . . فإن مارى ، بتنقيتها « البتشبلند » وبعزلها الراديوم منه ، قد اخترعت فنا ، وخلقت طريقة لصنعه . . واستعدت بلدان كثيرة ، فى مقدمتها : أمريكا ، والبلجيك ، لاستغلال هذا الاكتشاف . ولم تكن المصانع لتستطيع إنتاج هذا « المعدن الخرافى » ، إلا إذا عرف مهندسوها سر تحضير الراديوم النقى . . .

فبسط بيير هذه الشؤون لزوجته ، فى صبيحة يوم أحد ، فى بيتهما الصغير بشارع كلرمان ؛ فقد آن الكلام فى أمر هذا الكنز النفيس ، الذى لانزاع فى تأثيره ، وانتشاره ، وسلطانه . . وقال :

– ونحن الآن بازاء حلّين : إما أن ننشر ، دون قيد ولا شرط ، نتائج بحوثنا ، بما فى ذلك طريقة تنقية الراديوم . . وإما أن نعد أنفسنا كأصحابه ، باعتبارنا « مخترعى الراديوم » . وفى هذه الحالة ، قبل أن ننشر طريقة تحليل البتشبلند ، لا بد لنا من أن نسجل فنية الابتكار ، لنحتفظ لأنفسنا حقوق صنع الراديوم فى العالم بأسره .

ففكرت مارى بضع لحظات . . ثم قالت :

– هذا مستحيل . إنه يكون مخالفاً للروح العلمى .

فأشرق وجه بيير ، ولكنه ، إراحة لضميره ، عاد يقول :

– أظن ذلك . . ولكنى لا أريد أن نتخذ هذا القرار خبط عشواء . فإن حياتنا عسيرة شاقة . . وهى تنذرنا بالبقاء كذلك أبدا . ولنا طفلة . وقد نرزق أولاداً سواها . . فهذا « التسجيل » لهم ، ولنا ، هو عبارة عن مال كثير : عن غنى هائل . . فهى الراحة المكفولة مدى العمر ، وهى الكف عن عيش الكفاف . . .

ثم أشار ، بضحكة صغيرة ، إلى الشىء الوحيد الذى يعز عليه التخلى عنه :

– ويمكن أن يكون لنا أيضاً معمل جميل !

فحدقت مارى بعينيها . . ووزنت فكرة الربح والمكافأة المادية ، ثم لم تلبث أن نبذتها ، قائلة :

– إن علماء الطبيعة ينشرون دائماً بحوثهم بحذافيرها . . فاذا كان لاكتشافنا مستقبل تجارى ، فهذا من المصادفة المحضة التى لايجوز لنا أن ننتفع بها . والراديوم سيستخدم فى مصلحة المرضى . . فيبدو لى أنه من المحال أن نكسب من وراء هذا . . »

ولم تبذل جهداً فى إقناع زوجها . . فهى تحزر أنه لم يذكر تسجيل الاختراع إلا خلاصاً من الشك . . والكلمات التى نطقت بها ، عن يقين ، تعبر عن عواطفهما معاً . عن إيمانهما بواجب العالم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

وكرر بيير ، فى وسط السكون ، كالصدى ، عبارة مارى :

– لا . . إنه يكون مخالفاً للروح العلمى .

وتنفس الصعداء . وأضاف ، وكأنه قد سوى مسألة ثانوية :

– سأكتب إذن هذا المساء إلى المهندسين الأمريكان بكل التفاصيل التى يطلبونها .

وكتبت مارى ، بعد عشرين سنة :

« لقد قرر بيير كورى ، بالاتفاق معى ، الا نحصل على أى نفع مادى من اكتشافنا : فلم نسجله . وقد نشرنا ، دون تحفظ ما ، نتائج بحوثنا ، وكذلك طرق تحضير الراديوم . وفوق ذلك أعطينا كل من يهمهم الأمر المعلومات التى طلبوها . وكان ذلك عملاً خيرا ، أفاد صناعة الراديوم ، التى أمكن تحسينها . مطلقة من كل قيد ، فى فرنسا بادئا ، ثم فى الخارج ، ومقدمة للعلماء والأطباء ماهم فيه بحاجة اليه من موادها . وهذه الصناعة ما زالت تستخدم الى اليوم ، الطريقة نفسها التى رسمناها تقريبا دون تغيير .. »

* * *

وبعد ربع ساعة من ذلك الحديث القصير ، فى صباح يوم أحد ، اجتاز بيير ومارى ، على دراجتيهما العزيزتين ، باب « جانتى : Gentilly » مسرعين ، واتجها نحو غابات « كلامار : Clamart » .

لقد اختارا ، وإلى الأبد ، بين الفقر والثراء . . وفى المساء عادا متعبين ، وأذرعهما محملة بأزهار البرية وطاقات المروج . .

الفصل السادس عشر

العــدو

كانت سويسرا أول دولة عرضت على كورى وزوجه مركزاً جديراً بمكانتهما ، فى جامعــة جنيف . . . وكانت انجلترا أول دولة قدمت إليهما الآلاء والتكريم ؛ إذ جاءتهما ، فى يونيه ١٩٠٣ ، دعوة رسمية ، من المجمع الملكى الشهير ، ليلقى بيير كورى أمامه محاضرة فى الراديوم . فقبل العالم . وسافر هو وزوجته إلى لندن. فاستقبلهما وجه صديق كريم ، هو اللورد كلفن . وكان فخوراً بهما وببحوثهما ، فاستصحبهما إلى معمله ، وعرف بهما مساعديه ، بغبطة مؤثرة ، وأظهرهم على الهدية العظيمة التى جاءتهم من باريس : ذرات ثمينة من الراديوم ، موضوعة فى أنبوبة من زجاج ! . .

وفى مساء المحاضرة ، جلس اللورد كلفن إلى جانب مارى : أول امرأة سمح لها بالدخول إلى حرم جلسات المجمع الملكى . وفى القاعة ، التى اختنقت بزحام انجلترا العالمة ، كنت ترى بين الحضور : السير ويليام كروكس ، ولورد رالى ، ولورد أڤبرى ، وسير فردريك براموبل وسير أوليفر لودج ، والبروفسور ديوار ، ورأى لانكستر ، وأيرتون ، وس. ب . تومسون ، وآرمستر ونغ .

تحدث بيير بالفرنسية ، فى أناة ، وبسط خواص الراديوم . ثم طلب إطفاء الأنوار . وبدأ يعرض بعض تجارب مدهشة . تحمس لها الحضور وكان لها أثرها من الغداة . فأرادت لندن كلها أن ترى ، عن كثب ، أبوى الراديوم . فانهالت دعوات العشاء والمآدب على « البروفسور بيير ومدام كورى » . . فحضرا هذه الاستقبالات الباهرة ، واستمعا إلى الثناء عليهما ، وشرب نخبهما . . وكان بيير ، أثناء ذلك ، كأنه « فى واد آخر » ، رغم أدبه الجم ، لايكاد يدرك أن كل تلك التهانئ موجهة إليه ! . . وكانت مارى فى حرج وضيق من ألوف النظرات المصوبة إليها ! إلى : ذلك « الحيوان النادر » ، والظاهرة العجيبة الشاذة فى شخص امرأة عالمة بالطبيعة ! . .

وكانت فى ثوب قاتم ، لايكاد يبدى من جسمها شيئاً . وكانت يداها ، اللتان أفسدتهما الأحماض والإشعاعات ، تبدوان للعيان . وكل ما حولها صدور عارية ، وظهور مجردة ، ونحور تتلألأ بأجمل ما فى الإمبراطورية من قلائد وعقود . طفقت مارى تتأمل بلذة خالصة هذه الحلى . ولاحظت ، بدهشة أيضاً ، أن زوجها ، وهو عادة شارد الذهن ، قد سمرت عيناه فى هذه القلائد المضيئة ، والعقود الساطعة بهاء . فقالت له ، وهما يأويان إلى فراشهما بعد السهرة :

ــ ما أروع ما رأينا ! . . إننى ماتخيلت قط وجود مثل هذه الجواهر ! .

فراح العالم يضحك ويقول :

ــ تصورى : أننى ، أثناء العشاء ، لم أدر بماذا أشغل نفسى ،

فوجدت لعبة أتسلى بها وهى : أن أحصى عدد المعامل التى كان يمكن تشييدها بهذه الأحجار الكريمة التى تحملها النساء حول نحورهن ! ! ..
ولما دعيت للخطابة ، كنت قد وصلت إلى عدد من المبانى كعدد الأفلاك والنجوم ! . .

وعادا بعد بضعة أيام إلى باريس ، إلى السقيفة ! بعدما وثقا صداقات قوية مع أساتذة فطاحل . . وظهر وفاء الإنجليز لمن يعجبون بهم ، فى شكل خطاب ، وصل فى نوفمبر ١٩٠٣ ، يعلن إليهما أن الجمعية الملكية بلندن ، هى أيضاً ، عبرت عن تقديرها بجائزة من أعلى الدرجات : « مدالية دايفى » .

وكانت مارى مريضة ، فسافر زوجها وحده لحضور الحفلة ، وعاد حاملا من انجلترا مدالية ثقيلة من الذهب ، حفر عليها اسماهما . فلم يجد مكاناً لها عندهما أصلح من أن يعهدا بها إلى بنتهما إيرين ، التى أصبح ذلك اليوم عندها ، فى مدى عمرها البالغ ست سنوات ، أحفل الأيام ! . . وكان العالم يقول لأصدقائه الذين يزورونه ، مشيراً إلى البنت الصغيرة ، وهى تلهو بلعبتها :

— إن إيرين تعبد قرشها الكبير الجديد ! . .

إن روعة هاتين الرحلتين القصيرتين ، والبنت اللاعبة بأسطوانة ذهبية ، هما بداءة « السمفونى » ، التى جعلت ، الآن ، تدنو منهما ، وتقترب بنغماتها القوية المشجية .

* * *

وسنسمع لحناً جديداً رائعاً ، هذه المرة : من جانب السويد . ففى الاجتماع العام المشهود يوم ١٠ ديسمبر ١٩٠٣ ، أعلنت أكاديمية

العلوم بستوكهلم رسميا : أن جائزة نوبل للطبيعة ، عن السنة الجارية قد منحت مناصفة بين هنرى بكرل ، ومسيو ومدام بيير كورى ، لاكتشافهما العظيم .

ولم يحضر الحفلة الرجل ولا زوجه . فتلقى وزير فرنسا من يد ملك السويد ، نيابة عنهما : الدبلوم ، والمدالية الذهبية . . وذلك لمرضهما ، وشدة انهماكهما فى العمل ، مما اضطرهما إلى أن تراجعا أمام رحلة طويلة كهذه ، فى قلب الشتاء ، تتطلب ٤٨ ساعة بلا توقف . . ونرى مارى تعلن النبأ السعيد فى بساطة إلى أخيها جوزيف وتقول إنها لاتدرى متى يقبضان النقود ! . . وصدور هذه الكلمات من امرأة رفضت الثروة بمحض اختيارها ، يدل على معنى فريد . فالشهرة الصاعقة ، وتمجيد الصحف والجماهير ، والدعوات الرسمية ، والجسر الذهبى الذى مدته أمريكا لهما ، لم يكن هذا كله عندها شيئا مذكورا ، بل كان سبباً للشكوى المرة ! . . أما جائزة نوبل . فليست عندها إلا مكافأة سبعين ألف فرنك ذهباً ، جزاء عملهما ، فهى محتمة القبول ، لاتتعارض مع « **الروح العلمى** » . ثم هى فرصة نادرة لتخليص بيير من حصص التدريس ، وإنقاذ صحته !

وفى ٢ يناير سنة ١٩٠٤ ، وصل « الشيك » المبارك إلى فرع البنك فى شارع جوبلان ، حيث يودع الزوجان ضئيل ادخارهما . فاستطاع بيير أخيراً أن يترك التعليم فى مدرسة الطبيعة والكيمياء . واتخذا لهما مساعداً على نفقتهما ، بدلا من انتظار أشباح الجامعة الموعودين ! . . وأرسلت مارى ، على سبيل القرض ، إلى أختها برونيا وزوجها الدكتور

كازيمير دلوسكي ، عشرين الف كورون نمساوى ، لتيسير بداءة مصحتهما . أما بقية الثروة الصغيرة ، التى لاتلبث أن تتضخم بجائزة أوزيريس التى منحاها : خمسين ألف فرنك ، فقد قسمت بين قراطيس فرنسية ، وسندات بلدية فارسوفيا .

ونجد فى دفتر حسابات مارى بعض نفقات أخرى : كهدايا نقدية وقروض إلى شقيق بيير ، وأخوات مارى ، وإعانات لجمعيات علمية ، وهبات لبعض الطلبة البولونيين ، ولإحدى رفيقات الصبا ، أو خدم المعمل ، أو طالبات فى مدرسة معلمات سيفر . بل إن مارى لتذكر معلمتها الفرنسية الأولى الفقيرة جداً ، التى كانت تذوب شوقاً لرؤية بلادها ، فترسل إليها تذكرة من فارسوفيا إلى باريس ، ومن باريس إلى دبيب مسقط رأسها ، وتستقبلها فى بيتها ، فتغرورق عينا السيدة الفاضلة من شدة التأثر لهذا الفرح غير المنتظر ! . .

وكانت حسنات مارى فى صمت وسر ، لم تندفع فى بذخ ، ولم تطع النزوات . وقررت أن تساعد ، مدى حياتها ، أولئك الذين هم فى حاجة إليها . . . وأخيراً تفكر فى نفسها ! . . فتدخل غرفة حمام « عصرية » بمنزل شارع كلرمان ، وتجدد ورق غرفة صغيرة . . ولكن لم يخطر لها ، بمناسبة جائزة نوبل ، أن تشترى لنفسها قبعة جديدة ! . . وإذا كانت قد ألحت على بيير ، فى أن يغادر مدرسة الطبيعة ، فإنها احتفظت لنفسها بمهنة التدريس فى سيفر . . فهى تحب تلميذاتها ، وتحس من القوة مايمكنها من الاستمرار فى التعليم ، الذى يكفل لها راتباً ! .

* * *

ونشأ سوء تفاهم دائم فرّق بينهما وبين الجمهور الذى أولاهما عطفه . . فقد بلغ كورى وزوجه فى تلك السنة (١٩٠٣) ذروة العبقرية التى تؤيدها التجربة ، ويمكن أن تؤتى أطيب الثمرات . . وقد عاشا تحت سقيفة من خشب ، يبللها المطر ، مدى سنوات . فاكتشفا الراديوم الذى بهر الدنيا ، ولكن الرسالة لم تتم . فدماغاهما يحويان كنوزاً أخرى مجهولة . وهما يريدان أن يعملا . . ويجب أن يعملا !.

والمجد لايكترث كثيراً بالمستقبل الذى يتعلق به بيير كورى ومارى . فالمجد يلقى بنفسه على العظماء ، ويلتصق بهم ، بكل أثقاله : يحاول أن يعرقل سيرهم . فاذاعة جائزة نوبل قد حولت إلى الزوجين أنظار الملايين من الناس ، رجالا ونساء ، فلاسفة وعمالا ، أساتذة ووجهاء ، رجال شارع وطلاباً . . وهذه الملايين من المخلوقات تريد أن تعبر للزوجين عن ميلها وإعجابها ! . . فحدث ، ولا حرج ، عن جماهير المتطفلين والصحفيين من كل البلدان ، الذين حاصروا بيت كورى وسقيفة شارع لومون ! . . وحدث عن تلال البرقيات التى وصلت من أربعة أرجاء المعمورة . . وألوف المقالات فى الصحف ، وإرغام العالمين على الوقوف أمام المصورين ! . . فأصبحا ضحية مجدهما ، وحرما ، فى عزة الغنى ، الكنز الوحيد الذى يتمنيانه ، وهو : **الهدوء** !..

وقد أصبحت كل دقائق حياتهما ، البسيطة ، المتواضعة ، الحفرة نهباً مباحاً للناس جميعاً ، على صفحات الجرائد ، وفى الصور الفوتوغرافية وفى أغانى المسارح .

وحاول كورى وزوجه ، جهدهما ، أن يرفضا كل حديث

فى الصحف ، وأن يوصدا بابهما ، وأن يغلقا على نفسيهما معملهما الحقير ، الذى دخل فى ذمة التاريخ ! . . لكن شيئاً من ذلك لم يتم . إن عملهما وحياتهما الخاصة لم يعودا ملكاً لهما . . حتى دماثة خلقهما ، وتواضعهما الذى أدهش الصحفيين ، قد صار أمراً مشهورا ، وموضع إشارة وتمجيد ! . .

ياالهذا المجد من مرآة عجيبة ! . . فهى أحياناً مخلصة ، وأحياناً تشوّه من ينظر إليها ، كالمرايا المقوسة التى نراها فى لونابارك ! . . لقد صارت حياة مارى وزوجها مادة لآخر مشاهد « الكبريهات» وصالات الغناء !.. ولما ذاع أنهما قد أضاعا ــ عرضاً ــ جزءاً من عنصر الراديوم مثلوهما فوراً على مسرح مونمارتر : محبوسين فى سقيفتهما ، لايسمحان لأحد بالدخول ، ويقومان بخدمة نفسيهما ، ويفتشان بطريقة مضحكة كل ركن من المسرح ، ليجدا المادة الثمينة المفقودة ! . .

والحق أن ضياع كمية من الراديوم ، مهما يكن من ضآلتها ، له تأثيره فيهما ، ويتطلب منهما جهاداً جديداً ، كالأشغال الشاقة . فان أقل كمية منه توضع فى أنبوبة زجاجية بحجم الإصبع ، تتطلب عدة أطنان من المواد الأولية ! .

هذه هى شواغل مارى وبيير ، بعد ثلاثة عشر يوماً من حصولهما على جائزة نوبل . . فى خلال هذه الأيام الثلاثة عشر ، قام العالَم باكتشاف آخر : اكتشاف كورى وزوجته ! . . ولكن بيير ومارى لم يلبسا القباء الكاريكاتورى الذى أرادتهما الدنيا على لبسه ! . .

من بيير كورى إلى جورج جوى – ٢٢ يناير ١٩٠٤ :

(صديقى العزيز أردت أن أكتب اليك منذ زمن طويل ، فاعذرنى ان كنت لم أفعل ٠ فهذا راجع الى الحياة الغبية التى أحياها فى هذه الآونة .

فأنت قد رأيت هذه « اللحسة » بالراديوم !.. وهذا ما كلفنا ثمن لحظة من الشهرة : فالصحفيون والمصورون ، من جميع بلاد العالم ، يضطهدوننا ، ويحاصروننا ، ويجرون فى أعقابنا . وبلغ بهم الأمر أن ينقلوا حديث طفلتى مع خادمتها ، وأن يصفوا القطة البيضاء السوداء التى عندنا !.. ثم تلقينا رسائل وزيارات من كل الشواذ من الناس ومن كل المخترعين المجهولين ٠ أما طلبات النقود فلا حصر لها ٠ ثم تأمل مواكب : جامعى الامضاءات ، والمفتونين ، والمحدثين والوجهاء ٠٠ بل العلماء أيضا ، الذين وفدوا لرؤيتنا فى سقيفتنا الفخمة التى تعرفها بشارع لومون !٠٠ ولهذا كله ، لم تبق لدينا لحظة هدوء فى المعمل ، هذا المعمل الذى تحول أيضا الى مكتب لتصدير البريد مساء ! ٠٠ وهى حالة أغرقتنى فى طوفان من الغباء ٠٠٠)

وهذان الشخصان اللذان تحملا الفقر دون تذمر أوشكوى ، وثبتا للعمل الناهك العنيف ، ولظلم الناس ، قد بدت منهما لأول مرة فى حياتهما هزة الثورة الغريبة . . فكلما زادت واتسعت شهرتهما ، زادا ضيقاً بها ، وتململا منها :

من بيير كورى إلى جورج جوى – ٢٠ مارس ١٩٠٤ :

(... لقد رأيت كيف يحبونا المال فى هذه اللحظة . ولكن آلاء الثراء مصحوبة بويلات العناء . فاننا لم نكن قط اقل راحة وسلاما مما نحن الآن . اذ تمر بنا ايام لا نجد فيها للتنفس وقتا .. نحن .. الذين حلمنا أن نعيش كالمتوحشين بعيدا عن بنى آدم !!) ٠٠

من بيير كورى إلى شارل إدوار جيوم — ١٥ يناير ١٩٠٤ :

(.. انهم يطلبون منامقالات ومحاضرات ، وعندما تمر السنون ، سنرى هؤلاء الناس انفسهم : الذين يسألوننا ذلك ويعطلوننا ؛ يدهشون ويتساءلون : لماذا لم نعمل بعد اكتشافنا شيئا ما !... وانى لأحن الى أوقات أشد هدوءا ، فى بلاد آمنة ساكنة ، تمنع فيها المحاضرات ، ويضطهد فيها الصحفيون ! ..) .

من مارى كورى إلى جوزيف سكلودوفسكى — ١٤ فبراير ١٩٠٤ :

(لا نزال فى العجيج والضجيج . والناس يحولون دوننا ودون العمل بقدر ما يستطيعون . أما الآن ، فقد اعتزمت أن أكون شجاعة ، ولا أقبل أية زيارة .. ولكنهم مع ذلك يزعجوننا ... لقد أفسدت علينا الشهرة والمجد حياتنا !!.) .

من مارى إلى جوزيف سكلودوفسكى — فى ١٩ مارس ١٩٠٤ :

(أبعث اليك ، ياعزيزى جوزيف ، بأرق التهانىء فى عيدك . وارجو لك صحة جيدة ، ونجاحا للأسرة كلها ، كما أتمنى ألا ترهق بمثل المراسلات التى تغرقنا فى هذه الأيام ، ولا بالغارات التى نحن ضحاياها ...

انى آسفة نوعا ما اذ ألقيت بالرسائل التى تلقيناها .. فقد كان فيها اغان واناشيد واشعار فى الراديوم ، وخطابات من المخترعين المختلفين ، ومن أرواح واطياف ، كما كان فيها رسائل فلسفية !.

وقد كتب الى ، بالأمس ، أمريكى يسألنى الاذن له فى استعارة اسمى لتعميد حصان له فى حلبة سباق الخيل !.. دع عنك طبعا ، ما هناك من مئات الطلبات لتوقيعاتنا ، وصورنا الفوتوغرافية .. ولست أرد على اية رسالة من هذه الرسائل اطلاقا ، ولكنى أضيع الوقت فى قراءتها ..) .

من مارى كورى إلى بنت عمتها هنرييت — ربيع ١٩٠٤ :

(... ان عيشتنا الهادئة العاملة قد تزعزعت وانقلبت ، حتى صرت لا أدرى هل تعود يوما فتسترد توازنها ...) .

ولم تكن فرنسا إلا آخر بلد تحرك لتكريم آل كورى بما ينبغى ، بعد مدالية دايفى الإنجليزية ، وجائزة نوبل السويدية ، فسمحت جامعـــة باريس ، آخر الأمر ، لبيير كورى ، بكرسى الطبيعـــة فى السوربون ! . .

ولم تكن حرب المجد عند مدام كورى مبدأ ، ولكنها كانت فطرة فيها . . فهى تهرب من الجماهير ، ومن الإعجاب ، ومن الثناء . فى اضطراب وحياء . . إنها لاتحب تبديد قواها العقلية ، والروحية ، والجسدية ، فى استقبال المجد ، والحفاوة به ، والإقبال عليه . . فكانت إذا ما أحاط بها الناس ، سائلين ، فى عرض الطريق ، أومكان عام : « ألست مدام كورى ؟ » ، بعدما نشرت الصحف عشرات الصور لهـا على رغمها ، تجيب : « كلا . . أنتم مخطئون ! » . . ومن النوادر التى تروى عنها : أنها كانت مدعوة ذات مساء مع زوجها ، إلى سهرة بقصر الأليزيه ، عند رئيس الجمهورية « لوبيه » ، فتقدمت سيدة منها ، وسألتها :

– أتريدين أن أقدمك لملك اليونان ؟ . .

فأجابت مارى ببساطة وأدب :

– لست أرى فى هذا نفعا ! . .

فدهشت السيدة التى خاطبتها ! . . ولم تلبث مارى أن رأت أنها بإزاء مدام لوبيه نفسها . . فاعتذرت ، وأسرفت فى الاعتذار . . وسلمت إليها الأمر ! . .

* * *

لقد وجد آل كورى الآن أسباباً جديدة للعيش « كالمتوحشين » . فهما يهربان من المتطلعين والمتطفلين . . فقصدا ، على الدراجتين ، القرى المنعزلة ، يقضيان الليل فى فندق ريفى ، ويتخذان فى سجل الفندق اسمين زائفين . . فضللا عنهما الناس . . بيد أن صحفيا أمريكيا لبقاً تبع آثارهما ، حتى وصل أمام بيت صيادين ، كانا قد نزلا فيه . . فجريدته قد أرسلته ليحادث مدام كورى العالمة الشهيرة ! . . أين يمكن أن تكون ؟ . . فيسأل بعض الناس . . يسأل تلك المرأة « الصيادة » ، الجالسة أمام كوخها ، حافية القدمين ، على عتبة الباب الحجرية ، تنفض الرمل عن حذائها المطاط . . . ! !

فرفعت المرأة رأسها ، وحدقت بعينيها الرماديتين إلى الرجل الدخيل . . فاذا هى ، عنده ، فجأة ، تشبه مئات الصور وألوفها التى نشرتها الصحف لها ! . . إنها هى ! . . فظل الصحفى لحظة مصعوقاً ، ثم جلس على الأرض إلى جانب مارى ، وأخرج مذكرته ! . . فلما رأت أن لا سبيل إلى الهرب ، استسلمت ، وردت بجمل صغيرة على أسئلته :

— نعم ، بيير كورى وأنا قد اكتشفنا الراديوم . . نعم ، إننا ماضيان فى تجاربنا . .

وفى تلك الأثناء ، كانت تضرب حذاءها الكاوتشوك على الحجر ، لتخرج آخر ما فيه من حبات الرمل ، ثم تضعه فى قدميها العاريتين الجميلتين ، اللتين خدشتهما الصخور وجذوع الأشجار . . فيالها من فرصة صحفية عظيمة ! . . إن هذا المشهد العائلى نعمة نادرة ! . .

فراح الصحفى يسأل مارى عن شبابها ، وعن طرق عملها ، وعن نفسية المرأة التى تقف نفسها على البحث العلمى ! . .

فإذا بها ، قد حولت عنه وجهها المدهش . . وألقت إليه جملة واحدة ستكررها دائماً شعاراً لها : جملة تصور : خلقها ، وكيانها ، ومواهبها واستعدادها .. جملة أبلغ من كتاب .. وضعت بها مارى للحديث حداً :

« – علينا فى العلم أن نهتم **بالأشياء** ، لا **بالأشخاص** » .

الفصل السابع عشر

على مدى الأيام

إسم «كورى» الآن «إسم عظيم». وقد صار الزوجان أوفر غنى بالمال، وأقل غنى بلحظات السعادة، ولاسيما مارى التى أضاعت حركات حماستها؛ وفقدت نزعات فرحتها؛ فهى لم تكن مأخوذة تماماً بالأفكار العلمية التى تستغرق زوجها. وقد تأثرت حساسيتها وأعصابها بما يقع كل يوم من حوادث، وكان رد الفعل سيئاً.

وكان زوجها يشكو أيضاً من الروماتيزم، كان يثور عليه أحياناً، ويدعه هادئاً أحياناً، وهو يفسر الداء بأنه نوع من النورستانيا، فهو لم يعد يعمل شيئاً منذ عام، والشهرة تضطهده وتطارده، فلاتدع له سبيلا إلى الاستقرار، ولا تترك له وقتاً لعمله، ولا وقتاً لراحته. ولم يجد الطريقة التى يدفع بها عن نفسه وفكره، هؤلاء الذين ينهشون وقت العلماء والمفكرين كأنه حق مباح لهم. ولم تعد لهما لذة الإجازات السابقة، الممتعة، المندفعة، المجنونة، التى كان الزوجان يقطعان فيها، على دراجتين، طرقات الخلاء كتلميذتين.. فاستأجرت مارى قرب باريس، فى وادى شفريز (١)، بيتاً خلوياً صغيراً، تعالج فيه زوجها الذى نهكه العمل،

---

(١) هو الوادى الزمردى المشهور، الذى كانت تسكنه صديقة مصر «مدام جولييت آدام».. وللوطنى الكبير واصف غالى باشا فيه قصر جميل. «ص»

وتمرح حوله بنتها إيرين على دراجة صغيرة ، فى ثوب واحد ، فهى سلوتهما الوحيدة . . .

ويحس بيير كأن خطراً يهدده . أيخشى هذا الرجل ، الذى كان فى ريعان الشباب ، أن يموت وشيكاً ؟ إنه يسابق عدوًّا خفياً ، ويناضله ويفضى . فى حنان ، إلى امرأته : بقلقه . يريد أن يسرعا فى بحوثهما ، وأن ينتفعا بكل لحظة من زمنهما ، وأن يطيلا المكث فى معملهما . . .

وليست مارى بأسعد منه حظا ؛ فهى منذ عشرين سنة تدأب وتكدح وتشقى : منذ كانت بولونية صغيرة فى السادسة عشرة ، تضرب فى الريف وفى الحضر ، طلباً للخبز . وقد عاشت شبابها فى وحدة موحشة ، عاكفة على كتبها وكراساتها ، فى غرفة سطح مثلجة . وعندما أقبل الحب متثاقلا ، كانت مرتبطة بالعمل ارتباطاً لا انفصام له .

ثم جمعت بين حبها للعلم ، وحبها رجلا . فحكمت على نفسها بعيش لا رحمة فيه . فبينا نرى بيير قد تمتع فى شبابه الباكر بفترات كسل طويلة ، ومراهقة شائقة ، وعواطف حارة ، نرى مارى ، منذ صارت امرأة ، لم تتخل لحظة عن عبئها . فلم تعرف راحة العيش ، ولا طمأنينة الوجود . فهى زوج ، وهى أم : مسرفة فى الحنان . وهى تتمنى لو أتيحت لها أيام راحة ورخاء . . وهذا ما يدهش بيير . وما ينكره عليها . فهو قد بهر إذ عثر على رفيقة نادرة ، يجد منها تضحية كاملة شاملة لنفسها ، كما يضحى ، هو نفسه ، فى سبيل ما يسميه : « **افكارهما المسيطرة** » .

تطيعه ، وهى دائمة الطاعة ، ولكنها تحس ، فى روحها وبدنها ،

الضنى . وتســائل : ماذا ثبط عزمها ، وهل عقم فكرها ؟ والحقيقة بسيطة ؛ فهذه المرأة كانت فى السادسة والثلاثين ، فى تلك السن التى ينادى الحيوان الأعجم فيها بحقه فى الحياة ، بعدما طال إخماد أنفاسه وكبح جماحه. مارى فى حاجة إلى بعض الزمن الذى لاتكون فيه « مدام كورى » : تنسى الراديوم ، تأكل وتنام ، لاتفكر فى شيء .

وهذا حرام عليها . إن كل يوم يحمل إليها التزامات جديدة . وستكون سنة ١٩٠٤ مرهقة لها ، ناهكة ، وستكون فيها حاملا . فتطلب إجازة من مدرسة سيفر ، وتعود مساء من المعمل ، متعبة ، مثقلة ، معتمدة على ذراع بيير ، تشترى أحياناً ، إحياء لذكريات فارسوفيا ، القليل من « الكافيار » الغالى ، الذى يسيل له لعابها .

ويوم يحين المخاض ، تبلغ روحها التراقى ، فضلا عن عذابهـــا لسوء صحة زوجها ، وكأنها لم تعد تحب شيئاً : لا الحياة ، ولا العلم ، ولا الولد الذى سيولد . وجاءت برونيا من بولونيا لحضور الولادة . . فتنزعج إذ تكتشف مارى هـــذه ، الجديدة ، المنكسرة ، المغلوبة على أمرها ، التى لاعهد لها بها . . تسمعها لاتنفك عن أن تردد :

ـ لمـاذا أضع مخلوقاً آخر فى الدنيا ؟ . . إن الحياة شاقة ، أشد ما تكون جدباً وجحوداً . . ليس لنا أن نفرض ويلاتها على الأبرياء...

والوضع متعسر ، لاينتهى . وأخيراً ، فى ٦ ديسمبر ١٩٠٤ ، تولد طفلة بضة متوجة بشعر أسود أيضاً ، وتدعى : إيف [1] . .

---

(١) Eve هى صاحبة هذه القصة الخالدة ، عن أمها الخالدة . . وقد جاهدت خلال الحرب العالمية الثانية ، فى سبيل حرية فرنسا وزارت مصر فى ١٩٤٢ ، ولها مكانة عالمية رفيعة فى الصحافة والأدب . « ص »

وتدخل ابتسامات الطفلة الجديدة ولعبها : البهجة على قلب أمها . فتسترد طعم الحياة . وتقترب من أجهزة المعمل ، بلذة كانت قد نسيتها . ولا تلبث أن تعود إلى مدرسة المعلمات بسيفر ، ثم تثبت قدمها التى كانت قد هزتها الأيام ، فتستأنف الجهاد ، على شوك القتاد .

وتسافر مع بيير إلى ستوكهلم ، لحضور مؤتمر نوبل ، وليردا الدين الأدبى الذى هما مدينان به ، فيتحدث العالم الكبير ، باسمه واسم زوجه فى ٦ يونيه ١٩٠٥ ، أمام أكاديمية علوم ستوكهلم ، عن نتائج اكتشاف الراديوم ، وعن أثره فى : الطبيعة ، والكيمياء ، والجيولوجيا ، والميتيرولوجيا ، والبيولوجيا (علوم طبقات الأرض والظواهر الجوية وأسباب الحياة وأحوالها) ، وعما أضافه الراديوم إلى كنوز المعرفة ، وعن فضله على الإنسانية .

وضفر المجد أكاليله . فجاءت من فرنسا (أخيراً جدا !) عضوية المجمع العلمى .

من بيير كورى إلى جورج جوى -- فى ٦ أكتوبر ١٩٠٥ :

(ذهبت يوم الاثنين الى المجمع ، ولكنى أسائل . فيم كان ذهابى اليه ؟ فليست تربطنى بعضو منه أية صلة ، وليس لجلساته أدنى أهمية .. انى أحس أن هذه البيئة ليست بيئتى) .

من بيير كورى إلى جورج جوى -- أكتوبر ١٩٠٥ :

(لم أكتشف بعد منفعة الأكاديمية !..)

ثم ها هو ذا كرسى الأستاذية فى السوربون يسعى إليه . ولكنه يسأل :

– وأين المعمل ؟ . .

فيقولون :

– كرسى بلا معمل ! . .

فيدهش ، ويأبى أن يغادر مركزه المتواضع ، الذى يستطيع أن يجد فيه سقيفة يعمل فيها ! . . وتقوم الدنيا وتقعد ، ويعرض الأمر على البرلمان ، فيقرر بناء حجرتين له ، ويفتح اعتماداً لتجهيزهما . . ولكن البناء يلتهم ثمن الآلات . . ويظل كورى حائراً ! .

لابد من أن تمضى ثمانى سنوات أخرى قبل أن تستطيع مارى أن تجد مسكناً لنشاطها الإشعاعى ، فى بناء مستقل ، بناء لن يراه بيير بعينيه ، لأنه يكون قد ذهب . . فتظل بعده ممزقة القلب حسرة على خدينها ، خدينها الذى عاش ومات ولم يتحقق له وجود هذا المعمل : الأمنية الوحيدة لحياته .

وكان كل ما سر بيير فى هذا كله : أن عينت زوجته مساعده له ، فأصبحت لها إلى جانبه صفة رسمية :

جامعة فرنسا

« تعين مدام كورى ، الدكتور فى العلوم ، ابتداء من أول نوفمبر ١٩٠٤ ، رئيسة أشغال الطبيعة (كرسى مسيو كورى) فى كلية العلوم بجامعة باريس .

ويكون راتب مدام كورى بهذه الصفة : ألفين وأربعمائة فرنك سنويا » .

الوداع إذن أيتها السقيفة العزيزة ! . . أيتها المشرحة القديمة المهجورة .

يامهد أعظم اكتشاف فى تاريخ العلم ، فى هذا العصر ! . .

* * *

وقضوا ، آباء وأبناء ، أياماً سعيدة فى وادى شفريز . . وسبقهم بيير إلى بيت شارع كلرمان . . ثم لاتلبث مارى أن تتبعه ، ومعها إيرين وإيف ، إلى باريس ، فتتركهما فى البيت لجدهما ، وتلحق ببيير فى المعمل . . وحينما تدخل تراه واقفاً كالعادة أمام النافذة يمتحن جهازاً . كان ينتظرها ، فيضع معطفه وقبعته ، ويأخذ ذراع زوجه ليذهبا إلى مطعم « فويو Foyot » حيث يقام العشاء التقليدى لجمعية علوم الطبيعيات . ويتحدث إلى جاره فى المائدة : هنرى بوانكاريه ، عن النظريات التى تشغله فى تلك الآونة : قياس انبثاق الراديوم . . ثم عن علم استحضار الأرواح ، وما فيه من حقائق وأكاذيب . . وعن تربية النبات ، ورأيه فيها ، راجياً توجيهها نحو علم الطبيعة .

وتغير الجو فجأة . . حتى لايكاد الإنسان يصدق أن الصيف فاحت بالأمس روائحه . . لقد برد الجو ، وهبت ريح صرصر عاتية ، وضرب المطر ، بسياطه الدقيقة الملتهبة ، زجاج النوافذ . . وإذا بأرصفة الطرقات تغرق ، وتنزلق ، وتتألق . . .

الفصل الثامن عشر

١٩ أبريل ١٩٠٦

بدأ ذلك الخميس عبوساً قمطريرا : فالمطر لايزال ينهمر ، والجو مظلم كئيب . فلم يستطع الزوجان ، برغم استغراقهما فى عملهما ، أن ينسيا شؤبوب أبريل . ولابد لبيير من حضور غداء جمعية أساتذة كلية العلوم ، ثم الذهاب لتصحيح التجارب عند ناشره « جوتييه — فييار » ، والمرور بعد ذلك بالمجمع العلمى . وعلى مارى أشواط تقضيها. وبعد جهد قضياه فى مشاغل الصباح ، رأى كلاهما الآخر. فبينا كانت مارى تلبس إيرين وإيف ثيابهما فى الدور الأول ، ناداها بيير من الدور الأرضى ، يسألها : هل هى ذاهبة إلى المعمل ؟ فردت بأنها لن تجد متسعاً من الوقت ، فأسرع بالخروج . . وبينا كانت مارى تتغدى مع بنتيها ، كان بيير فى دار جمعيات العلماء Sociétés Savantes بشارع دانتون ، يتحدث مع زملائه فى مودة ولذة ، عن السوربون ، والبحوث ، والمهنة . .

وفى نحو الثانية والنصف من بعد الظهر ، نهض باسماً ، واستأذن رفاقه ، وصافح العالم الكبير بيير بران ، صديقه الحميم ، وجاره فى السكن ، على وعد باللقاء مساء . وعلى عتبة الدار ، وقف وحدق إلى السماء الملبدة بالغيوم ، ثم نشر مظلته الكبيرة ، ومضى تحت

المطر الهاطل نحو نهر السين ، فوجد أبواب المطبعة مغلقة ، بسبب إضراب العمال . فاتجه إلى شارع دوفين Dauphine الذى تدوى فى أرجائه أصوات الحوذية ، وصرير الترام الذى يمر على الرصفة quai المجاورة ، فما أشد الزحام المتراكم على هذا الطريق الشبيه بالزقاق فى باريس القديمة ! فلا يكاد الرصيف الضيق يتسع للمارة العديدين فى هذه الساعة من بعد الظهر ! . . حاول أن يشق طريقه ، تارة على « الرصيف » ،وتارة فى الشارع نفسه ، بخطى غير متوازية ، خطى الذين يستسلمون لأحلامهم ، ويستغرقون فى تأملاتهم .. ففيم يفكر وهو شارد البصر ، عابس الوجه ؟ . أفى تجربة علمية تشغله ؟ . أفى رسالة صديق له يقدمها إلى الأكاديمية ونسختها فى جيبه ؟ . . أم كان يفكر فى مارى ؟ . .

كان يسير منذ لحظات ، على « الأسفلت » ، وراء عربة مقفلة ، تسير ببطء نحو الجسر الجديد Pont-Neuf — وعند ملتقى الشارع برصفة النهر ، كان الضجيج يصم الآذان . ومر قطار متجه إلى الكونكورد على طول السين ، فقطعت عربة نقل ضخمة ثقيلة يجرها جوادان ، طريقها ، ودخلت شارع دوفين . . وأراد بيير باندفاع الشاردين ، أن يعبر « الرصيف » ، ليصل إلى الجانب الآخر . فغادر فجأة العربة التى كانت تحمى خطاه، وتياسر .. ولكنه فوجىء بحيوان يخرج من فمه الدخان : أحد حصانى المركبة التى عارضت العربة فى اللحظة نفسها ، فضاق الفاصل بين المركبتين أشد الضيق . فزع بيير ، وفى حركة طائشة ، حاول أن يلتصق بصدر الحصان ، الذى شب

فجأة وجَفَل . فزلق حذاء العالم على الأرض المبتلة . . فصاح الناس جميعاً من حوله رعباً . . فقد سقط بيير تحت حوافر الخيل الضخمة . . وهلع المارة وصاحوا : « قف ! قف ! » . . فشد الحوذى اللجام . . ولكن عبثاً ؛ فقد مضت الخيول قدماً لاتلوى على شئ . .

كان بيير ملقى على الأرض حيا ، لم يصب بسوء . لم يصرخ ، ولم يكد يتحرك ، ونجا حسمه من بين حوافر الخيل ولم يكد يمس . . ونجا من بين عجلتى العربة الأماميتين أيضـــاً . . كانت المعجـــزة محتملة الوقوع . ولكن ذلك الدولاب الهائل المحمل بستة أطنان من البضاعة ، اندفع بضعة أمتار أخرى . . فاصطدمت العجلة اليسرى بعقبة ضعيفة حطمتها فى مرورها : جبين إنسان . . رأس بشرى . . انفجرت الجمجمة . . وانبثقت مادة لزجة حمراء ، تناثرت فى كل جانب ، فى الوحل . . تلك كانت دماغ بيير كورى . وذلك كان مخه ! . . .

حمل رجال البوليس الجسد الحار الذى غادرته الحياة فى غمضة عين . واستوقفوا على التوالى عربات عدة ، ولكن مامن حوذى تقبّل فى عربته جثة مغطاة بالوحل يسيل منها الدم . . . مرت الدقائق ، وتجمع الفضوليون ، وتزاحموا ، وحاصر جمهور ، يزداد دائماً ، عربة النقل الواقفة ، وتعالت صيحات الغضب فى وجه سائقها ، « لويس مانان » ، الذى ارتكب الفاجعة دون قصد . وأخيراً جاء رجلان بلوح من خشب ، وضعا عليه الميت . وبعد وقفة ، لاداعى لها ، فى صيدلية ؛ حملوه إلى مركز البوليس المجاور ، حيث فتحوا محفظته ، وفحصوا

أوراقه . وعندما ذاع الخبر بأن الشهيد هو « بيير كورى » ، البروفسور العالم المشهور ، تضاعفت الضجة ، واضطر الشرطة إلى التدخل لحماية « مانان » من سخط الجمهور ، ومن القبضات الممتدة إليه . . .

ومسح الدكتور دوريه الوجه باسفنجة مبللة ، وكشف عن الجرح الفاغر فى الرأس ، وعدَّ الست عشرة عظمة التى تكسرت ، والتى كانت منذ عشرين دقيقة ، جمجمة . . . وأخبروا ، بالتليفون ، كلية العلوم . فلم يلبث أن وفد مساعد الأستاذ : مسيو « كلرك » ، يبكى وينتحب ، فى مركز البوليس بشارع دى جراندز أوجستان ، فى حين كان الحوذى « مانان » يزفر أيضاً . . وقد انتفخ وجهه الأحمر ، وخضلته العبرات..

وبينما كان بيير ، مطروحاً فوق الأرض ، وقد عُصب رأسه ، وظل وجهه سليما مكشوفاً . . لايكترث لشئ . . .

وكانت عربة النقل ، وطولها خمسة أمتار ، طافحة لحافتها بالملابس العسكرية ، واقفة بالباب . ومحا المطر شيئاً فشيئاً بقع الدم التى كانت تلطخ إحدى العجلات . . وكان الحصانان الضخمان الفتيان ، قد انتابهما قلق خفى لغياب صاحبهما ، فطفقا يصهلان ، خوفاً وضيق صدر ، ويضربان حجارة الأرض بحوافرهما الحديدية ، فترسل شرراً . . .

* * *

أرخى الشقاء سدوله الكئيبة على بيت كورى ، وجلله بالسواد . وتوالت السيارات والمركبات على شارع كلرمان المقفر ، تبحث عنه . . . وطرق الباب مندوب رئيس الجمهورية ، فلما علم أن «مدام كورى لم تعد إلى البيت بعد » ، ذهب دون أن يبلغ رسالته . ثم دق الجرس مرة

أخرى ، ودخل الفيلا « بول آبل » عميد الكلية . والبروفسور جان بران.
دهش الدكتور كورى الشيخ من هذه الزيارات الهامة ، فتقدم للقاء الرجلين ، ولاحظ وجهيهما الكالحين . وكانت مهمة بول آبل تقضى بأن يحيط مارى أولا بالأمر ، فظل صامتاً قلقاً فى حضرة حميها . ولكن الشك الفاجع لم يدم طويلا ؛ لأن الشيخ العجوز نظر مرة أخرى إلى هذين الوجهين لحظة ، ثم قال دون أن يوجه السؤال :

— إن ولدى قد مات !

سمع تفاصيل الحادث ، فجرت الدموع فى أخاديد وجهه المتجعد ، وفاضت دموع الثورة ، ودموع الحزن . . وفى حنان ويأس عنيفين اتهم الدكتور كورى ولده بعدم الانتباه ، الذى كلفه حياته ، وردد هذا الكلام من قلب كسير :

— فيم كان يحلم أيضاً ؟ ! .

الساعة السادسة . صوت مفتاح فى قفل . مارى مرحة ، فرحة مزهوة على عتبة البهو « الصالون » . فتلحظ ، فى اتجاه أصحابها نحوها ، علامات العطف المروعة . يقص عليها بول آبل ماجرى . تظل مارى من الفجيعة ، بلا حراك ، كأنها لم تدرك شيئاً . فهى لاتنهار فى الأذرع الحنون ، ولا تزفر ، ولاتئن ، ولاتبكى ، كأنما صارت تمثالا . وبعد صمت طويل ، حائر ، تحركت أخيراً شفتاها ، وسألت بصوت خافت ، راجية ، كالمخبولة ، ضرباً من التكذيب :

— بيير . . . مات ؟ . . مات ؟ . . مات كل الموت ؟ !

إن هذه اللحظة ، لهى لحظة حاسمة فى تأثيرها فى خلق مارى ،

ومصيرها ومصير أولادها . . فهى لم تتحول من زوجة شابة سعيدة إلى أرملة لاسبيل إلى عزائها فحسب . . كلا ! بل كان التحول أبسط من ذلك وأخطر . . هذا الضجيج الداخلى الذى يمزق مارى . هذا الرعب ، الذى لااسم له ، والذى غلف أفكارها التائهة ،كان من الوبال بمنزلة السم الزعاف ، بحيث لايعبر عنه بالشكوى ، ولا تنفع فيه السلوى , فمنذ بلغ ضميرها هذان اللفظان « بيير مات » . . ستمط على كتفيها ، ليبقى إلى الأبد ، دثار الوحدة والسر والكتمان ، كأنه مسوح الرهبان . . وفى الوقت الذى أصبحت فيه مدام كورى ، فى ١٩ أبريل ، أرملة ، صارت أيضاً مخلوقة يرثى لها ، منعزلة ، لا يرجى لها شفاء .

فأحس شهود المأساة بهذا الحائط غير المنظور ، يقوم بينهم وبينها ، وتلاشت عبارات الأسى والتشجيع ، قبل أن تصل إلى مارى ، التى جمدت منها العينان . وشحب الوجه ، وجف اللسان ، حتى لم تكد تسمع ، ولم تكد تجيب . ورفضت بإيجاز تشريح الجثة الذى كان سيتم التحقيق ، وطلبت إحضارها إلى شارع كلرمان . ورجت صديقتها مدام بران أن تؤوى إيرين بضعة أيام . وأرسلت إلى فارسوفيا برقية قصيرة : « مات بيير فى حادث » . ثم خرجت إلى الحديقة الرطبة وجلست ، ومرفقاها على ركبتيها ، ورأسها فى يديها ، ونظرتها إلى الفضاء - المرأة صماء ، خرساء ، عمياء : تنتظر خدينها . .

وحملوا إليها المخلفات البائسة ، التى وجدوها فى جيوب زوجها : قلم حبر ، ومفاتيح ، ومحفظة ، وساعة لا تزال تدور ، حتى زجاجها

مازال سايما . . وأخيراً ، فى الساعة الثامنة مساء ، وقفت عربة إسعاف أملم البيت . فخذت مارى ، وصعدت إليها ، وتبينت ، فى الغبش ، ذلك الوجه المتسامح ، الكريم ، الرائق . .

وأدخلت النقالة ببطء وعناء من الباب الضيق . وكان أندريه دبيرن ، الذى ذهب إلى مركز البوليس ليتسلم أستاذه وصديقه ، يعاون فى الحمل الجنائزى . وسجوا الميت فى غرفة بالدور الأرضى ، وظلت مارى وحدها مع زوجها

فقبلت وجهه ، وجسمه الرطب ، الذى مازال دافئاً ، ويده التى كانت لاتزال تنثنى . . ثم أخذت ، عنوة وقسرا ، إلى غرفة مجاورة ، حتى لاتحضر زينة الموت . . . فأطاعت ، كأنها لاتعى ، ثم أخذت بفكرة أنها تركت هذه الدقائق تسرق منها ، وما كان لها أن تدع لإنسان سواها العناية بهذا الجسد الدامى ، فعادت ، والتصقت بالجثة . .

وفى اليوم التالى كان وصول جاك كورى ، شقيق بيير ، من مونبلييه ، سبباً فى فتح حنجرتها ، وتدفق سيل دموعها ، فهى إذ صارت وحدها مع الأخوين ؛ أحدهما حى ، والآخر ميت ، استسلمت لحزنها ، وأخذت تنتحب وتزفر .. ثم تشددت وتماسكت ، وذهبت تهيم فى البيت تسأل : هل حمّوا « إيف » ؟ وهل سرحوا شعرها كالعادة ؟ وتقصد الحديقة ، وتنادى إيرين من وراء السور ، وهى تلعب بالمكعبات مع أولاد بران ، وتخاطبها بقولها : إن (به Pé) — تقصد أباها — قد ضرب رأسه ، فهو فى حاجة إلى الراحة . فلم تكترث الطفلة ، وعادت إلى لعبها . .

ولما مضت بضعة أسابيع ، وعجزت مارى عن الكلام عن محنتها أمام الناس ، وتاهت فى بيداء الصمت ، ذلك التيه الذى يجعلها أحياناً تصرخ من الوحشة رعباً ، فتحت كراسة رمادية ، وأسرت إلى الورق ، بخط مرتجف ، أفكارها التى تخنقها . وفى هذه الصفحات الممحوة بالدمع ، المخضلة بالعبرات ، التى لاسبيل إلى نشرها ، إلا بعض فقرات منها ، تخاطب مارى بيير ، وتناديه ، وتسائله . . تحاول أن تسجل كل تفاصيل المأساة التى فرقت بينهما ، لتظل تتعذب بها بقية عمرها . . هذه المذكرات المختصرة الخاصة ، أو هى اليوميات الوحيدة التى كتبتها مارى ، واحتفظت بها ، تصور أفجع الساعات ، حياة هذه المرأة :

بيير ، حبيبى . . . أنت هناك ، هادىء ، كجريح مسكين ، يستريح فى منامه ، معصوب الرأس . . . وجهك حلو رائق ، لاتزال أنت أنت ، مقيدا فى حلم ، لا تستطيع منه فكاكا . شفتاك اللتان كنت أسميهما « النهمتين » ، صارتا داكنتين ، ممتقعتين . . ولحيتك الصغيرة الرمادية !. وشعرك لا يكاد يرى ، لأن الجرح قد بدأ هناك . وفوق الجبين ، الى اليمين ، تبدو العظمة التى كسرت . . أواه ! . لشد ما تألمت ، وما أكثر ما دميت ! ان ملابسك غارقة فى الدماء . . يا للصدمة المروعة التى أصابت رأسك المسكين ، الذى طالما عززته وربت عليه بيدى . لقد قبلت جفنيك ، جفنيك اللذين كان من عادتك اغماضهما لأستطيع تقبيلهما ، ملقياً الى برأسك فى حنان . . .

لقد وضعناك فى التابوت صباح السبت ، وأسندت رأسك فى تلك الأثناء . . ووضعنا القبلة الأخيرة على محياك المثلج . . . ثم وضعنا بعض العشب من الحديقة ، فى التابوت ، مع صورتى الصغيرة التى كنت تسميها : « التلميذة الصغيرة العاقلة » ، والتى

كنت تحبها .. هى الصورة التى ستصحبك فى قبرك ، صورة تلك التى سعدت بأن اعجبتك ، حتى لم تتردد فى ان تشاطرها حياتك ، ولم تكن رايتها الا بضع مرات .. وكنت كثيرا ما تقول لى : « ان هذه المرة الوحيدة فى حياتك التى تصرفت فيها بلا تردد. واعتقدت بيقين مطلق انك احسنت عمـلا » .. ياحبيبى بيير ! اظن انك لم تخطىء .. فقد خلقنا لنعيش معا ، وكان اقتراننا امرا مقضيا .

اغلق تابوتك ، ولم اعد استطيع ان اراك . لااقبل ان يغطوه بخرقة بشمعة سوداء . انى اغطيه بالزهور ، واجلس الى جانبه ..

... جاءوا يطلبونك . صحبة حزينـة . نظـرت اليهم ، ولم اخاطبهم . اننا نسير بك الى « صو » ونراك تنزل الى المقبرة الكبيرة العميقة . ثم موكب مروع من الخلق . يريدون المسـير بنا .. قاومناهم أنا وجاك ، نريد أن نرى حتى النهاية ، فملأوا الحفرة ، ووضعوا عليها الزهور .

لقد انتهى كل شىء . بيير ينام نومته الاخيرة تحت الثرى .. وهذا آخر كل شىء ، كل شىء .. كل شىء ... »

لقد فقدت مارى رفيقها ، وفقدت الدنيا رجلا عظيما . وكان لهذا الرحيل الكئيب ، فى المطر والوحل ، أثره فى نفوس الناس . ووقفت الصحف ، فى جميع البلدان ، أعمـدة عدة ، على وصف حادث شارع دوفين المثير للشجون . فوصلت إلى شارع كلرمان ، برقيات العطف والمؤاساة ، عليها إمضاءات : ملوك ، ووزراء ، وشعراء ، وعلماء ، وأسماء أناس غير معروفين .. وفى تلك التلال من الرسائل والمقالات والبرقيات : صيحات التأثر الصادق :

من لورد كلفن :

(فجعنا بالاخبار المروعة عن وفاة كورى . ما موعد الجنازة ؟ سنصل غدا صباحا . فندق ميرابو)

من مارسلين برتللو :

(... لقد بوغتنا بالنبأ المروع بغتة الصاعقة . . ماأكثر الخدمات التى اداها للعلم والانسانية ، وما اكثر الخدمات التى كنا نتوقعها من هذا المستكشف العبقرى . كل هذا قد تلاشى فى لحظة ، واصبح فى عداد الذكريات)

من ج. ليبمان :

(يخيل الى اننى فقدت اخا . لم اكن ادرى اية صلات كانت تربطنى بزوجك ، ولكننى اليوم أدرى ...
وانى لأتألم من أجلك أيضا يا سيدتى) .

وفى هذه المناسبة ، كما كان فى كل المناسبات ، هربت المرأة التى ستعرف منذ الآن باسم : « الأرملة العظيمة »، هربت من هجمات المجد . ولكى تتجنب احتفالا رسمياً بالجنازة ، قدمت موعدها إلى يوم السبت ٢١ ابريل . ورفضت : المواكب، والوفود ، والخطب، وطلبت أن يدفن بيير فى أبسط صورة ، فى قبر أمه بضاحية « صو » . بيد أن أرستيد بريان ، وكان يومئذ وزيراً للمعارف ، اخترق الحصار ، ولحق بشهامة ، بأهل الأسرة وأعز المقربين ، وشيع جثمان بيير فى صمت ، إلى مقره الأخير البعيد ، فى مقبرة الضاحية الصغيرة .

وكان الصحفيون المتربصون وراء القبور ، يلحظون وجه مارى المحجب بقناع الحداد الكثيف :

« .. استندت مارى كورى الى ذراع حميها ، وتبعت نعش زوجها الى القبر المحفور فى طرف الحوش ، تظله أشجار الكستنا . وهناك ، ظلت لحظة بلا حراك ، ناظرة دائما نظرتها الثابتة الجامدة

ولكن عنـدما جيء بباقة من الزهر الى القبر ، اندفعت ، فأخذت تقطف الزهور ، واحدة بعد واحدة ، وتنثرها على النعش . .

وقد فعلت ذلك فى اناة وهدوء ، وكأنها نسيت تماما من حولها : أولئك الذين اشتد بهم التأثر فلم يأتوا بحركة ولا نأمة ولا همسة .

ومع ذلك لم يجدوا بدا من تنبيهها الى تقبل العزاء من المشيعين ، وعندئذ ، أفلتت الباقة فسقطت على الأرض .. وغادرت المقبرة ، دون أن تقول كلمة ، ولحقت بحميها .. » .

جريدة « الجورنال » فى ٢٢ أبريل ١٩٠٦

وفى الأيام التالية ، ألقيت كلمات التأبين فى ذكرى العالم الراحل بالسوربون والجمعيات العلمية الفرنسية والأجنبية ، التى كان بيير كورى من أعضائها . وكان من أجمل ماقيل فيه ، قول صديقه هنرى بوانكاريه فى أكاديمية العلوم ، إذ وصف رسوخ علمه ، وتواضعه ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وتعلقه بمثل علوى ، هدفه كل ماهو واجب وحق .

من مذكرات مارى :

« فى غداة الدفن ، قلت كل شيء لصغيرتى « ايرين » ، وكانت لاتزال عند أصدقائنا وجيراننا . فلم تفهم شيئا بادىء ذى بدء ، وتركتنى أذهب دون أن تقول شيئا ، ولكن الظاهر أنها ، فيما بعد ، قد بكت ، وطلبت رؤيتنا . وانتحبت فى البيت طويلا ، ثم عادت الى أصحابها الصغار ، لتنسى . ولم تسأل عن أى تفصيل ، وكانت فى البداية مشفقة من الكلام عن أبيها . وفتحت عينيها محدقة بقلق فى ملابسه السوداء التى جاءونا بها ... والآن لم يعد يلوح انهـا تفكر فى شيء من ذلك .

وصل جوزيف وبرونيا . ما أطيب قلبيهما ! .. ايرين تلعب مع خاليها . أما « ايف » ، فقد ظلت خلال هذه الشجون لاتدرى منها

شيئا ، تجرى فى البيت ، وتلعب ، وتضحك ... فى حين اننى أرى بيير ، بيير !.. مسجى على سرير الموت .

... وفى الأحـد التالى لموتك ، يابيير ، ذهبت الى المعمـل مع شقيقك جاك ، لأول مرة . حاولت ان اقوم باتمام تجربة كنا بداناها معا .. فاستحال على ذلك ..

وفى الشارع ، امشى كانى منومة تنويما مغنطيسيا ، لا اعى مما حـولى شيئا . اننى لن اقتل نفسى ، وليست لدى رغبـة ما فى الانتحار .. ولكن .. الا توجد بين كل هذه العربات واحدة تجعلنى أشاطر حبيبى مصيره ؟ ! .. » .

* * *

وكان الدكتور كورى الشيخ ، وولده جاك ، وجوزيف سكلودوفسكى ، وبرونيا ، يلحظون ، فى هلع ، حركات تلك المرأة المثلجة الهادئة ، المتشحة بالسواد ، تلك الآلة الأوتوماتيكية التى استحالت إليها مارى . . ولم يكن مشهد طفلتيها يثير فيها أقل عاطفة ، فظلت متصلبة ، جامدة ، شاردة : تلك الزوجة التى لم تلحق برجلها فى عالم الأموات ، وقد بدت مع ذلك كأنما غادرت عالم الأحياء .

ولكن الأحياء كانوا مشغولين بها ، قلقين على ذلك المستقبل الذى لم تعد تفكر فيه . إن موت بيير كورى قد سبب مشاكل خطيرة : فماذا يكون مصير البحوث العلمية التى تركها ، ودروسه فى السوربون وماذا يكون مصير مارى ؟ . وإذا احتفظت الجامعة بمارى كورى ، فأية صفة تكون لها ؟ . وفى أى معمل ؟ . أيمكن وضع هذه المرأة النابغة تحت رياسة أحد ؟ . وأين هو البروفسور المختص ، الكفء لإدارة معمل بيير كورى ؟ .

ولما سئلت مدام كورى عن رغباتها ، أجابت إجابة غامضة : بأنها لاتستطيع أن تفكر ، وليست تدرى . .

فأحس جاك وبرونيا وجورج جوى – أخلص أصدقاء بيير – بأن عليهم أن يتولوا عن مارى اتخاذ القرارات والتوجيهات ، وحمل جاك كورى وجورج جوى إلى عميد الكلية يقينهما بأن مارى هى وحدها ، بين علماء الطبيعة الفرنسيين ، العالم الجدير بمتابعة أعمال بيير ، وهى الأستاذ الوحيد الخليق بأن يخلفه . فلا بد من زحزحة العادات والتقاليد ، وتعيين مدام كورى : أستاذاً فى السوربون .

وفى ١٣ مايو ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم ، بالاجماع ، أن يحتفظ بالكرسى الذى أنشىء لبيير كورى ، وأن يعهد به إلى مارى :

جامعة فرنسا

« مدام بيير كورى ، الدكتورة فى العلوم ، ورئيسة أشغال بكلية العلوم بجامعة باريس ، تتولى دروس الطبيعة فى الكلية المذكورة ويكون مرتبها ، بهذه الصفة ، عشرة آلاف فرنك سنويا ، ابتداء من أول مايو ١٩٠٦ » .

وهذه أول مرة يعهد فيها إلى امرأة بمركز فى التعليم الفرنسى العالى .

استمعت مارى ، شاردة اللب ، إلى حديث حميها ، عن تفاصيل مهمتها الخطيرة ، التى وجب عليها أن تتقبلها . فلم تجب إلا بكلمة : «سأحاول » .. وصعدت إلى ذاكرتها عبارة قالها بيير فيما مضى ، عبارة هى وصية معنوية ، وأمر يرسم لها طريقها :

« – مهما يحدث ، حتى لو أصبحنا جسدا بغير روح ، فلابد من المضى فى الكفاح والعمل » .

* * *

من مذكرات ماري :

« يعرضون على أن أتولى مكانك يابيير : دروسك ، وادارة معملك . لقدقبلت . ولا ادرى احسنت ، ام اسأت ؟. فقد تمنيت لى ان ادرس فى السوربون ، واريد على الاقل ان ابذل جهدا لاتمام اعمالك . يخيل الى احيانا ، انه هكذا يتاح لى العيش ، وأحيانا يلوح لى أننى مجنونة فى محاولتى اياه ... » .

٨ مايو ١٩٠٦

« يا حبيبى بيير ، انى أفكر فيك ، تفكيرا لا نهاية له ، يطيح منه رأسى ، ويضطرب عقلى ... لا أدرك أن على ، منذ الآن ، أن أعيش وأنا لا أراك !! أن أعيش وأنا لا أبتسم لرفيق حياتى الحبيب !! .

منذ يومين ، والأشجار مورقة ، والحديقة غناء ... وفى هذا الصباح ، راقنى فيها منظر الطفلتين .. وبدا لى أنك كنت ستجدهما عندئذ جميلتين ، تدعونى لأرى ازدهار النرجس والخزامى . وبالأمس فى المقبرة ، لم أستطع أن أفهم كلمتى « بيير كورى » المحفورتين على الحجر .. وقد أزعجنى جمال الخلاء ، فألقيت بخمارى على وجهى ، لأرى كل شىء من خلال النسيج الأسود » .

١١ مايو :

« يابييرى . استيقظت بعد ما نمت جيدا ، نوما هادئا نسبيا . وذلك منذ ربع ساعة فقط ، وها أنذا ، أرانى أريد أن أعوى ، كرة اخرى ، كحيوان مفترس »

١٤ مايو :

« يا صغيرى بيير ، اريد أن أخبرك بان أشجار الجليسين اينعت وأزهرت ، وكنت تحب هذا النوار .

واريد ان أخبرك أيضا بأنهم قد عينونى فى كرسيك ، وأنه كان هناك بعض الحمقى الذين هنأونى بذلك !..

اريد ان اقول لك : انني لم اعـد احب الشمس ، ولا الزهر ، فمنظرهما يؤلمني ، بل انا اوثر الأيام الغائمة القاتمة ، كيوم موتك . واذا كنت لم أعرف الحقـد على الجـو الصحـو ، فذلك لحاجـة طفلتي اليه ... » .

٢٢ مايو :

« أشتغل فى المعمل طول يومى ، وهذا كل ما استطيعه ، فانى احس فيه أن نفسى هناك خير منها فى اى مكان سواه . ولا اتصور شيئا يمكن أن يطيب لى شخصيا ، الا البحث العلمى ، لو طاب .. ولـكن لا ! .. انه لن يطيب لى أبدا ، لأننى اذا وفقت فيه ، فلن احتمل أنك لن تعلم به ... » .

١٠ يونيه :

« كل شيء كئيب . ان مشاغل الحياة لا تترك لى حتى التفكير بسلام فى حبيبى پيير ... » .

* * *

غادر چاك كورى وچوزيف سكلودوفسكى مدينة باريس : ولا تلبث برونيا أن تلحق بزوجها فى مصحتهما ببولونيا .

وفى مساء أحد الأيام الأخيرة ، التى تقضيها الأختان معاً ، سارت مارى ببرونيا إلى غرفتها . وكانت نار الحشب تتلظى فى مدفئها ، رغم حرارة الصيف . وأغلقت الباب بالمفتاح . فدهشت برونيا ، وساءلت محيا الأرمل : كان أشد شحوباً ، وأقوى امتقاعاً . وأخرجت مارى ، دون أن تفوه بكلمة ، من دولاب ، ربطة ضخمة ، مغلفة بورق مشمع . ثم جلست أمام النار ، وأشارت إلى شقيقتها الكبرى أن تجلس إلى جانبها ، وكانت قد أعدت ، فوق المصطلى ، مقصاً ضخماً ، وهمست :

— برونيا . . ساعديني ! . .

ثم فكت الدوبارة ، على مهل ، وأزاحت الورق . . وكان اللهب يصبغ بالذهب يديها المرتعشتين . . فظهرت صرة مربوطة ربطاً جيداً فى ملاءة . فترددت مارى لحظة ، ثم فكت الملاءة البيضاء ، فتمالكت برونيا نفسها من صرخة رعب ، فقد كانت الملاءة تحوى كتلة بشعة ، من ملابس ملطخة بوحل جاف ، ودم أسود . . . فقد ظلت مارى ، منذ أيام ، تحفظ فى جوارها الثياب التى كان يرتديها بيير عندما دهمته عربة النقل فى شارع دوفين .

وأخذت الأرمل المقص ، وبدأت تقص السترة القاتمة ، وتلقى بها ، قطعة قطعة ، إلى الموقد ، وتنظر إليها وهى تتقلص ، ثم تدخن ، ثم تشتعل ، ثم تتلاشى وتختفى .. بيد أنها لم تلبث أن توقفت فجأة ، وقاومت عبثاً عبراتها ، التى امتلأت بها عيناها المتعبتان . لقد بدت فى ثنايا القماش ، اللاصق بعضها ببعض ، مادة لزجة ، رطبة ، هى آخر بقايا مخ ، كانت تشع منه ، منذ أسابيع قليلة ، أفكار نبيلة ، واكتشافات عبقرية . . .

حدقت مارى فى هذه الآثار العفنة ، ولمستها ، وقبلتها فى يأس ولهفة . . فانتزعت منها برونيا الملابس ، والمقص ، وطفقت تقص القماش ، وتلقى بقطعه إلى النار .

وانتهت المهمة أخيراً ، دون أن يتفوها بكلمة . فالورق المشمع ، والملاءة ، والمنشفة التى مسحت فيها الأختان أيديهما ، ذهبت أيضاً فريسة اللهب . ثم قالت مارى ، بعد لأى ، بصوت متهدج مختنق :

– ما كنت لأطيق أن يلمس الغرباء هذا . . .

ثم اقتربت من برونيا :

– والآن ، قولى لى : كيف أعمل لأعيش . . إنى أشعر بأن هذا واجبى . ولكن كيف أؤديه ؟ وما العمل ؟.

وانهارت فى لجج من الزفرات ، والغصص ، والعبرات ، والنشيج ، والصراخ ، وتعلقت بأختها التى أسندتها . . وحاولت برونيا أن تهدئ من ثائرتها ، ثم نزعت عنها ثيابها ، ووضعت فى الفراش : هذه المخلوقة المسكينة ، الخائرة القوى . .

وفى اليوم التالى عادت مارى ، آلة أوتوماتيكية مثلجة ، كما كانت منذ ١٩ ابريل ... هذه الآلة الصماء ، ضمتها برونيا إلى صدرها ، وهى تصعد إلى قطار بولونيا . وستظل تلازمها ، أمداً طويلا ، صورة مارى جامدة بلا حراك ، على رصيف المحطة ، مجللة بقناع الحداد .

واستؤنف نوع من « الحياة العادية » ، فى هذا البيت ، الذى كان مطبوعاً بذكرى پيير ، حتى إنه ، إذا ما دق جرس الباب الخارجى أحياناً فى المساء ، يخيل إلى مارى ، بجنون ، مدى لحظة أو بعض لحظة ، أن الكارثة ليست إلا حلماً أو كابوساً ، وأن پيير كورى لايلبث أن يظهر . . . وعلى الوجوه ، الفتية والعجوز ، التى حولها ، يقرأ نوع من الانتظار : ينتظرون منها مشروعات ، وخطة للمستقبل . فهذه المرأة ، التى كانت فى الثامنة والثلاثين ، والتى قصم الحزن ظهرها هى الآن كبيرة أسرة .

فاتخذت قراراتها : أن تبقى فى باريس طول الصيف ، حتى تتردد

على المعمل ، وتعد الدروس التى ستبدأ فى نوفمبر . فمحاضراتها فى السوربون ينبغى أن تكون جديرة ببيير كورى ، مادامت تلقى من فوق كرسيه . فجمعت مارى كراساتها وكتبها ، وعبرت المذكرات التى تركها العالم . . واستغرقت مدة أخرى فى الدرس .

وفى خلال إجازة الصيف الحزينة ، فاتت الطفلة « إيف » فى سان ريمى بوادى شفريز مع جدها . وكانت « ايرين » على شاطىء البحر مع خالتها « هيلا » ، التى جاءت لتقضى الصيف فى فرنسا ، جالبة معها من بولونيا حنانها وحبها .

وفى الخريف ، لم تعد مارى تحتمل البقاء فى بيت شارع كلرمان ، فراحت تبحث عن مسكن جديد . أرادت أن تقطن ضاحية « صو » . حيث كان بيير يعيش ، قبل أن تلقاه . وحيث يثوى الآن ويستريح .

وعندما عرضت مسألة النقل ، تقدم الدكتور كورى الشيخ فى خجل ، وربما كان لأول مرة فى حياته ، من زوجة ابنه ، وقال :

– والآن يامارى ، إذا لم يبق بيير ، لا أرى سبباً يدعوك إلى السكنى مع شيخ هرم . أستطيع أن أذهب فأعيش وحدى ، أو مع ولدى الكبير جاك . . فقررى ما تريدين ! . .

فتمتمت مارى :

– لا . أنت الذى يقرر ! . . فإن ذهابك يسبب لى الألم . ولكن عليك أن تختار ما يطيب لك .

وكان صوتها مضطرباً من الجزع . هل تراها ستخسر أيضاً هذا الصديق ، هذا الخل الوفى ؟ من الطبيعى أن يذهب الدكتور كورى ليعيش مع جاك ، بدلا من أن يبقى معها هى ، هى الأجنبية ، البولونية . .

ولكن جاءها الرد الذى تتمناه :

– إن ماأوثره يا مارى : هو البقاء معك دائماً . .

ثم تحول الشيخ مسرعاً إلى الحديقة ، حيث كانت تناديه صيحات إيرين السعيدة . .

أرملة ، وشيخ فى التاسعة والسبعين ، وصبية ، وطفلة . . هذه هى الآن أسرة كورى .

* * *

« مدام كورى ، أرملة العالم العظيم ، الذى مات تلك الميتة الفاجعة ، والتى عينت أستاذا فى كرسى زوجها بالسوربون ، ستلقى ، فى منتصف الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الاثنين ٥ من نوفمبر ١٩٠٦ : **درسها الأول** ...

وتبسط مدام كورى ، فى محاضرتها الافتتاحية ، نظرية الأيونات فى الغاز ، وتعالج موضوع « **النشاط الاشعاعى** » ...

وستكون محاضرة مدام كورى فى « مدرج مدرسى » ، وهذه المدرجات تحوى نحو مئة وعشرين محلا ، سيشغل أكثرها الطلاب . والجمهور والصحافة ، وكلاهما له بعض الحقوق أيضا ، سيتقاسمان عشرين محلا على الأكثر !.. وفى هذا الظرف الفذ فى تاريخ السوربون ، ألم يكن يحسن تيسير اللوائح ، بحيث يوضع تحت تصرف مدام كورى ، فى محاضراتها الأولى على الأقل ، المدرج الكبير ؟... » .

هذه العبارات المقتبسة من صحف ذلك العهد تدل على اهتمام باريس وشدة تلهفها على رؤية « الأرملة المشهورة » تواجه الجمهور لأول مرة . فالصحفيون ، والأعيان ، وجميلات النساء ، والفنانون ، حاصروا سكرتيرية كلية العلوم متذمرين من ألا تعطى لهم « تذاكر دعوة » ! . . ولم يكونوا فى هذا مدفوعين برغبة التعلم والتثقف ،

فما أقل اهتمامهم بـ « نظرية الأيونات فى الغاز » . . ولم تكن آلام مارى فى ذلك اليوم العصيب إلا محركاً آخر لشهيتهم وفضولهم . فللحزن أيضاً محدّثون ! . .

امرأة ستتكلم لأول مرة فى السوربون . . امرأة . . . وهى فى الوقت نفسه عبقرية ، وزوجة كسيرة القلب. أليس فى هذا مايكفى لاجتذاب رواد الليالى التمثيلية الأولى وحفلات الافتتاح ؟ .

وعند الظهر ، عندما كانت مارى واقفة ، خاشعة ، أمام قبر زوجها ، فى ضاحية « صو » ، تحدث ، بصوت خافت ، ذاك الذى ستخلفه اليوم . . كانت قاعة المدرج الصغير تغص بالحضور ، الذين ملأوا ردهات كلية العلوم وبماشيها ، وفاضوا حتى غطوا ساحة السوربون وكنت ترى فى القاعة : الجهلاء إلى جانب فطاحل العلماء ، وأصدقاء مارى الحميمين منثورين بين المتفرجين . . وكانت القسمة الضيزى قسمة الطلبة « الحقيقيين » ؛ الذين جاءوا يتتبعون الدرس ، ويدونون المذكرات ، وكان عليهم الالتصاق بالمقاعد متشبثين ، حتى لا يزحزحوا عنها . .

الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرون . ضجيج الحديث يشتد ويحتد : همسات . . . أسئلة . . . استفهامات . . . أعناق تمتد حتى لايفوتها شىء من هيئة مدام كورى وهى داخلة . وكل الذين هناك كان يشغلهم فكر واحد : ماهى العبارات الأولى التى ينطق بها « الأستاذ » الجديد ؟ . . العبارات الأولى للمرأة الوحيدة التى سمح بها السوربون أبداً أن تكون بين أساتذته ؟ ! أتراها ستشكر الوزير ، وتثنى على الجامعة ؟ . أتراها ستتحدث عن پيير كورى ؟ . . أجل ،

بلا ريب . . فان العرف جرى بأن الخلف يطرى السلف . . ولكن السلف هنا ، زوج ، ورفيق فى العمل . ياله من مركز حرج ! . . ويالهـا من لحظة مثيرة ، فريدة ! . .

الساعة الواحدة والنصف : فتح الباب الخلفى ، وأخذت مدام كورى مكانها بين عاصفة من التصفيق . فأحنت رأسها فى حركة قصيرة جافة ، تقصد بها التحية . ثم وقفت ، ويداها تضغطان بقوة على المنضدة الطويلة المحملة بالأجهزة . . . وانتظرت مارى أن يكف الهتاف . فكف دفعة واحدة إزاء هذه المرأة الشاحبة ، وحمل تأثر مجهول على الصمت : جمهوراً جاء يتفرج على معرض . .

فنظرت مارى إلى ما أمامها . . وقالت :

« ــ عندما نستعرض التقدم ، الذى بلغته الطبيعة منذ عشر سنوات ، يدهشنا التطور الذى طرأ على أفكارنا من جهة الكهربائية والمادة . . . » .

استأنفت مارى كورى المحاضرة بنفس الجملة التى وقف عندها پيير كورى . فأى شىء يمكن أن يكون مثيراً ، يقبض القلوب ، فى تلك الكلمات الباردة : « عندما نستعرض التقدم الذى بلغته الطبيعة » حتى تطفر الدموع من العيون ، وتخضل الوجوه ؟ . .

وبذات الصوت الثابت ، المتشابه مضت العالمة ، ذلك اليوم ، فى درسها ، حتى النهاية . فتحدثت عن : نظريات جديدة فى تيار الكهربائية ، والتحليل الذرى ، وأجسام النشاط الإشعاعى . .

بعدما بلغت غاية استعراضها الجاف ، دون هوادة ، انسحبت من الباب الصغير الخلفى ، مسرعة ، كما دخلت . .

الجزء الثالث

الفصل التاسع عشر

وحــــدها

أعجبنا بماري ، عندما كان يظاهرها رجل نابغ ، فاستطاعت ، في وقت واحد : أن تدبر منزلها ، وأن تشترك في مهمة علمية عظيمة . ولم نتوقع أنها ستضطلع ، يوماً ما ، بحياة أشق من هذه الحياة ، أو أنها ستقوم بجهد أعظم من هذا الجهد . إن هذه الحياة تعد ناعمة ، إذا قورنت بالحياة المقبلة التي تنتظرها ! فإن مسئوليات « مدام كوري الأرملة » ،حقيقة بأن تروع رجلا قوياً ، سعيداً ، جريئاً .

فعليها أن تربي بنتين . وأن تكسب حياتهما وحياتها ، وأن تحتفظ بكرسي الأستاذية احتفاظاً عالياً . وعليها ، وقد حرمت من عون بيير كوري الثمين ، أن تستمر في البحوث التي بدأتها معه . . ولابد لمساعديها وتلاميذها أن يتلقوا منها الأمر والمشورة . وتبقى ، بعد هذا كله ، مهمة أساسية : أن تشيد معملا ، جديراً بأحلام بيير الخائبة ، حيث يجد شباب البحاث ، ورواد المعرفة ، مجالا للتقدم بعلم « النشاط الإشعاعي » الجديد . . .

وكان أول ماعنيت به ماري : إيجاد مسكن صحي لبنتيها وحميها ، فاستأجرت فيلا بضاحية « صو » ، خص منها الدكتور كوري الشيخ

بجناح مستقل . واتخذت إيرين وإيف من حديقتها مسرحاً وملعباً .
وزادت متاعب مدام كورى ، إذ كان عليها أن تقضى نصف ساعة
فى القطار إلى معملها . فتسرع ، وتصعد إلى عربة الدرجة الثانية .
فى هذا القطار الكريه الرائحة ، وقلما تجد من وقتها ما يسمح لها
بالعودة للغداء فى « صو » . فأعادت صلاتها بحوانيت اللبن Les Cremières
فى الحى اللاتينى تلك التى كانت تدخلها وحيدة ، كما تدخل اليوم
ولكنها كانت شابة ، وكانت ممتلئة بأمل بسام ، وقلب خلى لايبالى...
أو كانت تكتفى وهى رائحة غادية فى معملها بأن تقضم كسرة خبز
وبعض الفاكهة . وتعود مساء متأخرة ، فتنظم النار فى المصطلى ، بيد
الفنانة الكيميائية العارفة بسر النار واللهب ، ثم تلقى بنفسها على الأريكة
« الكنبة » ، تتنفس من ضنى نهارها . .

وكانت من التحفظ والتحرز بحيث لاتبدى حزنها ، فلا تبكى
أبداً أمام أحد ، وتأبى الشكوى أو العزاء . ولا تفضى إلى أحد
بأزمات يأسها ، ولا بلياليها المعذبة التى تملأها الأشباح المفزعة .
وكان يحدث ، فى الحين بعد الحين ، أن تخونها قواها ، فتقع ،
فى قاعة المائدة ، مغمى عليها . . .

ولم تكن من جهة المال فى ضائقة . فهى تكسب ما يكفى لتربية
أولادها ، وإن كانت قد تواضعت فى عيشها ، عما كانت عليه
مع زوجها . واستعانت بمربيات بولونيات ، خففن عنها بعض أعبائها .
لكنها وجدت خير حليف لها فى الدكتور كورى الشيخ ، فهو رغم
فاجعته فى ابنه بيير ، لم يترك نفسه تذهب فى الحزن شعاعاً . فهو

يحتقر الأسى الذى لافائدة منه ، ويزدرى النحيب على القبور . فلم يذهب قط بعد الدفن إلى المقبرة . ومادام بيير لم يعد ، ولن يعود ، فهو يأبى أن يعذب نفسه بشبحه ! . . .

وكما كان محضره ملطفاً لعيش مارى ، كان أيضاً فرحة البنتين ، ولولا هذا الشيخ العجوز ، ذو العينين الزرقاوين ، لخنق الحداد طفولتهما ، فضلا عن غياب أمهما عن البيت دائماً فى ذلك « **المعمل** » ، الذى لايفتأ اسمه يتكرر على سمعهما . فهذا الشيخ هو رفيق لعبهما ، وهو أستاذهما . وسيورث إيرين التوازن المعنوى ، وكراهية الحزن ، والتعلق الشديد بالواقع ، والتحمس لفكتور هيجو . وإيرين عنده تشبه ولده الراحل شبهاً غريباً . وقد أحاطت مدام كورى هذا الشيخ الفاضل بكل عطف ومحبة ، عندما أصيب باحتقان فى الرئة ، ألزمه الفراش عاماً كاملا ، فقضت كل أوقات فراغها إلى جانب هذا المريض ، المتعنت النافد الصبر تحاول أن تروح عنه ، حتى قضى نحبه فى ٢٥ فبراير ١٩١٠ .

وفى مقبرة « صو » التى عراها الشتاء وجمدها ، طلبت مارى من حفارى القبور ، أن يخرجوا تابوت بيير كورى أولا ، ثم يضعوا تابوت والده الشيخ فى آخر القبر ويعيدوا تابوت زوجها ، حتى إذا ما جاء دورها ، وضعوا تابوتها إلى جانبه ، فلا يفرق بينهما أحد . ووقفت ، تحدق بلا خوف ، فى المكان الخالى المعد لها ، تتأمله طويلا ! . .

* * *

وعنيت بتربية بنتيها عناية فائقة ، فسجلت فى مذكراتها ميل « إيرين » إلى « الإحصاء » ، و « إيف » إلى « الموسيقى » . . وكانت

ترسلهما إلى الهواء الطلق ، للسير مسافات طويلة ، على الأقدام ، أو بالدراجة ، وتمرنهما على فلاحة الأرض والطهى ، والخيـــاطة . وكانتا تقضيان إجازة الصيف مع خالتهما « هيلا » التى تجئ خصيصاً من بولونيا . وسافرتا لأول مرة إلى بولونيا فى ١٩٠٠ ، حيث استقبلتهما برونيا فى مصحتها ، فتعلمتا ركوب الخيل ، وصعود الجبل .

ولم تكن أمهما تريد لهما حياة رياضية مندفعة ، بلا تعقل ، إلى البهلوانية ، ولكن حياة خشنة ، فلن تسمح لإيرين أو لإيف أن « تخافا من الظلام » ، أو أن تخفيا الرأس تحت الوسادة ، عندما يرعد الرعد ويبرق البرق ، أو أن تخشيا اللصوص أو الأوبئة . فقد عرفت مارى يوماً ما هذه الآفات ، فجنبتها بنتيها . بل إن ذكرى حادث بيير لم تحملها على السهر عليهما فى خوف وحذر . فتركت الصغيرتين تخرجان وحدهما فى سن الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة ، ولا تلبثان أن تسافرا أيضاً دون حاشية . وكذلك كانت صحتهما المعنوية محل اهتمامها . حاولت أن تحفظهما من الأحلام ، والنجوى والحنين ، والإفراط فى الحساسية . واتخذت قراراً فريداً ، هو : « ألا تحدث اليتيمتين أبداً عن أبيهما » فبدلا من أن تغرقهما فى جو الأسى ، حرمتهما ، وحرمت نفسها معهما ، من التأثرات النبيلة .

وكذلك لم ترد توزيع قلبيهما بين وطنين ؛ فأرادت أن تتعلما البولونية ، وأن تحبا مسقط رأسها ، ولكن على أن تكونا فرنسيتين صميمتين فلا تتألمان عبثاً لشعب مضطهد !

وكانت مرتاحة بأن صغيرتيها لن تعرفا الطفولة المتعبة ، أو المراهقة

الشاقة ، أو الفتوة البائسة ، التى كانت نصيبها فى الحياة . بيد أنهما لم تكن تتمنى لهما عيشاً مترفاً ناعماً . ففى ظروف عادة ، سنحت لمارى الفرصة لتضمن لإيرين وإيف ثروة طائلة ، فلم تفعل . ولما أصبحت أرملة ، كان عليها أن تقرر : ماذا تفعل بجرام الرأديوم ، الذى حضرته هى وبيير بأيديهما ، وكان ملكاً حلالا لها . وعلى الرغم من نصائح الدكتور كورى الشيخ ، ومن رأى عدة أعضاء بمجلس اليتيمتين العائلى ، قررت أن تهب لمعملها هذا التراث الثمين الذى كان يساوى أكثر من مليون فرنك ذهباً ! . . (٤٠٫٠٠٠ جنيه مصرى !) .

وكان عندها أنه إذا كان الفقر مضنياً . فانه كذلك لامعنى للغنى الطائل المرهق ! . . وكان من الطبيعى السليم عندها : ضرورة أن تكسب ابنتاها ، فيما بعد ، عيشهما ! . .

وكان العيب الوحيد فى هذه التربية ، فى هذا البيت المغلق ، الذى لا يدخله إلا ثلاثة أو أربعة من أقرب المقربين . أنها تربية ينقصها ماجرى به العرف فى استقبال الناس ، من كلمات الرقة ، وإشارات اللطف ، والانحناء ، والظرف . فظلت الفتاتان تجهلان ذلك ، عشرة أعوام ، أو عشرين عاماً ، إلى أن ترغمهما حياة المجتمع على معرفته وقبوله ، ولو كرهتا . .

وكانت تلك المخلوقة ، التى تخشى على بنتيها : العواطف الحنون والرقة ، والتفانى فى المحبة ، كانت هى نفسها للحنان والحب مثالا ، فأرادت أن تجنبهما عذابها . ولم تكن تطبق فى بيتها العقوبات المعروفة : « كالتذنيب فى ركن الغرفة » ، أو « الحرمان من الحلوى » . وكذلك

كان لا يعرف فى بيتها الصياح ، لا فى الغضب ولا فى الفرح ، فقلما رفعت إحدى البنتين صوتها . فى ذات يوم أذنبت إيرين ، فأرادت أمها أن تعاقبها ، فحرمت على نفسها أن تخاطبها مدى يومين . وكانت هذه الساعات أشد على الأم منها على البنت ! فكأنها كانت قد عاقبت نفسها . تهيم فى البيت الكئيب على وجهها ، تتألم بأكثر مما تتألم بنتها .

وكانتا تخاطبانها : «مه شيرى» .. «مه الحلوة » !.. أو «حلوتى» .. وكان صوت هذه الأم الحلوة الرءوم « مه » ؛ لايكاد يسمع . . فهى تخاطبهما فى شبه استحياء . . لاتريد أن تخافا منها ، ولا أن تعجبا بها.. « مه » الرقيقة هذه ، ظلت ، على مدى السنين ، متجنبة تماماً أن تعرّف بنتيها أنها أم أسرة كغيرها . أو أنها « أستاذ » محطم تحت أعباء حاجة العيش اليومية ، بل أرادتهما أيضاً على أن تظلا تجهلان أنها أندر مخلوقة على سطح الأرض . . .

ولم يحدث أبداً أن حاولت مارى أن تُزْهى كريمتاها بعملها ، ومجدها . وكيف يمكن أن يخطر ذلك ببالها ، وهى ، أمام مهمتها العظمى ، ليست إلا مثال التردد والاستسلام والمذلة ! ؟ . .

من مارى كورى إلى «هانيا »(بنت أختها هيلا) — ٦ يناير ١٩١٣ :

(... تكتبين الى انك تتمنين لو انك عشت منذ قرن من الزمان !.. فى حين ان « ايرين » تؤكد لى تفضيلها العيش فيما يستقبل من الازمان ، فى الاجيال القادمة ، واظن انه يمكن ان يحيا الانسان ، فى العهدين ، حياة طيبة نافعة . وما ينبغى لنا هو : ألا نفسد الحياة على انفسنا ، وان نستطيع ان نقول :

« لقد عملنا ما استطعنا عمله » . وهذا كل ما يمكن ان نطالب به ، وهو أيضا الشيء الوحيد ، الخليق بأن يحمل الينا بعض الهناء .

فى الربيع المـاضى ، ربت ابنتاى دود القز . وكنت مازلت مريضة جدا ، فظللت ، مدى اسابيع ، فى حالة عجزى الاضطرارى ، اراقب طويلا تكوين الشرانق ، باهتمام عظيم . فهـذه الديدان الشـديدة الهمة ، الموفورة الذمة ، تعمل بكل قوى ارادتها وثباتها ومواظبتها ، مما أدهشنى حقا . وأنا ، وان كنت أقل منها استعدادا للنظام ، فانى ايضا عملت مثلها : ونسجت على منوالها ، فى صبر ، نحو هدف واحد . وقد فعلت ذلك ، دون أقل معين من اليقين بأن الحقيقة كانت هناك ، عالمة بأن الحياة برق خلب ، ووهم قلب ، وانها لا تترك وراءها شيئا ، وان غيرنا من النـاس يراها على الضد مما نرأها تماما . وقـد فعلت ذلك بلاشك ، لأن شيئا يرغمنى عليه ، كما أن دودة القز مرغمة على نسج خيوطها ... وهى ، هذه المسكينة ، مضطرة الى أن تبدأ هذا النسج ، حتى ولو استحال عليها اتمامه ، عاملة بنفس العناية ، وبنفس الهمـة الصبور ... واذا لم تبـلغ غاية مهمتها ، ماتت الى غير بعث أو نشور ، وبغير جزاء أو شكور ...

فهيا ، يا عزيزتى هانيا ، لينسـج كل منا خيوطه ، دون أن يسأل عن السبب ، أو يتساءل : ما الغاية ؟ او اين النهاية !.. »

الفصل العشرون

انتصارات وتجارب

امرأة شاحبة جداً ، نحيلة جداً ، بدأ وجهها ينجعد شيئاً ، وتحول شعرها الأشقر فجأة إلى المشيب ، تدخل ، كل صباح ، فى معمل شارع كوفييه ، الذى بنته الجامعة موقتاً ، وترتدى (مريلة) من التيل الثقيل ، تغطى بها ثوبها الأسود ، وتبدأ تعمل .

وكانت مارى ، فى تلك الحقبة العابسة من حياتها ، لم تتبين أن جمالها قد بلغ ذروة اكتماله . وقد قيل : « إن الناس ، كلما تقدمت بهم السن ، تكون لهم الوجوه التى يستحقونها ! » . . فما أصدق هذا القول ، وانطباقه على مدام كورى ! . . فإذا كانت الفتاة المراهقة « لطيفة » ليس غير ، وإذا كانت الطالبة والزوجة الشابة على كثير من الرشاقة ، فان العالمة ، الناضجة ، المحطمة ، قد أصبحت اليوم ذات جمال فتان . ولم يكن وجهها السلافى ، الذى تضيئه حياة العقل ، فى حاجة إلى تلك الزخارف السطحية : كالنضارة والبهجة . . فلمحة البسالة الحزينة ، وتداعى البدن ، هما ، بعد الأربعين بقليل ، زينتها النبيلة . وهى ستبقى بهذا المظهر المثالى فى عينى إيرين وإيف ، مدى السنين الطوال ، إلى اليوم الذى تتبينان فيه ، بجزع ، أن أمهما قد أصبحت امرأة عجوزاً ، وهن العظم منها ، واشتعل الرأس شيباً . .

فهى « أستاذ » ، وهى « بحاثة » ، وهى « مدير معمل » .. تعمل بالهمة التى لاتعرف الكلل . فاستمرت تدرس فى « سيفر » ، وصارت بدروسها فى السوربون أول أستاذ فى ذلك الحين ، فى العالم كله ، يلقى محاضرات فى « النشاط الإشعاعى » .. تريد أن تساوى أولئك الأساتذة الذين بهروا مانيا سكلودوفسكى يوماً ما ! . .

ثم نشرت دروسها ، فى عام ١٩١٠ ، فى مجلد ضخم ، باسم « Traité de Radio-activité » ، ينتظم ٩٧١ صفحة ، فى هذا العلم الحديث ، الذى اكتشف بالأمس القريب ، على يديها وعلى يدى زوجها ! . . ولم تضع فى أوله صورتها ، بل صورة بيير كورى ، وكانت ، قبل ذلك بعامين اثنين ، قد حلت بهذه الصورة نفسها مجلداً آخر من ستمائة صفحة ، « Les œuvres de Pierre Curie » عن أعمال بيير كورى ، رتبتها ، وصححتها ، وقدمتها بقلمها .

* * *

وزاد عدد طلابها ومريديها . ووقف المحسن الأمريكى المشهور أندرو كارنيجى : « Andrew Carnegie » فى ١٩٠٧ : الأموال على بعثات سنوية عدة عند مارى كورى ، انضمت إلى المساعدين الذين تدفع لهم الجامعة مرتبات ، بخلاف المتطوعين للبحث . وكان بين هؤلاء : « موريس كورى » ، ابن « جاك كورى » ، قد بدأ فى المعمل مهنته العلمية ، وجعلت مارى تحنو عليه حنو الأم ، وتفخر به .

وراحت مارى كورى ، يساعدها معاون زوجها الأمين ،

وصديقه الوفى ، « أندريه دبيرن » ، تعمل على استخلاص عنصر الراديوم من أملاحه ، واستفراده نقياً ، وتعين وزنة الذرى ، فتلقى فى هذا السبيل عقبات كأداء ، حتى توفق إلى تحضير أول أنموذج دولى للراديوم . وكانت تلك الأنبوبة الخفيفة من الزجاج ، التى ختمتها مارى بيديها ، وهى جد متأثرة ، تحوى ٢١ ملجراماً من كلورور الراديوم النقى . . وستكون أنموذجاً لما يوزع فيما بعد من أنابيب فى القارات الخمس . وسيودع إيداعاً رسمياً مشهوداً فى « دار الموازين والمقاييس والمكاييل » فى سيفر ، قرب باريس .

* * *

وانهالت على الأرملة العظيمة شهادات الدكتوراه الشرفية ، وعضوية الأكاديميات الأجنبية من كل ناحية ، حتى ملأت أدراج بيت « صو » . وليس لدى فرنسا لتكريم العظماء فى حياتهم إلا شيئان: اللجيون دونور ، والأكاديمية . فمنحت مارى الوسام فى ١٩١٠ ، ولكنها فعلت ما فعله زوجها قبلها : رفضت قبوله .

ولكن لماذا لم تعارض أيضاً أولئك المتحمسين ، الذين جاءوا ، بعد شهور قليلة ، يحملونها على التقدم إلى أكاديمية العلوم ! ؟ أتراها نسيت ما تعرض له زوجها من فشل مُذل ؟! أم تراها جهلت مايحيط بها وبعملها من غيرة وحسد ؟ ! .

أجل ، إنها تجهل ! . وأيضاً ، وكأنها مازالت بولونية ساذجة ، خشيت أن تتهم بالادعاء أو الجحود ، لرفضها ماخيل إليها أن البلاد التى اختارتها وطناً ثانياً لها ، تقدمه إليها علامة تقدير عظيم لعلمها ! . .

وكان منافسها على العضوية « إدوار برانلى Branly » ، وهو عالم كبير ، وكاثوليكى مشهور . فقامت المعركة بين أنصار كورى وأنصار برانلى : بين أحرار الفكر وبين الإكليركيين . كيف يباح « **المجمع العلمى** » للنساء ؟ . . لقد بدأ النضال فى كل الساحات ! وشاهدت مارى ، فى عجز وقصور ، هذه المعارك ، التى لم تحسب لها حساباً . وكان أكبر العلماء فى صفها ، يدعون لها ، وعلى رأسهم : هنرى بوانكاريه ، والدكتور رو Roux ، وإميل بكار Picard والبروفسور ليبمان ، وبوتى Bouty ، وداربو Darboux .

ولكن المعسكر الثانى أعد دفاعاً قوياً :

« ليس للنساء أن يدخلن المجمع العلمى ! »

هذه الصيحة صدرت من أماجا Amagat ، الذى كان ، منذ ثمانى سنوات ، المنافس الموفق لبيير كورى ! . . وتطوع آخرون بالأكاذيب ، فذهبوا يؤكدون للكاثوليك : أن مارى يهودية ! . . ولعلهم راحوا يؤكدون لأحرار الفكر أنها كاثوليكية ! . . وفى ٢٣ يناير ١٩١١ ، يوم الانتخاب ، أعلن الرئيس ، بصوت عال ، مخاطباً الحجاب . وهو يفتح الجلسة :

« — دعوا كل الناس يدخلوا ، إلا النساء » ! . .

وكادت مارى تفوز بعضوية المجمع العلمى الفرنسى ، لولا فرق صوت واحد !.

ولكن يلوح ، فى تاريخ أسرة كورى ، أن العالم الخارجى الأجنبى هو الذى يصلح دائماً أخطاء فرنسا . ففى شهر ديسمبر من هذه السنة

نفسها ، ١٩١١ ، أرادت أكاديمية علوم ستوكهلم : أن تعترف بالأعمال المجيدة ، التى أدتها مدام كورى ، منذ موت زوجها ، فمنحتها جائزة نوبل الكبرى فى الكيمياء . ولم يحدث أبداً أن شرف قدر رجل أو امرأة بالحصول على مثل هذه الجائزة العالمية السنية مرتين ، كما شرفت ماري كورى ! .

فطلبت ماري من برونيا آن تجيء ، لتقوم وإياها بالرحلة إلى السويد كما استصحبت بنتها إيرين . . فحضرت الصغيرة الجلسة المشهودة . . وبعد أربع وعشرين سنة ، فى نفس هذه القاعة : ستحصل هذه الطفلة الصغيرة على هذه الجائزة نفسها ! . .

اكتشاف عظيم ، وشهرة عالمية ، وجائزتا نوبل : واحدة فى الطبيعة وواحدة فى « الكيمياء » ، قد حملت إلى ماري إعجاب كثيرين ، كما حملت بالطبع حقد كثيرين غيرهم . .

فهجم عليها السوء ، يريد أن يودى بها . واندفعت حملة شعواء فى باريس ضد هذه المرأة ، التى كانت فى الرابعة والأربعين ، ضعيفة واهنة ، حطمها الجهاد المتواصل .

ماري هذه ، التى اتخذت مهنة رجل ، قد اتخذت من الرجال : أصدقاءها ، وموضع أسرارها . فلا عجب أن كان لها أثرها فى هؤلاء الأصدقاء ، ولكنه أثر المعرفة والعبقرية ، لا أثر الحب والهوى والتغزل فى ضوء القمر ! . . فهى عالمة منقطعة لعلمها ، زاهدة ، متحفظة . وهى ، منذ بضع سنين ، فى حالة صحية تدعو إلى الرثاء لها ، والخوف

عليها ، فهى إذن آخر من يفسد بين الرجال وزوجاتهم ، أو يلوث الاسم الذى تفخر به وتعتز على جميع الأسماء .

كان هناك صحفيون تجرأوا على سب امرأة ، عزلاء من مثل أسلحتهم ، ولقد جاء أحدهم بعد ذلك يسألها الصفح والغفران ، نادماً باكياً ! . . . ولكن الجريمة ارتكبت ، ارتكبت حتى لم يعد بين مارى وبين الانتحار والجنون إلا خطوة . . وهى لم تخطها ، لأن مرضاً خطيراً جداً أقعدها ..

وكان شر هؤلاء القوم ، تتجلى خساسته فى ظروف كالتى رفضت فيها الأكاديمية الفرنسية ترشيح مدام كورى . فقد عيروها بأصلها ، ووصفوها تارة بالروسية ، وأخرى بالألمانية ، أو اليهودية ، أو البولونية ، فهى « الأجنبية » ، التى جاءت باريس « مربية أولاد » ، لتحصل على مكانة رفيعة تستغلها ! . .

أما عندما تتجلى مواهب مدام كورى للعيان ، ويقبل العلم فيشرفها ويكرمها ، فى بلاد أخرى ، فإننا نرى ، فى تلك الصحف نفسها ، وفوق توقيعات نفس المحررين ، وصفها بقولهم : « سفيرة فرنسا » ، « أنقى ممثلة لعبقرية جنسنا » ، « إنها مجدنا القومى » ! . . .

وبنفس الظلم : يوارون أصلها البولونى ، الذى هو من مفاخرها...

وهكذا وجدت مدام كورى سبباً آخر لكراهية الشهرة ، وداعياً يدعوها لمقت المجد .

* * *

وجاء ، فى مايو ١٩١٢ ، وفد من أساتذة بولونيا وعلمائها ، يلتمس من مارى العودة إلى بلادها ، بناء على رغبة أمتها كلها ، لتتولى

فى فارسوفيا مشروع معمل عظيم « **للنشاط الاشعاعى** » ، تكون هى مديرته . كانت تلك فرصة لها لتترك فرنسا ، وتتخلص من الأدنياء الذين أساءوا إليها ، وتولى ظهرها للظلم والقسوة والاتهام الزور . لكنها لاتصغى أبداً لنصائح الموجدة والنقمة ، بل تبحث بكل أمانة عن واجبها : أين يكون ؟ فترى أن تأسيس المعمل الذى طالما تمناه زوجها قد تقرر ، فهربها من باريس معناه القضاء على هذا الأمل ، وإخماد هذا الحلم العظيم .

ولكنها تسافر إلى بلادها ، فتحضر وضع الحجر الأساسى لمعهد الراديوم فى فارسوفيا ، الذى يعد من أعظم معاهد العالم ، وتحتفل بها أمتها كقديسة ، وتسافر من هناك إلى انجلترا وبلجيكا . . فتتقبل من جامعة برمنجهام درجة الدكتوراه الفخرية Docteur honoris causa

اسمع إليها كيف تصف الحفلة لابنتها إيرين :

(... لقد البسونى ثوبا جميلا أحمر ، له ثنايا خضر ، كزملائى العلماء الذين نالوا الدكتوراه .. وسمع كل منا خطبة صغيرة تعدد أعمالنا ، ثم أعلننا العميد ، واحدا بعد الآخر ، بحصولنا على الاجازة .

وعندئذ اخذنا مكاننا من المنصة ... ثم قمنا ، فسرنا فى موكب من جميع اساتذة هذه الجامعة ودكاترتها ، فى مثل أزيائنا ... وكان ذلك مسليا للنفوس ... وكان على أن أتعهد علنا بالمحافظة على قوانين جامعة برمنجهام وتقاليدها ! ...) .

فتحمست إيرين ، الصبية ، وكتبت إلى أمها :

(يا حبيبتى !.. انى أتعجل رؤيتك فى الثوب الجميل ، الأحمر ، ذى الثنايا الخضر .. لشد ما تكونين فيه فاتنة !.. ولكن هل احتفظت بهذا الثوب الجميل ، أو انهم اعاروك اياه مؤقتا ، أثناء الحفلة ؟ !) .

* * *

وفى فرنسا . . تلاشت الزوابع وتنوسيت وأصبحت العالمة الكبيرة فى ذروة المجد . ومضى الآن عامان على المهندس « نينو Nénot » وهو يبنى لها « **معهد الراديوم** » . على الأرض المخصصة له ، فى الشارع الذى أطلق عليه اسم « **« بيير كورى »** » ، فى الحى اللاتينى .

ولم يحدث هذا من تلقاء نفسه . فان الدكتور « رو » ، مدير معهد باستور ، أراد أن يؤسس لمارى كورى معملا .. فغارت الجامعة وتمسك السوربون بها . . وتم الاتفاق بين الدكتور « رو » والعميد ليار Liard ، على دفع ٤٠٠٫٠٠٠ فرنك ذهباً ، من كل من : الجامعة ، ومعهد باستور ، لتأسيس **معهد الراديوم** ، الذى يتكون من بناءين : أحدهما « معمل » للنشاط الإشعاعى ، تحت إدارة مارى كورى . والثانى « معمل » للبحوث البيولوجية ، تحت رياسة عالم وطبيب عظيم ، هو البروفسور كلود ريجو Claude Regaud فينظم دراسات عن السرطان ، ويعالج المرضى به . وهذان المعهدان التوأمان ، يعملان متعاونين للتقدم بعلم الراديوم .

وبينا كان بناؤها العزيز يرتفع ، جاءها النبأ بأن مدرسة البلدية للطبيعة والكيمياء تبنى هى أيضاً قاعات جديدة ، ومدرجات للمحاضرات . . وأن السقيفة المشهورة — معمل بيير ومارى القديم — لاتلبث أن تسقط تحت معاول الهدم . . فأسرعت إلى شارع لومون ، لتودع السقيفة الوداع الأخير ، كانت لاتزال كما هى ، والسبورة السوداء ما زالت عليها بضعة سطور بخط بيير كورى . حملتها بعناية وتقديس . . وكأن الباب عندئذ سيفتح ، ويمر منه شخص طويل ، معروف ، محبوب :

« بيير ! ! » .

* * *

وغرست بيديها الأشجار فى حديقة المعهد ، لتنمو وتكبر عند افتتاحه . . وكان الزجاجون يغنون ويصفرون ، وهم يركبون الزجاج فى جميع أدوار البناء . . وكانت تُقرأ ، منذ الآن ، على باب مدخله ، هذه الكلمات ، منقوشة فى الحجر :

معهد الراديوم ـ بافيون كورى

وعلى الحيطان المتينة ، سجلت مارى كلمات باستور الخالدة :

« اذا كانت الفتوحات النافعة للانسانية تمس شغاف قلبك ، واذا كنت تقف مبهوراً أمام التلغراف الكهربى ، والتصوير الشمسى على النحاس ، والبنج ، وغيرهما من الاكتشافات الرائعة : اذا كنت غيورا على النصيب الذى تستطيع بلادك أن تدل به على ازدهار هذه العجائب ، فرجائى اليك اذن ان تهتم بهذه المساكن القدسية ، التى يطلق عليها اسم « المعامل » . وأطلب أن تضاعف وان تزخرف . . . فهى معابد المستقبل ، وهى الغنى والخير . . انه فيها يكبر وينمو كيان الانسانية ، ثم يقوى ويسمو . . انه فيها تتعلم الانسانية القراءة فى أعمال الطبيعة ، التى هى أعمال التقدم العالمى والانسجام ؛ فى حين ان اعمال الانسانية نفسها ليست ، غالبا ؛ الا أعمال : وحشية ؛ وتعصب ، وهدم ، وتخريب . . . »

وفى شهر يوليه الساطع ، تم بناء « معبد المستقبل » بشارع بيير كورى . . ولم يعد ينتظر غير : الراديوم ، والباحثين العاملين ، ومديرته . . .

بيد أن شهر يوليه هذا ، كان من عام ١٩١٤ .

الفصل الحادى والعشرون

الحـــرب

استأجرت مارى لفصل الصيف فيلا بمقاطعة بريتانى Bretagne .. وكانت ستلحق يوم ٣ أغسطس بإيرين وإيف ، اللتين سافرتا قبلها مع مربية وطاهية . فقد كان من عادتها البقاء فى باريس ، حتى تنتهى السنة الدراسية . فى الشقة الجديدة على رصفة بتون quai de Béthune تقضى فى المعمل نهارها ، وتعود فى ساعة متأخرة ، فتجد البوابة قد عنيت بالشقة ، كيفما كان . . .

من مارى إلى ابنتيها — فى أول أغسطس ١٩١٤

(عزيزتى ايرين ! عزيزتى ايف !. . الظاهر أن الأمور تسوء ؛ فنحن نتوقع تعبئة الجيش من لحظة الى اخرى . ولا أدرى هل أستطيع السفر أم لا ؟ لا تخافا ولا تحزنا ؛ فاذا لم تنشب الحرب ؛ جئتكما يوم الاثنين ؛ والا بقيت هنا ، واستدعيتكما ؛ عندما يكون ذلك فى الامكان . وسنجتهد ، أنا وانت يا ايرين ؛ فى ان نخدم البلاد . .)

٢ أغسطس :

(يا ابنتىّ العزيزتين ! بدأت التعبئة ، ودخل الألمان فرنسا ؛ دون اعلان حرب ؛ فلا يسهل علينا الاتصال خلال بضعة أيام .

باريس هادئة ، متجلدة ، رغم احزان الفراق . . .)

٦ أغسطس :

« يا عزيزتى ايرين ! وانا أيضا اريد احضارك هنا . ولكن هذا مستحيل الى حين . فصبر جميل . .

يجتاز الألمان البلجيك بحد السلاح ، فلم تقبل بلجيكا ، الصغيرة ، الباسلة ، أن تدعهم يمرون ، دون دفاع عن نفسها . . . الفرنسيون جميعا يؤمنون بالنتيجة ، وان كانوا يعتقدون ان الصراع شديد .

بولونيا محتلة بالألمان . فماذا يبقى منها بعد مرورهم ؟ . . لا علم لى بشيء عن أسرتى . .)

أحاط بمارى فراغ غير مألوف ، فان زملاءها ، وكل العاملين حولها ، قد لحقوا بفرقهم . ولم يبق إلى جانبها غير الميكانيكى : لويس راجو ، الذى رفض تجنيده لضعف فى القلب ، وخادم قصيرة القامة ، طول قبضة اليد !

ونسيت البولونية أن فرنسا ليست إلا وطنها المختار ، فلم تفكر الأم فى السعى إلى أطفالها . والمخلوقة المريضة ، الواهنة ، قد احتقرت آلامها وأوجاعها ، كما أن العالمة ، قد عطلت أشغالها وبحوثها . ولم يعد يشغلها غير فكر واحد : أن تخدم وطنها الثانى . وفى هذا الظرف العصيب برزت مرة أخرى مواهبها ، وابتكاراتها .

هى لاتبحث عن الحلول السهلة . . فتغلق معملها ، لتصبح مثل كثيرات من الفرنسيات الباسلات ، ممرضة ذات خمار أبيض . كلا ! لقد بحثت من فورها ، حتى وجدت نقصاً فى الخدمة الطبية ، لايشغل بال أولياء الأمور ، فى حين أنه بدا لها فاجعاً ، فان المستشفيات سواء منها ما كان فى الميدان وما كان فى المؤخرة ، محرومة تقريباً من أجهزة الأشعة « السينية » ! . .

ومن المعروف أن اكتشاف رونتجن فى ١٨٩٥ أشعة X هذه ، قد قدم للجراحة عوناً كبيراً ؛ إذ كشف عن « داخل » جسم الإنسان ، ومكن الجراح من أن يرى ويصور العظام والأعضاء . وفى عام ١٩١٤ لم يكن فى فرنسا غير عدد محدود من أجهزة رونتجن ، يستخدمها أطباء الأشعة . ولم تزوّد الخدمة الطبية العسكرية بهذا الجهاز إلا بعض المراكز الكبرى ، التى اعتبرت جديرة بهذا الترف ! . .

وكيف يكون « ترفاً » ، هذا الجهاز السحرى ، الذى يمكن بفضله اكتشاف رصاصة البندقية أو شظية القنبلة فى الجرح ، ويمكن به أيضاً تحديد موضعها وعزلها ؟ !

فأدركت مارى ، ببصيرتها العلمية النافذة ، الحاجة الماسة إلى استخدام الأشعة السينية ، وإلى تأسيس مراكز ومراكز للكشف بها فى سرعة . وفى بضع ساعات أحصت الأجهزة الموجودة فى معامل الجامعة ، بما فيها جهازها ، وقامت بجولة عند صناعها ، وجمعت كل ما أمكن جمعه من قطع الأجهزة ، لتوزيعها على مستشفيات منطقة باريس . واختير المتطوعون ، لإدارة أجهزة الأشعة هذه ، من بين الأساتذة ، والمهندسين ، والعلماء .

ولكن كيف السبيل إلى نجدة الجرحى ، الذين يتوافدون أفواجا ، بصورة فظيعة ، فى عربات الإسعاف ، المجردة حتى من « الأبريزة » التى يمكن فيها تركيب الجهاز ؟ . .

وجدت مدام كورى حلا ، فقد أسست على نفقة الاتحاد النسوى الفرنسى أول « عربة أشعة » ، وكانت سيارة عادية ، فزودتها بجهاز

رونتجن و « دينامو » يعمل بادارة محرك السيارة ، ويزود الجهاز بالتيار اللازم . وكان هذا المركز المتحرك الكامل ، يدور من مستشفى إلى مستشفى منذ أغسطس ١٩١٤ . وقد كفل وحده الكشف عن الجرحى ، الذين أرسلوا إلى باريس خلال معركة المارن الكبرى ! . .

* * *

وكان تقدم الألمان السريع ، قد جعل مارى ، إزاء ضميرها ، فى موقف حرج ؛ فهل تلحق بابنتيها فى إقليم « بريتانى » أو تبقى فى باريس ؟ . . وإذا هدد الغزاة العاصمة ، فهل تتبع الخدمة الطبية فى تقهقرها ؟

استعرضت بهدوء هذه الاحتمالات ، وقررت البقاء فى باريس مهما يكن من أحداث . هذه المرأة العنيدة ، الشديدة المراس . لاتحب الحرب . إن من يشعر بالخوف يخدم أعداءه . . .

من مارى إلى إيرين — ٢٨ أغسطس ١٩١٤ :

(بدانا نواجه احتمال حصار باريس ، فاذا حدث ذلك تقطعت بنا الأسباب فعليك اذن ان تتحلى بشجاعة ؛ لأن رغباتنا الذاتية ليست شيئا مذكورا ، الى جانب النضال العظيم ، الدائر الرحى منذ الآن . وعليك أن تحسى بما عليك من تبعة ازاء اختك ، وان تسهرى عليها ، ان قدر علينا الافتراق طويلا .)

. . . . . ٢٩ أغسطس

(ياعزيزتى ايرين : لاشىء يدل على ان المواصلات ستنقطع بيننا حتما ، ولكنى حرصت على أن اقول لك ان علينا ان نستعد لكل الاحتمالات ؛ فان باريس قريبة من الحدود ، بحيث لا يبعد

على الألمان الدنو منها ، وهو مالا يحول بيننا وبين الرجاء فى انتصار فرنسا النهائى . وعلى ذلك : شجاعة وثقة ! .. فكرى فى دورك : دور الأخت الكبيرة ، وقد آن ان تحملى ذلك على محمل الجد .)

...... ٣١ أغسطس :

(وصلتنى الآن رسالتك الرقيقة ، المؤرخة يوم السبت . ووجدت شوقا شديدا الى معانقتك : حتى كدت ابكى ...

ليست الأمور على ما يرام . نفوسنا قلقة حزينة ، وقلوبنا واجفة . ونحن فى حاجة الى شجاعة عظيمة . ورجائى الا تخوننا أو تعوزنا الشجاعة . وعلينا أن نثق بأنه بعد الأيام العصيبة سيصفو الجو ، ويطيب الزمان . وانى بهذا الأمل أضمكما الى صدرى ، يا ابنتى المحبوبتين) .

وإذا كانت مارى تستعرض العيش باطمئنان ، فى باريس المحاصرة المهددة بالمدافع ، المستهدفة للقنابل ، أو التى قد يغزوها عدوها ، ويقتحم أبوابها ، فان هناك كنزاً تريد أن تحميه من الغزاة ، هو **جرام الراديوم** الذى يملكه معملها . وهى لاتجرؤ على أن تعهد إلى أى رسول بهذا الكنز الثمين ، فقررت نقله بنفسها إلى بوردو .

وها هى ذى ، فى القطار الطافح بالشخصيات البارزة وموظفى الحكومة ، مزودة بصندوق ثقيل من حديد ، يضم الأنابيب الزجاجية الدقيقة ، التى تحوى جرام الراديوم . . فوجدت ، بمعجزة ، طرف أريكة « كنبة » ، ووضعت أمامها الطرد الحديدى . . وأعارت الأحاديث المتشائمة ، التى تضج بها مركبة القطار ، أذنا صماء ، ونظرت من النافذة إلى الريف الضاحى . . ولكن هناك أيضاً كل شىء يحدثها عن الهزيمة ، فعلى الطريق العام ، الذى يمتد إلى جانب خط

السكة الحديدية ، يجرى موكب لاينقطع ، لا آخر له ، من السيارات الهاربة نحو الغرب . . .

وقد اجتاح الفرنسيون مدينة بوردو . فلم يبق ثمة أثر للحمالين ، أو سيارات الأجرة ، أو غرف الفنادق . فظلت مارى ، والليل يدخل ، واقفة فى ساحة المحطة ، بجانب حملها الباهظ ، لاتجد القوة على حمله . والناس يدفعونها ، دون أن يخرجوها عن طبعها ، فتسلت بموقفها . . أتراها ستنتظر حتى الغد ، واقفة ، حارسة هذه الخزانة ، التى تساوى مليوناً من الفرنكات ؟ كلا ! فقد عرفها موظف بإحدى الوزارات ، رافقها فى السفر ، وانبرى لنجدتها . وحصل لها منقذها على غرفة فى شقة خاصة ، ووضع جرام الراديوم فى مأمن .

وفى الصباح ، أودعت مارى كنزها المتعب ، خزانة بنك ، وتخلصت منه ، وقصدت طريق باريس .

ولم يلفت ذهابها إلى بوردو أحداً . أما عودتها إلى العاصمة ، فأثارت التعليقات . . فازدحمت حلقة من الناس حول هذه العجيبة : « الست اللى راجعه هناك » ! . . فحافظت « الست » على إخفاء شخصيتها ، ولكنها تكلمت ، على غير عادتها ، وهدأت من مشاعر القلق ، مؤكدة أن باريس « ستقاوم » ، وليس على سكانها من خطر . وكان القطار ، الذى يحمل الجنود و « مدنيا واحداً ! . . » يسير فى بطء لايصدق ، ويقف مرات ، فى وسط الحقول ، مدى ساعات وتقبلت مارى من جندى كسرة خبز كبيرة ، فهى منذ غادرت أمس معملها ، لم تجد وقتاً لتناول الطعام ، حتى كادت تموت جوعاً .

باريس ، الصامتة ، المهددة ، لاحت لها ، فى ضوء سبتمبر البهيج ، أجمل وأغلى منها فى أى وقت مضى . كيف يمكن التفريط فى هذه الحلية الثمينة ؟ . . ولكن سرعان ماطرقت أذنيها الأخبار التى عصفت بها الشوارع : لقد كسر هجوم الألمـــان ، وبدأت معركة المارن !

من مارى إلى إيرين — ٦ سبتمبر ١٩١٤ :

(مسرح الحرب يتغير الآن فالظاهر أن العدو يبعد عن باريس ونحن جميعا ، يحدونا الأمل ، مؤمنون بالفوز النهائى .

مرنى الفتى فرنان شافانس على مسائل الطبيعة . فاذا كنت لا تستطيعين العمل لأجل فرنسا فى الوقت الحاضر ، فاعملى لأجل مستقبلها . وسيذهب كثير من الناس ، لسوء الطالع ، بغير رجعة ، من جراء هذه الحرب ، ولا بد من شغل أماكنهم والحلول محلهم . فأتقنى دراسة الرياضيات والطبيعيات ما استطعت . .)

لقد نجت باريس ! . . فاستردت مارى ابنتيها ، اللتين كانتا تحتجان بشدة على هذا النفى . وعادت إيف إلى كلية « دى سڤنييه » . والتحقت إيرين بمدرسة الممرضات ، لتحصل على الدبلوم ، دون أن تنقطع مع ذلك عن ممارسة الأشعة ، والتردد على السوربون . . .

* * *

وكان كل ماتكهنت به مدام كورى : أن الحرب ستطول ، وتكون مجزرة . فلا بد من عمل العمليات للجرحى ، حيث هم . . وأنه ينبغى للجراحين والاخصائيين فى الأشعة : أن يعملوا فى عربات الإسعاف بجبهة القتال ، حيث تستدعى سيارات الأشعة ، فتؤدى

خدمات لا تقدر . وكانوا يطلقون على تلك السيارات : **« كورى الصغيرة »** .
ولبت نداء مارى سيدات كريمات ، تبرعن بسياراتهن الفخمة ، كالمركيزة دى جاناى de Ganay ، والبرنسس مورا murat . . فصار تحت تصرفها عشرون سيارة ، واحتفظت لعملها الخاص بأقلها قيمة : سيارة عتيقة أشبه بسيارات النقل ! . . وأسست مئتى قاعة ثابتة للأشعة ، وزاد ما أنقذته من الأرواح ، وما رحمته من الأجساد ، ومن خلصتهم من الألم والعذاب ، على المليون . . .

وفى الأشهر الأولى من الحرب ، استشارت إيرين فى مسألة خطيرة ، قالت لابنتها :

ــ إن الحكومة تطلب من رعاياها الذهب ، ولا تلبث أن تطرح سندات القرض ، وسأعطى القليل الذى أملكه من الذهب ، وسأضيف إليه المداليات العلمية التى لا فائدة لى منها . وهناك شىء آخر ؛ فانى ، كسلا منى ، قد تركت فى ستوكهلم قيمة جائزة نوبل (للمرة الثانية) ــ وهى أعظم ما نملك ــ كورونات سويدية . فأريد أن أجىء بها ، وأوظفها فى سندات الحرب ؛ فالدولة بحاجة إلى ذلك . ولكننى لا أبنى على ذلك قصوراً من الأوهام ؛ فان ضياع هذا المال محتمل ، إن لم يكن مؤكداً . ولذلك لا أريد أن أرتكب مثل هذه « الحماقة » ، بغير موافقتك . . .

وتحولت « الكورونات » السويدية إلى « فرنكات » فرنسية ، وتحولت الفرنكات إلى « اشتراكات وطنية » ، و « تبرعات اختيارية » ، و « مساهمات دفاعية » ! . . و . . وظلت تتبخر شيئاً فشيئا ، كما

توقعت ماري . . وسلمت مدام كوري ماتملكه من قطع الذهب إلى بنك فرنسا ، فتقبلها الموظف ، ولكنه رفض ، بإباء واستنكار ، أن يرسل المداليات العلمية لتصهر فى سبائك ! . .

* * *

وكانت مهمتها الجديدة تجعلها على اتصال بمختلف الناس ؛ فكان بعض الجراحين الذين يعرفون مزايا أشعة **X** ، يعاملونها على أنها زميل كبير لهم ، والبعض الآخر من المبتدئين يتشككون ، إلى أن يعلموا . .

وكانت النساء الأنيقات ، المنتسبات إلى « الطبقة الراقية » ، واللواتى يطلق عليهن : « ملائكة المستشفيات الحارسات » ، ينظرن بازدراء إلى هذه المخلوقة ، المتواضعة فى لبسها ، والتى تهمل ذكر اسمها فيعاملنها أحياناً معاملة التابعة لهن ؛ . . وكانت مارى تتسلى بهذا الاحتقار ! . . ولكنها ، عندما كان يضايقها أحياناً غرور هؤلاء النسوة ، كانت تنقى روحها ، وتسرى عن نفسها ، بتذكرها ممرضة وجندياً يعملان فى هدوء معها بمستشفى « هوجستاد » ، يدعيان : « اليزابيث » و « ألبير » : هما ملكا البلجيك ! . .

وكانت مدام كورى أحن ماتكون على الجرحى ، ترى رعب الفلاحين والعمال وجزعهم من أجهزة أشعة رونتجن ، وتساؤلهم : هل الكشف بها سيؤلمهم ! ؟ فتطمئنهم : « سوف ترون ، إنه كالتصوير الفوتوغرافى » وكانت تبدى رقة وصبرا مدهشين . وكانت تبدى للحياة البشرية احتراماً مقدساً لا حد له . وستظل ذكرى ألوف الأجساد التى رأتها ممزقة ،

وذكرى الزفرات والعبرات والأنين ، تلقى ظلا كئيباً على حياتها ، زمناً مديداً . .

وقد فاجأتها طلقات مدافع الهدنة ، وهى فى معملها ، بمعهد الراديوم ، فخفت ، هى ومساعدتها « مارت كلاين Marthe Klein » ، تبحثان فى متاجر الحى عن رايات فرنسية ، فلم تجدا لها أثراً ، فألصقوا على زجاج النوافذ ورقاً من ثلاثة ألوان . وكانت مارى ترتجف متوترة الأعصاب من الفرح ، لا تكاد تستقر فى مكان . تخرج مع الآنسة كلاين فى « سيارة الأشعة » القديمة ، التى حطمتها أربع سنوات ، فى مجاهدة ومغامرة ، تسيران بها على غير هدى ، فى الشوارع ، ولما وصلتا ميدان الكونكورد ، حالت الجماهير دون تقدم السيارة ، وتعلق بعضهم بجانبيها ، واستقر آخرون على سطحها ! . .

كان هذا النصر لمارى : بمنزلة انتصارين ؛ فان بولونيا تنهض من أطلالها ، وبعد قرن ونصف قرن فى استعباد ، تسترد استقلالها ، فها هو ذا « **حلمها القومى** » قد تحقق ! .. حلمها الذى كادت تضحى فى سبيله ، منذ سنوات ، بمواهبها واستعدادها ، بل كادت تضحى أيضاً بحب بيير كورى ! .

من مارى إلى جوزيف سكلودوفسكى — ديسمبر ١٩٢٠ :

(هكذا ، نحن الذين ولدنا فى العبودية ، وكنا من المهد فى الأغلال ، وقد رأينا بعث وطننا الذى كان حلمنا ... وما كنا لنؤمل أن نعيش ، نحن أنفسنا ، الى ان نشهد هذه اللحظة . . بل خيل الينا أنها قد لاتتاح الا لأولادنا . وهاهى ذى !. حقا ان بلادنا

دفعت ثمنا غاليا فى هذا الهناء ، ولا يزال امامها ما تدفعه (١) . . .
ولكن ، أيمكن أن تقاس سحب الموقف الحاضر ، بالمرارة
والقنوط اللذين كانا سيخمدان انفاسنا ، لو ان بولونيا ظلت ، بعد
الحرب ، مقيدة ، ونهبا مقسما ؟ . . اننى مثلك ، اومن بالمستقبل »

وهذا الأمل ، وهذه الأحلام ، تعزّى مارى كورى عن مشاغلها الخاصة . فالحرب قد أخلت بعملها العلمى ، والحرب قد أبلت صحتها . والحرب قد خربتها ؛ فالنقود ، التى سلمتها للبلاد قد ذابت كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس . وعندما تستعرض حالتها المادية تشعر بالقلق والانزعاج . فهى قد جاوزت الخمسين ، وتكاد تكون فقيرة . ولكى تعيش ، وتعول ابنتيها لم يبق لها غير راتبها كأستاذ : اثنى عشر ألف فرنك فى السنة . فهل تمكنها قواها من متابعة التدريس ، وتكفل لها إدارة معملها خلال السنين التى مازالت تفصل بينها وبين سن التقاعد والمعاش ؟ .

وكافأت الدولة كثيرات من النساء بالأوسمة والنياشين . . . أما هى فمع ما كان لها من خدمات خلال الحرب : تلك الخدمات التى لا نظير لها فى تاريخ الدفاع الوطنى ، لم يفكر أحد فى أن يعلق صليباً صغيراً ، من صلبان الجنود ، على ثوبها ! . .

---

(١) تأمل أحكام القدر ، وما قدر لبولونيا فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) من دفع الثمن الفادح مرة أخرى ، وأى ثمن ! .. وما أغرب ما يعيد التاريخ نفسه ! وهكذا لا تقاس حياة الأمم بالشهور والسنين ، ولا يغلو الاستقلال ، ان دفع ثمنه ، بالمهج والأرواح ، جيلا بعد جيل ... « ص »

الفصل الثاني والعشرون

السلام

استرد العالم هدوءه . وكانت مارى ، وهى المرأة المثالية ، مفتونة طبعاً بمبادئ ويلسون ، مؤمنة بعصبة الأمم . وكانت تحلم بمعاهدة تمحو الغوائل والأحقاد حقا . وكانت تقول أحياناً : « إما أن يباد الألمان حتى آخر رجل منهم ، وهو مالا أدعو إليه ، وإما أن يعطوا صلحاً يستطيعون احتماله . . . »

وهى ، مع قيامها بدور عظيم فى الكفاح الجلل ، لم تصبح داعية حرب وكرب وتعصب . إنها العالمة ، التقية ، النقية ، الطاهرة العلم . . لذلك لانلبث أن نعود فنجدها ، فى ١٩١٩ ، على رأس معهدها ومعملها .

ومكنتها الحياة المطمئنة المنظمة من الاهتمام بمستقبل إيرين وإيف اللتين أصبحتا فتاتين قويتين ، وأصبحتا فى مثل طولها . أما الكبرى ، وهى طالبة ، فى الحادية والعشرين ، هادئة ، متزنة اتزاناً رائعاً ، فلم تتردد قط ، لحظة واحدة ، فى الحكم على استعدادها . تريد أن تكون عالمة بالطبيعة ، وتريد ، على وجه الدقة والتحديد ، أن تدرس الراديوم ، فسارت **ايرين كورى** ، ببساطة وبهجة جديرتين بالإعجاب ، فى الطريق الذى سلكه قبلها أبواها : بيير ومارى كورى ، لا تسأل عما إذا كانت مهمتها ستكون مثل مهمة أمها روعة ، أو دونها . . ولا تشعر بأنها مضطهدة . مثقلة بحمل اسم عظيم . . .

فحبها الخالص للعلم ، ومواهبها ، كلاهما يوحى إليها مطمعاً واحداً : أن تعمل ، مدى الحياة ، فى هذا المعمل الذى رأته يبنى حجراً حجراً ، والذى ستصبح فيه ، فى سنة ١٩١٨ ، ذات صفة رسمية : « Préparateur délégué » .

واحترمت مارى فى كريمتها الثانية «**ايف**» قلقها وتقلبها . فهى من الحكمة والتجربة بحيث لاتفرض على بنتيها سلطتها ، أو توجههما على رغمهما وجهتها ، واثقة بأنهما ستشقان طريقهما فى مفاوز الحياة ، دون تدخلها . وكانت تتمنى لو أصبحت إيف طبيبة تدرس تطبيق العلاج بالراديوم . ومع ذلك لم تفرض عليها هذا الاتجاه . وأيدت ، بتعاون وثيق ، كل مشروعات بنتها ونزواتها . وسرها أن تدرس الموسيقى وتركت لها اختيار أساتذتها ، وطرق عملها . . وتغدق مارى الحرية على مخلوقة تعذبها الشكوك ، وتتنازعها الحيرة ، مخلوقة كانت فى حاجة إلى أن تخضع لتوجيه حازم . وكيف تتبين هذه الأم غلطتها ، وهى التى دفعتها عبقرية فطرية لاتخيب نحو مصيرها ، مع ما كان يعترضها من عقبات هائلة فى طريقها ؟

إن حنانها سيسهر حتى النهاية على ابنتيها اللتين وضعتهما للدنيا ، أشد ما تكونان اختلافاً ، دون أن تبدى مطلقاً تفضيلا لإحداهما على الأخرى . ستجد إيرين وإيف فيها ، فى كل ظروف حياتهما ، أما تحمى ، وترعى ، وحليفة متحمسة كريمة . وعندما يجىء دور إيرين فيما بعد ، ويصبح لها أولاد ، ستحيط مارى هاتين الذريتين بعنايتها ورعايتها ، ومحبتها .

من مارى إلى إيرين ، وفردريك جوليو (كورى)[1] ٢٩ ديسمبر ١٩٢٨

(.. أبعث اليكما بأطيب تمنياتي لسنة جديدة سعيدة ، أى سنة طيبة فى الصحة ، طيبة فى الروح المعنوية ، طيبة فى العمل والدأب . سنة تجدان لذة العيش خلال كل يوم منها ، دون أن تنتظرا الأيام حتى تمر وتمضى ، لتجدا أنها كانت لذيذة ، ودون أن تدعا كل أمل الى لذات الأيام القادمة . وكلما تقدمت بالانسان السن ، زاد شعوره بأن معرفة التمتع بالحاضر هبة قيمة ، ونعمة ضافية ...

انى أفكر فى صغيرتك « هيلين » ، وأكوّن التمنيات لهناءتها . ما أشد ما تؤثر رؤية تطور هذه المخلوقة الصغيرة ، التى تتوقع كل شيء منك ، بثقة لا حد لهـا ، والتى تعتقد ، بالتأكيد ، أنك تستطيعين الحيلولة بينها وبين كل ألم !. وستعرف ، يوما ما ، أن سلطانك لا يمتد الى هذا الحد ، وان كان هذا ما يتمناه المرء لأولاده . غـير أنه ، مدين على الأقل ببذل كل جهـد ؛ ليمنحهم صحة جيدة ، وطفولة هادئة وادعة ، فى محيط الحنان والحب ليحظى طويلا بثقتهم ما استطاع ..)

من مارى إلى ابنتيها — فى ٣ سبتمبر ١٩١٩ :

(... كثيرا ما أفكر فى سنة العمل التى تفتح أبوابها أمامنا وكذلك أفكر فى كل واحـدة منكما ، وفيما يمكن أن تعطيانى من الصفاء والمباهج والمشاغـل . الحق أنكما لى بمثابة غنى طائل ؛ وأرجو أن تمنحنى الحياة بضع سنين طيبة نعيشها معا .)

---

(١) فردريك جوليو هو زوج « ايرين كورى » . وقد أضاف اسم كورى الى اسمه ؛ تخليدا لذلك الاسم المشرق العظيم فى تاريخ الطبيعة الحديثـة . لأن بيير كما رأينا لم يعقب ولدا ذكرا . وقد قام فردريك وزوجتـه ببحوث باهـرة فى النشاط الاشـعاعى الصناعى العجيب ، الذى يقذفه الراديوم ، كشفا عنها لأول مرة فى يناير ١٩٣٤ : فبهر بها العلماء وعدوها فتحا جديدا فى فيافى العلوم ، ونالا عليها جائزة نوبل فى (١٩٣٥ — ١٩٤٩) وهما الآن من أشهر علماء العالم . « س »

الفصل الثالث والعشرون

أمريكا

فى صباح يوم من أيام شهر مايو ١٩٢٠ : أدخلت سيدة إلى قاعة الانتظار بمعهد الراديوم ، وهى مسز وليام براون ميلونى «Mrs. W. B. Meloney» تتولى تحرير مجلة كبيرة فى نيويورك . وسألت السيدة الخادم التى فتحت لها الباب ، برجفة ، مشفقة من أن تكون مدام كورى قد نسيت الموعد الذى حددته لها !...

هى تنتظر هذا الموعد منذ سنوات ؛ لأن حياة مدام كورى وعملها ، كانا يبهرانها . ولما كانت هذه المرأة المثالية الأمريكية ، هى فى الوقت نفسه ، صحفية كبيرة ، فقد بذلت جهوداً مضنية للتقرب من معبودتها . وأوصلت إليها ، على يد عالم طبيعى من أصدقائها ، رسالة قالت لها فيها : إنها تتمنى ، منذ عشرين عاماً ، لو حدثتها بضع دقائق ! .

وفى اليوم التالى ، استقبلتها مارى فى معملها ، فكتبت مسز ميلونى هذا الوصف :

« .. فتح الباب ، ورأيتها داخلة : امرأة شاحبة ، حيية ، ذات وجه حزين ، ما رأيت فى حياتى وجها أشد منه حزنا .. وكان عليها ثوب قطنى أسود !.. وكان محياها الساحر ، الصبور ، الحنون ، يعبر عن ذلك الذهول والشرود الذى خص به البحاث . فشعرت ، فجأة ، بأننى متطفلة على جوها ، واغلة فى وقتها !..

وزاد خجلى على خجل مدام كورى . فمنذ أكثر من عشرين عاما وأنا صحفية محترفة ، صناعتى السؤال ، لكننى مع ذلك لم أجد سؤالا أوجهه الى هذه المراة العزلاء ، المرتدية ثوبا من قطن أسود ! .. فحاولت أن أبين لهـا أن الأمريكيات مهتمات بعملها العظيم ، وحاولت أن أعتذر لها عن تطفلى على وقتهـا الثمين . ولكى تسرى عنى مدام كورى ، بدأت الكلام عن أمريكا . فقالت :

– ان أمريكا تملك نحو خمسين جراما من الراديوم : أربعة فى بلتيمور ، وستة فى دنفر ، وسبعة فى نيويورك ...

ومضت تعدد ، مسمية مكان كل ذرة . فسألتها :

– وفى فرنسا ؟..

– معملى يملك أكثر قليلا من جرام واحد !

– أليس عندك سوى جرام من الراديوم ؟.

– أنا ؟.. أنا ليس عندى شىء مطلقا !... فهـذا الجرام ملك معملى ...

فأشرت الى حقـوق الاكتشاف ، والفوائد التى كانت تجنيها مدام كورى من ورائه ، فتجعل منها أغنى النساء ، فقالت بهدوء :

– لا يجوز أن يغنى الراديوم أحدا . هو عنصر ، فهو ملك لكل الناس ...

فاندفعت فى سؤالها :

– واذا كان لك أن تختارى من هذا العالم بأسره شيئا ، فما يكون هذا الشىء ؟ وكان سؤالا غبيا .. ولكنه كان سؤالا مقدرا ...

ففى هذا الأسبوع عرفت أن سعر الجرام من الراديوم فى السوق التجارية هو : مئة الف دولار ، (١٠٠,٠٠٠) كما عرفت أن معمل مدام كورى ، مع أنه بناء جديد ، لا يملك وسائل العمل الكافية ، وان الراديوم الموجود به موقوف على علاج المرضى ... »

فحدث ، ولا حرج ، عن دهشة هذه الأمريكية المثقفة . فهى قد زارت معامل الولايات المتحدة الفخمة ، مثل معامل أديسون التى

تشبه قصراً فخماً . وليس معهد الراديوم هذا بجانبها ، وإن كان جديداً إلا بناء متواضعاً ، بائساً ، على نسق الأبنية الجامعية الفرنسية . وكانت مسز ميلونى تعرف أيضاً مصانع بتسبرج التى يحضرون فيها أملاح الراديوم ، بكميات هائلة ، يتصاعد دخان أسود من مداخنها إلى أعلى الجو ، وتجرى بينها صفوف طويلة من العربات الحديدية المحملة بالمواد الخام ، التى يستخرج منها العنصر الثمين .

وها هى ذى الآن فى باريس ، فى مكتب تافه الأثاث ، وجهاً لوجه ، مع المرأة التى اكتشفت الراديوم ! . . فسألتها :

– ماذا تتمنين ؟

وتجيبها مدام كورى فى رقة :

– إنى فى حاجة إلى جرام من الراديوم ، لكى أتابع بحوثى ، ولكنى لا أستطيع شراءه ، فالراديوم غال جداً علىّ ! .

فوضعت مسز ميلونى تصميم مشروع مدهش : تريد أن يقدم بنات وطنها **جرام الراديوم** إلى مدام كورى . فلم تلبث ، بعد أن عادت إلى نيويورك ، أن ألفت لجنة ، كان من أعضائها فطاحل العالم الجديد ، ووجهت نداء الحملة الوطنية الخاصة « باعتماد راديوم مارى كورى » . Marie Curie Radium Fund

وقبل مضى عام على زيارتها « للمرأة ذات الثوب القطنى الأسود » ، كتبت إلى مدام كورى :

(وجد المال ! .. الراديوم بين يديك !) .

قدمت نساء أمريكا هذا العون الكريم ، وفى مقابله سألتها بلطف :

(لماذا لا تحضرين لرؤيتنا ؟ .. اننا نريد التعرف اليك) .

فترددت ماری . . . إنها دائماً تتجنب الزحام ، وهی خائفة . فكيف تتهجم على زيارة أمريكا هذه ، أولى بلاد العالم ظمأ إلى الإعلان؟!.

وحاولت مسز ميلونی أن تزيل اعتراضاتها ، واحداً بعد واحد :

– تقولين إنك لاتريدين أن تفارقی ابنتيك ؟.. إننا ندعوهما معك . وستكون برامج الاستقبالات معقولة ، محدودة . فتعالى ! . . لتقومی برحلة جميلة ، ويقدم إليك رئيس الولايات المتحدة بنفسه جرام الراديوم فی البيت الأبيض .

تأثرت مدام كوری ، وتغلبت على مخاوفها . وقبلت ، وهی فی الرابعة والخمسين من عمرها ، ولأول مرة فی حياتها : التزامات رحلة طويلة رسمية .

وكانت فتاتاها أشد ماتكونان افتتاناً بهذه المغامرة ، فأعدتا العدة لهـا . واضطرت إيف أمها إلى شراء ثوب أو ثوبين ، وأقنعتها بأن تترك فی باريس ثيابها الخلقة البالية المحبوبة ! . . وخجلت فرنسا من التكريم الكبير الذی ينتظر العالمة الفذة فی الجانب الآخر من المحيط . فمنحتها وسام اللجيون دونور ، فرفضته ماری كوری للمرة الثانية ! . . وطلبت ، بعد ذلك ، منحه لمسز ميلونی .

وظلت معتزلة فی « شقتها » الفخمة ، أفخم شقة بالباخرة «أوليمبيك» تقلقها ، ولا تمرضها ، تلك الأغوار العميقة من أوقيانوس خضم ، وتؤنسها مسز ميلونی ، الدمثة ، المتفانية ، الرقيقة الحاشية .

نيويورك : رشيقة ، جريئة ، فاتنة ، ظهرت فی ضباب جو جميل .. وجاءت مسز ميلونی تنذر ماری بأن الصحفيين ، والمصورين

الفوتوغرافيين ، ومصوري السينما ، في انتظارها . وكان جمهور لا نهاية له مكدساً على رصيف الميناء ، يترقب وصول العالمة . وكان المتطلعون يذرعون الأرض جيئة وذهابا ، منذ خمس ساعات ، قبل أن يلمحوا تلك الضيفة التي نوهت الصحف بمقدمها ، وأشادت بذكرها ، بأضخم حروف في صدرها ، مطلقة عليها اسم : « **المنعمة على الجنس الانساني** » . وكانت هناك فرق مجندة من المرشدات والتلميذات ، ووفد من ثلاثمئة امرأة ، يلوحن بالورود الحمراء والبيضاء ، يمثلن الجاليات البولونية في الولايات المتحدة . وكانت الألوان البهيجة للرايات الأمريكية ، والفرنسية ، والبولونية ، تخفق فوق ألوف الأكتاف المتزاحمة ، والأعناق المشرئبة ، والوجوه المتطلعة . .

وأجلسوا ماري على سطح الباخرة « أوليمبيك » الأعلى ، في مقعد كبير ، ورفعوا عنها قبعتها ، وأخذوا منها حقيبة يدها . وضج المصورون بأوامرهم ونواهيهم : « انظري هنا ، مدام كوري ! . . أديري رأسك إلى اليمين ! . ارفعي رأسك ! . . انظري هنا ! . . من هنا ! . إلى هنا ! . . » بأصوات تطغى على الدوي المتواصل لأربعين آلة فوتوغرافية وسينمائية ، مصفوفة في نصف دائرة ، مسددة ، تهدد وجهها الدهش العليل . .

* * *

لقد كانت مجهودات مدام كوري القاطعة في سبيل الاعتكاف في الظل ، قد وفقت بعض الشيء في فرنسا ؛ إذ نجحت في إقناع مواطنيها وأهليها ، بأن العالم الكبير ليس معناه : أن يكون شخصية بارزة . ولكن ما إن وصلت إلى نيويورك حتى سقط القناع ، وظهرت

الحقيقة . فاكتشفت إيرين وإيف ، بغتة . ما تمثله للكون تلك المرأة المنزوية ، التى عاشتا دائماً فى ظلها . .

إن الشعوب اللاتينية تعزو إلى الأمريكان العبقرية العملية ، وتحتفظ لنفسها ، فى غرور فريد ، باحتكار المثل الأعلى والحساسية . وها نحن أولاء قد رأينا كيف تكون المثالية العليا فى أمريكا عند قدوم مارى ؛ فإنهم لم يقدسوا فيها عبقريتها واكتشافها وحدهما ، وإنما قدسوا أيضاً احتقارها الكسب المادى ، وتفانيها فى الحياة الذهنية ، وتذوقها للخدمة العامة .

وأفعمت شقة مسز ميلونى بالأزهار ، التى جاء بها صاحب بستان كان قد شفاه الراديوم من سرطان ، فظل يربى بشغف ، منذ شهرين ، وروداً نادرة الوجود ، لا مثيل لجمالها ، ليقدمها إلى مارى .

وعقد مجلس حربى قرر برنامج الرحلة . فكل المدن ، وكل الكليات ، وكل الجامعات الأمريكية ، تدعو مدام كورى . . وقد انهالت عليها المداليات والألقاب الشرفية ، والدكتوراه الفخرية ، بالعشرات . .

وكانت مسز ميلونى تزعم أن مدام كورى قد أحضرت معها ثوبها الجامعى ، ولم تدر أن مدام كورى ، وهى الأستاذ الوحيد من جنسها النسوى ، قد تركت للرجال فرحة هذه الزينة ! . . فاستدعوا خياطاً ، على عجل ، ليفصل ثوباً جامعياً فخماً فضفاضاً من الحرير والقطيفة . . . ومارى نافدة الصبر ، تضيق بأكمامه الواسعة ، وتضجر

من ثقله ، وتشكو من لمس الحرير ، الذى يضايق أصابعها المسكينة ، التى براها الراديوم وأتلفها .

* * *

صبايا فى ثياب بيضاء . على طول الطرق المشمسة ، آلاف الصبايا يجرين على العشب الأخضر ، للقاء سيارة مدام كورى . . فتيات يلوحن بالرايات والأزهار ، يهتفن بالحياة ، ويرتلن الأناشيد . . تلك هى الرؤية الفاتنة ، التى كانت للأيام الأولى ، المخصصة للكليات النسوية : « سميث » ، « فاسار » ، « براين مور » ، « مونت هوليوك » . . ويالها من فكرة طيبة كريمة ، لإيناس مارى كورى بمزجها أول وصولها بهذه الشبيبة المتحمسة ، بهؤلاء التلميذات ، مثلها ! . .

ومرت مناوبات هذه الكليات نفسها ، بعد أسبوع من ذلك ، فى قاعة كارنيجى بنيويورك ، بمناسبة المظاهرة الهائلة التى أقامتها جمعية النساء الجامعيات . فانحنين أمام مارى ، وأخذن يقدمن إليها تارة زنبقة فرنسا ، وتارة وردة « أمريكان بيوتى » . . فى حضرة النخبة المختارة من الأساتذة الأمريكان ، وسفيرى فرنسا وبولونيا ، و « إينياس بادرفسكى » الموسيقار العالمى ، الذى جاء يصفق لرفيقة الأيام الخالية ، التى كانت تستمع إليه على البيانو فى شقة برونيا بشارع ألمانيا ، فى حى المذبح ، وذهبت مرة فعمرت صالته الخالية مع المعمرين [1] !

---

(١) نشرت « الأهرام » الغراء ، فى ١٥ يناير ١٩٤٣ ، برقية لمراسلها الخاص بنيويورك تقول : « يعد المستر بادرفسكى فى طليعة عازفى البيانو فى هذا القرن ، واكتسب من عزفه أكثر مما اكتسب أى عازف آخر . ونشرت مجلة « فاريتى » للمسرح والسينما والراديو : ان مجموع ما اكتسبه بادرفسكى بلغ مليونا ومئتين وخمسين ألف جنيه (١٫٢٥٠٫٠٠٠) أسترلينى ! . . » .

وتقبلت مدام كورى ألقاباً ، وجوائز ، ومداليات ، وتقبلت إكراماً فائقاً ، هو : « حرية مدينة نيويورك » .

وفى حفلات الغداة وبعد الغداة ، حيث اجتمع ثلاثة وسبعون وخمسمئة من ممثلى الجمعيات العلمية الأمريكية ، فى «ولدورف أستوريا» لتكريم مارى ، كانت هى تترنح من التعب . وبين هذه الجماهير القوية ، المتحمسة ، المتراصة ، الصاخبة ، وبين امرأة واهنة ، غادرت حياة الدير منذ قليل ، كان العراك غير متكافئ . . لقد داخت مارى من الضجة ، والهتافات ، والنظرات الموجهة إليها ، وهى لا عداد لها ، كذلك من العنف الذى كان يتدافع به الجمهور ، ويدفعها ، لكى يقطع عليها الطريق ويشاهدها ! . . فكانت تخشى أن تهرس فى إحدى هذه الدوامات المروعة ، ونفذت إليها فى غمرة الزحام امرأة مهوسة فلم تلبث أن سحقت يدها وهى تصافحها Shake hand بعنف شديد فاضطرت العالمة إلى أن تقضى بقية رحلتها ويدها المهشمة مربوطة ، مشدودة إلى عنقها : جريحة المجد ! . . .

* * *

ها هو ذا اليوم العظيم : « تحية العبقرية . . حفل مشهود فى البيت الأبيض ، يكرم امرأة مشهورة » . . « ٢٠ مايو ١٩٢١ » ، فى وشنطون قدم الرئيس هاردنج إلى مدام كورى **جرام الراديوم** فى القاعة الشرقية ، التى ازدحم فيها الدبلوماسيون ، وكبار الموظفين ، ورجال القضاء ، والجيش ، والبحرية ، وممثلو الجامعة .

الساعة الرابعة . فتح الباب على مصراعيه ، لدخول الموكب :

مسز هاردنج على ذراع مسيو جوسران : سفير فرنسا . . ثم **مدام كورى** على ذراع الرئيس هاردنج . ثم مسز ميلونى وإيرين وإيف كورى ، وسيدات « لجنة مارى كورى » .

وبدأت الخطب . وكان آخرها خطاب رئيس الولايات المتحدة ، يتوجه به فى مودة :

« الى المخلوقة النبيلة ، الى الزوجة الوفية ، الى الأم الحنون ، التى أدت كل فروض المرأة ، رغم عملها الساحق » .

ويقدم إلى مارى لفافة من البرشمان ، مربوطة بشريط مثلث الألوان ، وتعلق فى عنقها قلادة من الحرير المتموج ، يتدلى منها مفتاح من الذهب الخالص : مفتاح خزانة جرام الراديوم (١) ! . .

---

(١) فى خريف سنة ١٩٢٠ : ذهب الى ولاية كولورادو الأمريكية جيش من العمال ، وقصدوا الى منطقة قاحلة فى جنوبها ، لينقبوا فيها عن تبر معين ، وكانوا قد بحثوا ، فى مختلف الولايات الأمريكية ، عن هذا التبر النفيس ، ولم يظفروا به ، لذلك اضطر زعيمهم الى الاكتفاء بنوع من الرمل ، يكثر فى صحارى كولورادو القاحلة ، يدعى « كارنوتيت » . فأخذ رجاله ، وكانوا أكثر من ثلاثمائة ، يشتغلون ليل نهار فى جمع أطنان منه ، ثم نقلوها فى صحارى لا تخترقها طرق ما ، مسافة ١٨ ميلا ، الى أقرب مكان فيه ماء ، حيث عنوا بتشييد معمل خاص لغسل هذا الرمل وتنقيته . هنا عولجت خمسمائة طن منه معالجة كيميائيه ، حتى بقى منها مائة طن فقط ، وما بقى سحق حتى صار مسحوقا دقيقا ، ثم وضع فى أكياس ، نقلت بسكة الحديد ، الى بلدة تدعى بلاسرفل . ثم شحنت الأكياس فى مركبات شحن خاصة مسافة ٢٥٠٠ ميل الى بلدة تدعى كانونزبرج ، بولاية بنسلفانيا ، فى الشمال الشرقى المتوسط من الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى كانونزبرج عهد

وأصغوا فى خشوع لكلمات الاعتراف بالجميل ، التى نطقت بها مارى ، ثم فى لجة من الفرح ، مر المدعوون فى الغرفة الزرقاء أمام العالمة ، وكانت جالسة على كرسى ، تبتسم ، فى صمت ، لأولئك

الى مائتى رجل فى تحويل هذه الأطنان من المسحوق الناعم الى بضع مئات من الأرطال فقط ، مستعملين مقادير كبيرة من الماء فى غسل المسحوق ، ثم معالجته بمواد كيميائية وأحماض ، لاستخراج كنز ثمين منه ، لم يضيع الرجال ذرة واحدة منه ، على كثرة عمليات الغلى والتصفية والتبلور . وانقضت أشهر ، فاذا الباقى من ٥٠٠ طن ، من رمل كولورادو ، هو مقدار يسير جدا ، أرسل الى معامل البحث فى شركة بتسبرج الكيميائية ، بحراسة حرس خاص . هنا فى المعامل الكيميائية ، أجريت العمليات الأخيرة لاستخراج بضع بلورات من ملح معين . وقد تم استخراجها بعد سنة كاملة من جمع الرمل من صحارى كولورادو ، وأنفق عشرون ألف جنيه ، فكانت تلك البلورات أثمن مادة معروفة على سطح الأرض ، أثمن من الذهب مائة ألف ضعف ؟ .. ثم وضعت هذه المادة فى أنابيب صغيرة من الرصاص ، وحفظت الأنابيب فى صندوق فولاذى كثيف الجدران ، مبطن بألواح كثيفة من الرصاص ، ثم وضع الصندوق الفولاذى فى صندوق آخر من خشب «المغنة» المصقول ، وهذا حفظ فى خزانة متينة ، انتظارا لقدوم زائر كريم من فرنسا ..

وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ وقف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، فى ردهة الاستقبال فى البيت الأبيض ، يحف به سفير فرنسا ، ووزير بولونيا المفوض ، وأعضاء وزارته ، ورجال القضاء ، وأكبر المشتغلين بالعلم . ووقفت أمامه سيدة نحيفة البنية ، وديعة المنظر ، مرتدية ثوبا أسود . ثم خاطبها الرئيس فقال : « كان من حظك أنك قمت بخدمة خالدة للانسانية . ولقد عهد الى أن أقدم لك هذا القدر الضئيل من الراديوم . فنحن مدينون لك بمعرفتنا له وملكنا اياه . لذلك نرفعه اليك واثقين من أنه ، وهو فى حيازتك لابد من أن يكون وسيلة لتوسيع نطاق العلم ، وتخفيف آلام الناس » ..

تلك السيدة كانت **مدام كورى** .

«أساطين العلم الحديث»

الذين يتقدمون نحوها ، واحداً بعد واحد . وكانت كريمتاها تصافحان المدعوين نيابة عنها .

وظهرت الصفحات الأولى من الصحف ، تعلن بحروف ضخمة « مكتشفة الراديوم تتلقى من الناس، وبخاصة أصدقائها الأمريكان كنزاً لايقدر بمال » .

وما كان أشد دهشة الصحفيين ، حين علموا بأن ماري كوري ، عندما قرأت عشية الحفلة وثيقة الهبة ، رفضت بنداً يقول بأن الهبة لها ! قائلة :

– لابد من تغيير هذا البند ، فالراديوم، الذى تقدمه لى أمريكا ، إنما يجب أن يكون دائماً ملكاً للعلم ، لاأستخدمه ، ماعشت ، إلا فى الشؤون العلمية . إذ لو أننى مت ، انتقل الراديوم ، بهذا البند الواجب تغييره ، إلى ابنتى . وهذا مستحيل ؛ فانى أريد أن أهبه إلى معملى . فاستدعوا لنا محامياً ! .

فاستمهلتها مسز ميلونى ، وهى مبغوتة شيئاً ما ، راجية تأجيل هذه الشكليات للأسبوع القادم . فقالت مارى :

– لا الأسبوع القادم ، ولا لغد ، بل هذا المساء . فإن وثيقة الهبة ستصبح نافذة ، وقد يحضرنى الموت خلال ساعات ! . .

فبحثوا حتى وجدوا بصعوبة ، فى تلك الساعة المتأخرة ، أحد رجال القانون . ووضعوا البند الإضـــافى ، الذى أرادته مارى . فوقعته فى التو !

* * *

وتوالت ضروب الآلاء والتكريم ، والألقاب الجامعية الفخرية ، وتبودلت الهدايا العلمية . . غير أن الصحفيين الأمريكان ، لم يلبثوا أن اتهموا بلادهم بأنهـا ضربت على امرأة مسـنة رقيقة ، ضريبة من التجارب والمتـاعب ، فوق ما تحتمله قواها . فأعلنت جريدة بحروف كبيرة :

إسراف فى الضيافة

« إن النساء الأمريكيات قد دللن على فطنة فائقة بمساعدتهن للعالمة . ولكن قد يوجه إلينا النقد المر لأننا قـد جعلنا مدام كورى تدفع ثمن هديتنا من ذات لحمها وعظمها ، لمجرد إرضاء كبريائنا » .

وفى صحيفة أخرى ترى هذا الرأى الجرىء : « إن أى مدير «سيرك» أو « موزيك هول » ، كان يقدم لمدام كورى مبلغاً أكبر بكثير من ثمن جرام الراديوم ، فى نظير نصف هذا الجهد » ! . . أو : « لقد قتلنا ، أو كدنا نقتل يوماً ما ، المـارشال جوفر ، من فرط حماستنا . . فهل ترانا سنقتل مدام كورى ؟ ! » .

فألغيت الحفلات كلها ، اللهم إلا التى لاغنى عنها مطلقاً لمـا لها من شأن ، وكانت مع ذلك كفيلة بأن تضنى أشد الرياضيين قوة وجبروتاً ! . .

وفى ٢٨ مايو ، بنيويورك : أصبحت مدام كورى دكتوراً فخرياً بجامعة كولومبيا الشهيرة . وفى شيكاغو أعلنت عضويتها الشرفية بالجامعة ، وتلقت ألقاباً فخرية فى ثلاثة استقبالات : الأول وضع

فيه ، حولها وحول كريمتها ، حبل يفصل بينهن وبين الجماهير ، التي تمر في صفوف أمامهن . والثاني رتلت فيه الأناشيد الوطنية : الفرنسي ، ثم الأمريكي ، ثم البولوني . . واختفت ماري تقريباً وراء تلال الأزهار التي ركمها المعجبون بها عند قدميها . .

وكان آخر استقبال يفوق في حرارته كل ماسبقه : فقد جرى في الحي البولوني بشيكاغو لجمهور بولوني كله . ولم تكن العالمة هي التي يهتف لها أولئك المهاجرون ، وإنما كان **رمز الوطن البعيد** . . . رجال ونساء يذرفون الدموع ، يحاولون تقبيل يدي ماري ، أو لمس طرف ثوبها . . .

وفي ١٧ يونيه ، اعترفت مدام كوري للمرة الثانية بغلبها ، فقطعت شوط مجدها . فان ضغط دمها قد هبط هبوطاً مروعاً ، مما أقلق الأطباء . فاستراحت حتى استردت قواها . . وذهبت إلى بوسطون ونيوهافن ، وجامعات « ولسلي » و « ييل » ، و « هارفارد » ، و « سيمونز » ، و « راد كليف » .

وفي ٢٨ يونيه أبحرت على « الأوليمبيك » ، حيث وجدت غرفتها غاصة بالبرقيات ، مختنقة بسلال الزهر .

وحل محل اسمها ، في صدر الصحف : اسم « نجم » آخر ، جاء من فرنسا . . إذ كان الملاكم جورج كاربنتييه Carpentier الذي سبقته شهرة مستفيضة ، قد وصل إلى الولايات المتحدة . وما أشد خيبة أمل الصحفيين أن لم يستطيعوا أن يظفروا من مدام كوري بأي تكهن عمن تتوقع له الغلبة في ملاكمته مع دمبسي ! . .

* * *

ماري متعبة جدا ، ومسرورة جدا ، في وقت واحد . فها هو ذا الراديوم يغادر أمريكا معها على الباخرة ، وراء خزانات ضخمة من الفولاذ ، تجعله في مأمن إلى الشاطىء .. وهذا الجرام يحمل على التفكير العميق في مهمة ماري كوري . فقد اضطرت ، للحصول على هذا القدر الضئيل ، إلى أن تعبر المحيطات ، وأن تتسول في طول قارة وعرضها . . . وهنا يخطر ببال الانسان عدة أسئلة : كيف تقف مدام كوري هذا الموقف ، مع أنها لو كانت قد وضعت توقيعاً بسيطاً فيما مضى ، على شهادة تسجيل الاكتشاف ، لتبدل الحال غير الحال . ألم يكن في مقدور ماري كوري الغنية أن تهب لبلادها المعامل والمستشفيات؟! أو لم تكن عشرون سنة كفاح ، ومتاعب ، ومشقات ، خليقة بأن تحمل ماري على الأسف ، بله الندم ؟ ! أو لم تكن كافية لإقناعها ، بأنها باحتقارها الثراء وانصرافها عنه قد ضحت بنفسها ، وبتقدم عملها ، وازدهار علمها ، من أجل هواجس وأوهام ، وأضغاث أحلام ؟ !

في المذكرات القصيرة ، التي كتبتها مدام كوري ، لدى عودتها من أمريكا ، عرضت لهذه الأسئلة ، ودونت عليها الجواب :

« . . ان عددا كبيرا من أصدقائي يؤكدون ، بأسباب وجيهة ، انه لو أنني ، أنا وبيير كوري ، قد ضمنا حقوقنا ، لأمكننا الحصول على الوسائل المالية اللازمة لتشييد معهد للراديوم ، دون أن نتعثر في العقبات التي عطلتنا نحن الاثنين ، والتي لا تزال تعطلني وتعرقلني . بيد أنني لا أزال مقتنعة بأننا كنا على حق ؛ فالانسانية ، يقينا ، في حاجة الى رجال عمليين ، يبتزون من عملهم اقصى ما يستطيعون ، اذ هم يصونون بذلك مصالحهم الشخصية

دون أن ينسوا المصلحة العامة . ولكن الانسانية ايضا فى حاجة الى ذوى الخيالات والأحلام ، الذين يعدون تقدم عمل لهم تقدما خاليا من المصلحة ، له من القوة الجاذبة ما لا يستطيعون له دفعا ، فيستحيل عليهم أن يقفوا عنايتهم على فائدتهم المادية الذاتية . »

وما من شك، مطلقاً ، فى أن أهل الحلم والخيال هؤلاء لايستحقون الثراء ؛ لأنهم لايرغبون فيه . ولكن ينبغى ، على أى حال ، للمجتمع المنظم تنظيما طيباً ، أن يكفل لهؤلاء العاملين الوسائل الناجعة لإتمام مهمتهم ، فى حياة خالصة من الشواغل المادية ، موهوبة بحرية للبحث ، موقوفة على الدرس . .

الفصل الرابع والعشرون

ازدهـــار

تعلمت « **التلميذة الخالدة** » من رحلة أمريكا أشياء كانت غريبة عليها ؛ ولم تكن تعلمها ؛ فقد أظهرتها على أن العزلة المختارة ، التى قيدت نفسها بها ، لم تكن أمراً مألوفاً . قد تستطيع طالبة أن تحبس نفسها مع كتبها فى غرفة سطح . . . وقد يستطيع باحث خامل أن يقطع ما بينه وبين عصره ، ويعكف بكليته على أعماله الشخصية . . بل قد يكون هذا واجباً عليه . أما مدام كورى ، فى سن الخامسة والخمسين . فهى شىء آخر ليست بطالبة وليست بباحث خامل . إن مارى كانت مسئولة عن علم جديد ، وعن علاج جديد. وسلطان اسمها كان من العظمة بحيث إنها ، بإشارة بسيطة . أو بمجرد حضورها كانت تكفل نجاح مشروع يهم الصالح العام ، ويكون عزيزاً عليها . . وسنراها ، من الآن فصاعداً ، تحتفظ فى حياتها بمكان لهذه المبادلات وهذه المهام والبعثات .

وليس هنا مجال الإفاضة فى وصف رحلاتها ؛ فهى تتشابه : من مؤتمرات علمية ، إلى محاضرات ، إلى حفلات جامعية ، إلى زيارات للمعامل . كلها تدعو مدام كورى إلى عدد كبير من عواصم البلدان حيث يحتفى بها ويحتفل . وستحاول أن تخدم وتنفع ولكن ذلك إنما يحدث ، فى الغالب ، وهى تقاوم ضعف صحتها ، وخورها .

وعندما أتمت فروضها الرسمية ، كانت خير مكافأة لها أن تكتشف الأصقاع الجديدة ، والمشاهد الحلوية ، وأن ترضى شغفها بالطبيعة . إن ثلاثين سنة فى جهاد مضن ، لم تؤثر عندها إلا فى زيادة تعلقها بجمال الكون . وفى رحلتها إلى ريودى جانيرو ، عاصمة البرازيل مع كريمتها إيرين ، وراء الأوقيانوس ، كانت تفرح كالأطفال برؤية السمك الطيار ، وسمت الشمس ، وبالكواكب تطلع وتغيب ، فتسائل عن ماهية هذه النجوم الساطعة ، وأسمائها ، فى سمائها هذه !...

واستقبلتهما إيطاليا وهولندا وإنجلترا غير مرة . وفى ١٩٣١ قامت مع إيف برحلة ساحرة لاتنسى ، خلال أسبانيا . ودعاها الرئيس مزاريك إلى بيته الريفى بتشيكوسلوفاكيا . وترددت على مؤتمرات بلجيكا ، حيث حلت أهلا وسهلا . . وكانت تتعشى عند الملك البرت والملكة أليزابيث ، اللذين قابلاها فى ساحة بلجيكا الدامية ، وحملا لها صداقة نادرة . ولم يبق ثمة فى الدنيا من يجهل اسمها . ألسنا نجد ، فى بلدة قديمة بربوع الصين ، فى « معبد كونفوشيوس » بتاريوان—فو : صورة مدام كورى؟ لقد أحلها حكماء البلاد بين « **المحسنين الى الانسانية** » إلى جانب ديكارت ، ونيوتن ، وبوذا ، وكبار أباطرة الصين . . .

* * *

وفى ١٥ مايو ١٩٢٢ ، أجمع مجلس عصبة الأمم على انتخاب « مدام كورى سكلودوفسكى » : عضواً فى اللجنة الدولية للتعاون الفكرى . فقبلت مدام كورى سكلودوفسكى ! . . لتصبح نائبة الرئيس فى هيئة تضم الأشخاص البارزين فى عالم الفكر : برجسون Bergson ، جلبرت مورى Gilbert Murray جول دستريه Jules Destrée وغيرهم وغيرهم . .

كانت طول حياتها تلازمها فكرة هذه المواهب الفكرية التى تظل مجهولة ، عاطلة ، فى الطبقات التى حرمت المـال . فقد يكون مختفياً وراء هذا الفلاح ، أو ذاك العامل : كاتب ، أو عالم ، أو مصور ، أو موسيقار ... فبذلت جهدها لزيادة الأموال الموقوفة على الدراسات العلمية الدولية . إذ فى أكواخ الفقراء كنوز نادرة خفية ، يعد من الإجرام نبذها وإغفالها وضياعها . . .

* * *

وقامت برحلتين ، بثلاث رحلات ، بأربع رحلات ، إلى بولونيا . وهى ، مذ صارت بلادها حرة ، يراودها أمل عظيم هو تأسيس معهد للراديوم فى فارسوفيا ، يكون مركزاً للبحوث العلمية ومعالجة السرطان. ولم يكن عنادها كافياً لتذليل الصعاب . فان بولونيا الناقهة من استعباد طويل ، كانت فقيرة : فقيرة فى المـال ، وفى أرباب الفنون . ولكن مارى نادت حليفتها القديمة وشقيقتها برونيا . . فانبرت هذه ، رغم تقدم سنها ، تطلب المال ، أو بالأحرى تدعو إلى شراء الآجر . «اشتر آجر (طوبة) لبناء معهد مارى سكلودوفسكى كورى ! . . » .

هكذا راحت الدعوة فى ألوف البطاقات « الكارت بوستال » ، وعليها نداء العالمة : « إن أحر أمانىّ : تشييد معهد للراديوم فى فارسوفيا »

واشترت بولونيا ، من أقصاها إلى أقصاها ، الآجر والحجارة . وحرموا أفواههم لقمة العيش ، ليشيدوا رمزاً عالياً لحب الأوطان .وحينما وقف رئيس الجمهورية ليضع الآجرة الأولى ، وتضع مدام كورى الآجرة الثانية ، ورئيس بلدية فارسوفيا الآجرة الثالثة ، نوه رئيس

الدولة باعجابه بأن مارى مازالت حافظة لسانها القومى ، تجيد لغتها رغم النفى الطويل . . أولم يكن هو نفسه فى باريس رفيقاً لمدموازيل سكلودوفسكى ، فى الحى اللاتينى ؟ ! وفى هذا الحفل الحاشد ، أخذ يحاورها ويداعبها .

– أتذكرين الوسادة الصغيرة ، التى أعرتنى إياها ، منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ، عندما عدت إلى بولونيا فى مهمة سياسية سرية ؟ ! .. لشد ما نفعتنى فى القطار وسادتك ! . .

وتجيبه مارى ضاحكة .

– أذكر ذلك . . وأذكر أيضاً أنك نسيت أن تردها إلىّ ! . .

ومرت الأيام ، وأصبح الآجر جدراناً ، ومع ذلك ماذا تصنع ماريا وبرونيا ، ولا يزال ينقص البناء ، رغم ما جمعتاه وما دفعتاه من مالهما ، مال طائل ، لشراء الراديوم ، الذى سيقوم عليه علاج المرضى ؟

إن مارى لاتخور لها عزيمة . فهى تنفض الأفق بنظرها الثاقب ، ثم تتجه نحو الغرب ، نحو الولايات المتحدة ، نحو مسز ميلونى ، هذه الأمريكية الكريمة ، التى تعرف معزة معهد فارسوفيا عند مارى وماله من منزلة . . فتقوم بمعجزة جديدة ، تجمع المال اللازم لشراء جرام من الراديوم ، **الجرام الثانى** الذى تقدمه أمريكا لمدام كورى ! . فيعود كل شىء كما بدأ ! . . وكما حدث فى ١٩٢١ ، تبحر مارى فى أكتوبر ١٩٢٩ إلى نيويورك ، لتشكر الولايات المتحدة باسم بولونيا . . وكما حدث فى ١٩٢١ : تستقبلها الأفراح والأمجاد ، مع ما كانت فيه أمريكا

يومئذ من ضائقة اقتصادية . . . وهى ، خلال هذه الرحلة ، تحل ضيفاً على الرئيس هوفر فى البيت الأبيض . . .

وفى ٢٩ مايو ١٩٣٢ ، يتوج العمل المشترك لمارى كورى وبرونيا دلوسكى. فيفتتح رئيس الجمهورية البولونية **معهد الراديوم** .. وترى مارى بولونيا لآخر مرة . . تجوس خلال الشوارع القديمة فى مسقط رأسها ، وتزور نهر الفستول ، الزيارة المقدسة عندها كالحج ، تتأمله بحنين ، وتأسى على فراقه ، وتصف هذا الماء ، وهذه الأرض ، وهذه الحجارة التى يتعلق بها كل كيانها ، فى رسائل إلى إيف :

(... خرجت هذا الصباح ، فى نزهة منفردة على شاطىء الفستول ... وكان النهر الثعبان يرقد باسترخاء فى فراشه الرملى الكبير .. وعلى الجانبين خضرة ، وفى السماء زرقة .. فتذكرت أغنيتنا التى تقول عن الفستول : « ان هذه المياه البولونية ، لها من السحر ، بحيث يظل الذين ينهلون منها عاشقين لها ، حتى فى أعماق القبور » ... وهو ما يبدو لى حقا وصدقاً .. فأن لهذا النهر جاذبيته العميقة لى ، من حيث أدرى ولا أدرى ..

الى اللقاء يا حبيبتى . قبلى عنى أختك ايرين . انى أقبلكما معا من كل قلبى ، الذى هو لكما ..

أمك)

* * *

وفى فرنسا . . .

فى ١٩٢٢ ، تقدم خمسة وثلاثون عضواً فى أكاديمية الطب بباريس إلى زملائهم الطلب الآتى :

(الأعضاء الموقعون ، يرون أن الأكاديمية تتشرف بانتخابها مدام كورى عضواً حرا ، اعترافاً بنصيبها فى كشف الراديوم ، وفى علاج جديد فى الطب ، هو : الكوريترابى) .

وكان هذا النص ثوريا ؛ فالأكاديميون لم يقدموا على انتخاب امرأة فحسب ، بل خرجوا كذلك على العادة والعرف ، بانتخابها من تلقاء أنفسهم ، دون أن ترشح نفسها للعضوية . فوقع أربعة وستون عضواً من أعضاء هذا المجمع المعظم هذا المنشور ، وبذلك أعطوا درساً لزملائهم أعضاء أكاديمية العلوم وتنحى جميع المرشحين عن المقعد الخالى إكراماً لمدام كورى .

وفى ٧ فبراير ١٩٢٢ . كان الانتخاب لامعاً . فوقف المسيو شوفار ، رئيس الأكاديمية ، فخاطب مارى من أعلى المنصة بقوله :

« ــ اننا نحيى فيك عالمة عظيمه ، وامرأة ذات قلب كريم ، لم تعش الا من أجل التفانى فى العمـــل · وانكار الذات فى سبيل العلم · نحيى وطنية قامت دائما فى الحرب · كما قامت فى السلم ، بأكثر من واجبها · وحضورك هنـــا يجلب لنا المعنويات الطيبــة للأمثال التى ضربتها للناس ، كما يحمل الينـــا مجد اسمك ··· فنحن من أجل هذا نشكرك · ونحن نفخر بمكانك بيننا · فأنت أول امرأة فى فرنسا تدخل أكاديمية · وهل كانت ثمة امرأة أخرى غيرك خليقة بذلك ؟ ··· » ·

وفى ١٩٢٣ قررت « **مؤسسة كورى** » التى قامت على هبات البارون هنرى دى روتشيلد فى ١٩٢٠ ، أن تحتفل احتفالا مشهودا بمضى خمس وعشرين سنة على **كشف الراديوم** . وتشترك الحكومة فى هذا التكريم ، وتنال موافقة المجلسين الشريعيين : (النواب والشيوخ) بالاجماع على قانون بمنح مدام كورى معاشاً سنوياً ، قدره : أربعون ألف فرنك « مكافأة وطنية » ، مع توريثه من بعدها ، لكريمتيهـــا إيرين وإيف كورى .

وبعد مضى خمس وعشرين سنة أيضاً على يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨، الذى قدم فيه بيير كورى ومدام كورى وج بيمون : مذكرتهم التاريخية عن وجود «مادة جديدة ذات نشاط إشعاعى قوى فى البتشبلند» أقيمت مظاهرة كبيرة فى قاعة الاحتفالات بالسوربون ، حيث احتشد جمهور لايحصى . وكانت الجامعات الفرنسية والأجنبية ، وجمعيات العلماء ، والسلطات المدنية والعسكرية والبرلمان ، والمدارس العليا ، وجمعيات الطلبة ، والصحافة كلها ممثلة بوفود . وجلس على المنصة السيو ألكسندر ميليران رئيس الجمهورية ، والمسيو ليون بيرار وزير المعارف العمومية ، وبول آبل مدير أكاديمية باريس ورئيس «مؤسسة كورى» ، والبروفسور لورنتز ، الذى كان سيتكلم باسم العلماء الأجانب ، فى حين يتكلم البروفسور جان بيران باسم كلية العلوم ، والدكتور أنطوان بكلير باسم أكاديمية الطب . وشوهد بين هذه «الشخصيات» : رجل وقور ، أبيض الشعر ، وامرأتان كبيرتان فى السن تكفكفان دموعهما . . هؤلاء كانوا : هيلا وبرونيا ، ومعهما جوزيف : جاءوا من فارسوفيا ليحضروا انتصار «**مانيا**» المبين . فالمجد الذى عقد إكليله على جبين صغرى أبناء سكلودوفسكى لم يزيف شيئاً ، ولم يضيع من المحبة الأخوية شيئاً . ولم يحدث أن جمل التأثر والكبرياء وجهاً إلى الحد الرائع ، الذى تجلى على هذه الوجوه الثلاثة .

وقدم رئيس الجمهورية إلى مارى كورى المعاش الوطنى على أنه : «دليل ضعيف مخلص على مشاعر الإعجاب العالمى ، والتقدير ، والعرفان بالجميل» . ونوه وزير المعارف ، فى ظرف ، تعليقاً على ذلك :

« إن اقتراح هذا القانون وإقراره ، وهو يحمل إمضاءات ممثلى فرنسا جميعاً من حكومة وبرلمان ، يعد بمثابة التصميم على تجاهل : تواضع مدام كورى ، وعدم الإعتراف non avenus – كما يقال فى لغة القانون – بوجود زهدها فى المادة » ! . .

ولعله لم يكن ثمة من بين جميع الخلائق التى احتفل بها وكرمت ، من بدا وجهه مغلقاً موصداً فى هيئة ابتعاد وشرود مثلما بدا وجه « **التلميذة الخالدة** » : وفى عاصفة الهتاف باسمها ، والتهليل لها ، لم يبد أحد فى وحدة ووحشة مثلما بدت هى . . .

الفصل الخامس والعشرون

جزيرة سان لويس

كانت مارى تعود من أسفارها ، وقد حطمها التعب ، وامتلأت حتمية يدها الضخمة ، المهداة إليها من جمعية النساء البولونيات ، بركام من الأوراق وعلب النظارات . . وتراها احتضنت ، فوق هذا الحمل الثقيل ، طاقة زهر تافهة ذابلة ، قدمها إليها بعض الناس فى الطريق ، ترحمها ، ولا تجسر على إلقائها والتخلص منها !..

فتصعد ، بدون مصعد ، الطبقات الثلاث العالية ، لبيتها ، بجزيرة سان لويس ، فى قلب باريس .

وكان ذلك المسكن العائلى ، على رصفة « بتون » ، غريباً : شقة كبيرة جدا ، قليلة أسباب الراحة ، كلها دهاليز وسلالم داخلية ، سلخت فيها مدام كورى ، مع ذلك ، من عمرها ، اثنين وعشرين عاماً !.. وكانت غرفها الفسيحة فى بيت من طراز القرن السابع عشر ، تنتظر عبثاً الكراسى ذات المساند ، والأرائك الفخمة ، التى تطابق نسبتها الواسعة وطرازها العريق . . فقد احتشد ، كيفما كان ، الأثاث المصنوع من خشب المغنة ، الموروث من الدكتور كورى الشيخ ، فى البهو الهائل الذى يسع خمسين شخصاً ، وقلما يجتمع فيه أكثر من أربعة على أرض من خشب ، مصقولة بالشمع ، تنوء وتئن تحت الأقدام ،

فلا بسط ، ولا ستائر . ماري لاتغلق المصاريع الخارجية ؛ لأنها تحب الزجاج المجرد الذي لايسلبها أي شعاع من الشمس ! . . فهي تريد نهر السين ، ورصفاته ، ونوتردام : هذا المشهد الذي يخلب العقول ، تريده كاملا غير منقوص . . .

عاشت طويلا في فقر مدقع ، لايمكنها من أن يكون لها مسكن جميل . أما الآن ، فقد أصبحت غير راغبة فيه ، ولم يبق لديها من الوقت ما تضيعه في تغيير إطار عيشها ، الذي سيظل دائماً متواضعاً .

هذا المسكن ، الذي اختارته من بين جميع المساكن ، لهدوئه ، كان أشد المساكن ضجيجاً : إيف تعزف على البيانو ، والتليفون العتيق يدق ، والقط يقفز في دهاليز البيت كالفارس المغوار ، وجرس الشقة القوي يرن ، ويتجاوب صداه . . . ثم الصفير المتوالي من السفن والزوارق البخارية الجارية في السين . .

وتبدأ حركة الخادم قبل الساعة الثامنة صباحاً ، وهي ، وخطوات مدام كوري الخفيفة المتعجلة ، توقظ البيت . . . وقبيل التاسعة بربع الساعة ، تقف سيارة متواضعة أمام البيت ، ويضرب السائق « الكلاكسون » ثلاث مرات . فتهرول ماري إلى قبعتها ومعطفها ، وتنزل السلم مسرعة ؛ فالمعمل في انتظارها ! .

وبفضل المعاش الحكومي الوطني ، ودخل يعزى إلى الكرم الأمريكي الحاتمي . اختفت الشواغل المادية . ولكن مدام كوري ما عرفت قط كيف تنتفع بمالها ، فليست لديها خادمة مصقولة ،

وهى لم تدَع ، مرة واحدة ، سائق سيارتها ينتظر أكثر من بضع دقائق وإلا عراها الشعور بأنها مذنبة ، وإذا دخلت ، بصحبة إيف ، إلى متجر ، فهى لاتنظر إلى الأسعار ، ومع ذلك لاتقع يداها العصبيتان إلا على أبسط ثوب ، وأرخص قبعة ، وما كان يعجبها سوى ذلك !

ولم تكن تستبيح الإنفاق إلاعلى الأشجار والأحجار . تحب البيوت الريفية والساحلية ، بَنت بيتين : أحدهما فى لاركويست Larcouëst حيث كان أكثر صحبها من العلماء وأسرهم ، يقضون الصيف بصحبة عميد أساتذة التاريخ فى السوربون ، المرحوم « شارل سينيبوس » ، والثانى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . فقد جاءت السن التى تتطلب شمس الجنوب الأشد حرارة ، ومياه البحر الأدفأ من مياه ساحل « بريتانى » . وكانت تحلم بهجر باريس ، وقضاء الشتاء فى ضاحية « صو » ، كما كانت تفعل فى الزمن الحالى . . . فاشترت قطعة أرض وفكرت فى بناء بيت ، ومرت السنون دون أن تفعل ، وكانت كل يوم ، فى ساعة الغداء ، ترى وهى عائدة على القدمين من المعمل ، تجتاز جسر « لاتورنل » ، بخطاً مسرعة تقرب من خطا الشباب ، وتصعد ، وهى مبهورة قليلا ، الأدوار الثلاثة لبيت جزيرة سان لويس القديم . .

* * *

وفى ذات صباح من ١٩٢٦ ، أعلنت إيرين ، الهادئة الطبع ، أهلها بخطبتها لفردريك جوليو ، خير العاملين فى معهد الراديوم ،

وأذكاهم ، وألمعهم . فانقلب نظام البيت بدخول هذا الشاب إلى بيت النساء الثلاث ، الذى لايدخله أكثر من أربعة أو خمسة من الأهل أو المقربين . ولم يحل سرور مارى بخطبة بنتها الكبرى دون تأثرها بأنها : لن تستطيع بعد أن تعيش ساعة بساعة مع رفيقتها فى العمل . ولكنها لاتلبث أن تتخذ منها ومن خطيبها معاً مساعدين ، بدلا من واحد ، وتعتاد اشتراكهما معها فى شواغلها ، وبحوثها ، وأمانيها .

– أفلا تذهبين إلى المعمل يامِه ؟

فتلقى العينان الرماديتان على إيف نظرة تبرق حناناً :

– بلى ، سأذهب الساعة . . ولكننى قبل ذلك سأمر على أكاديمية الطب . . . ولما كانت الجلسة لاتبدأ إلا فى الثالثة ، فأظن أن لدى من الوقت ما يسمح بالمرور على سوق الأزهار . . وربما ذهبت لحظة إلى حديقة اللكسمبورج .

وهى ، فى سوق الأزهار ، لاتشترى زهراً ، بل تشترى نباتات لحديقة معهد الراديوم ! .. فلعل تعودها الفاقة قد صار غريزة تصرفها عن الأزهار الجميلة الغالية . . فاذا حملها إليها الأصدقاء كعادتهم ، تأملتها بدهشة ، وشىء من الاستحياء . . !

وفى منتصف الثالثة ، تترك مارى السيارة (فورد) على باب اللكسمبورج وتسرع إلى موعدها : « القريب من السبع الذى إلى اليسار » ! ومن بين مئات الأطفال ، الذين يلعبون فى حديقة الحى اللاتينى ، تهب طفلة ، حين ترى العالمة الكبيرة ، فتجرى نحوها بكل السرعة التى تمكنها منها ساقاها الضئيلتان : هى « هيلين جوليو كورى » بنت إيرين .

فتتحدث الجدة ، بضع دقائق ، مع الطفلة المرتدية ثوباً أحمر قانياً . . تسألها هيلين :

– إلى أين أنت ذاهبة ، يامه ؟ . . لماذا لاتبقين معى ، يامه ؟ .

وتشير ساعة مجلس الشيوخ المشرفة على الحديقة إلى أن الساعة الثالثة إلا عشر دقائق . . . فلا بد لمارى إذن من مغادرة هيلين وفطائرها الرملية . . .

ثم تقصد القاعة الكالحة لجلسات عمداء الطب فى فرنسا ، بشارع بونابرت . وتأخذ مكانها المعتاد ، إلى جوار صديقها القديم الدكتور « رو » . وتأخذ نصيبها من أعمال أكاديمية الطب ، المرأة الوحيدة بين ستين زميلا موقراً . . .

* * *

– آه ! . . لشدما أنا فيه من التعب ! . .

لعلها كانت تهمس ، كل مساء تقريباً ، بهذه العبارة ، وهى منهوكة القوى . . لم يغن شيئاً قول ابنتها لها :

– إنك تعملين فوق الطاقة . لايحق لامرأة فى الخامسة والستين ، وليس فى مقدورها ، أن تعمل - كما تعملين ، اثنتى عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة فى اليوم . .

وكانت إيف واثقة بأن نصيحتها لا تجدى فى أمها نفعاً ، فهى لاتستطيع أن تعمل دون ذلك ، وإلا عدت هذا التقاعد علامة مروعة على الانحلال .

ومنذ خرجت إيرين من البيت ، لتستقل بحياتها الزوجية ، كانت مدام كورى تتعشى كل مساء مع ابنتها إيف ، وحدهما ، فتتحدث معها عن المعمل ، الذى هى ملك له روحاً وجسداً ، وعمن يقصده من شباب العلماء من بقاع الأرض كافة . . تقول ، وقد انتهت من تناول الحساء :

– تصورى ... أننى ذهبت لألقى تلميذى الصينى « mon chinois » فى قاعة الطبيعة ، فتحدثنا بالإنجليزية ؛ وبدا أن محادثتنا لاتنتهى . . فى الصين تعد المعارضة أو المناقضة من قلة الأدب . فاذا فرضت فرضاً دلت هذا الشاب تجاربه على عدم صحته ، فانه يمضى فى موافقتى ومجاملتى . . وكان علىَّ أنا أن أحزر ما يكون عنده من اعتراض ! . . وإنى إزاء تلاميذى من أهل الشرق الأقصى ، أحس بالخجل من طباعى السيئة ! . . . فما أعظم حضارتهم بالقياس إلى حضارتنا ! . . (ثم تتناول بعض الفاكهة المطبوخة) . . إيف . . لابد من أن ندعو ذات مساء ، تلميذى البولونى لأنى أخشى أن يكون تائهاً فى باريس .

ففى برج بابل ، الذى هو معهد الراديوم ، يتوالى العاملون من مختلف الجنسيات . وكان دائماً بينهم بولونى ، على نفقتها الخاصة ، من حيث لايحتسب . ولا يعلم مطلقاً ، زاعماً أنه « على حساب مؤسسة كورى » ! . .

ثم تكف فجأة عن الكلام ، وتنحنى نحو بنتها ، وتقول بصوت آخر :

– والآن ، ياحبيبتى ، قولى لى شيئاً . . حدثينى عن أنباء هذا العالم ! . . .

إنها تعرف كيف تعالج السياسة دون مرارة . وإذا أشاد بعض الفرنسيين أمامها بالديكتاتورية ، ردّت عليهم فى لطف :

– إننى عشت فى عهد الاستبداد ، وأما أنتم فلا . . فلن تدركوا معنى هناءة العيش فى بلاد الحرية . .

وكاد دعاة الثورة والعنف يلقون منها المعارضة نفسها :

– إنكم لن تقنعونى ، أبداً ، بأنه كان من الخير قطع رقبة لافوازييه (١) . .

ولم تكن مدام كورى تنصح النساء بأن يسلكن فى الحياة مسلكها

– ليس من الضرورى أن تعشن عيشة ضد الطبيعة كعيشتى . .

تقول ذلك للمعجبات المتحمسات . . .

– إنى وهبت للعلم جل وقتى ، وذلك كان لاستعدادى ، وميلى إلى البحث . وما أتمناه للنساء ، للفتيات هو حياة منزلية بسيطة ، والعمل الذى يطيب لهن .

* * *

ويحدث فى تلك الأمسيات الهادئة ، على العشاء . أن تتحدث مدام كورى وإيف عن الحب . فهذه المرأة ، المعذبة عذاباً فاجعاً

---

(١) Lavoisier عالم كيميائى فرنسى شهير (١٧٤٣ – ١٧٩٤) ، قطع عنقه على المقصلة أثناء الثورة ، وقال قتلته : « ليست فرنسا فى حاجة الى علماء ! ! » . ص

مضنياً ، لم تكن تقدّر هذه العاطفة تقديراً كبيراً . وما كانت لتتحرج من أن تتخذ رأياً لها : ما قاله كاتب فرنسى كبير : « ليس الغرام عاطفة مكرّمة » .

وكتبت ذات مرة إلى إيف :

(أعتقد أن علينا أن نبحث عن قوى معنوية فى مثل أعلى ، يمكننا ، دون كبرياء منا ، من أن نرتفع بمطامحنا ، ونسمو بأحلامنا . وكذلك أرى من المؤلم المؤنس : تعليق كل شؤون الحياة على عواطف عاصفة هوجاء كالحب ...) .

وإذا كانت إيف ستخرج بعد العشاء إلى حفلة موسيقية . جاءت مدام كورى إلى غرفتها ، فاضطجعت على الديوان ، تنظر إلى بنتها وهى تلبس . . . وكانت آراؤهما ، فى زينة النساء وجمالهن ، على طرفى نقيض تماماً . وكانت إيف ترغم أمها على تجديد ثيابها السوداء ، قبل أن ترث وتبلى . . . وكانت الأم تستسلم ، بل كانت تمزح ، وهى تبادى لبنتها ملاحظاتها :

— آه ! . . يا حبيبتى المسكينة ! . . ما أبشع كعب حذائك ! . لا .. إنك لن تجعلينى أبداً أصدق أن النساء خلقن للمشى على عكازين ! ثم ، ما هذا البادع (الموضة) الجديدة ؟ . « ديكولتيه » الظهر ، فى فساتين السهرة ؟ لقد كان الكشف عن بعض الصدر محتملا . أما هذه الكيلومترات والكيلومترات من الظهور العارية ! . فاللهم حوالينا ولا علينا ! . فهذا أولا : غير لائق ، وثانياً : يعرضك للالتهاب الرئوى ، وثالثاً : هو بشع ! . . وإنى أعلم أن السبب الثالث ينال منك مالا يناله السببان الأولان ! . فاعلمى ، بعد هذا كله ، أن ثوبك

جميل ! . ولكنك فى الغالب تلبسين السواد . مع أن اللون الأسود ليس لمثل سنك . . .

وكانت زينة الوجه تطول ، وتعذب . . فبعد جهد جهيد ، ترضى إيف عن النتيجة ، فتلتفت إلى نداء أمها الساخر :

– أديرى وجهك ، حتى أنظر فأعجب ! . .

وتفحصها مدام كورى فحصاً علمياً دقيقاً . . وأخيراً تفزع :

– بالطبع ، ليس لدى اعتراض ، فى الجوهر ، على هذا النوع من التنكر بالدهان ، وتلطيخ الألوان ! . . فانى أعلم أن هذا كان يعمل دائماً . وفى مصر القديمة ، كان النساء يبتكرن ما هو أدهى وأمر ! . . ولا يسعنى إلا أن أقول لك شيئاً واحداً : إننى أرى هذا شنيعاً ! .. فأنت تعذبين أهدابك ، وتصبغين شفتيك ، دون أية فائدة ...

– ولكن يامه ! . . أؤكد لك أنه هكذا أحسن ! . . .

أحسن ! ! . . اسمعى ، إنى لأعزى نفسى . سأجىء غداً صباحاً ، لأقبلك فى فراشك ، قبل أن يكون لديك وقت لوضع هذه الشناعات على محياك ! . . . إنى أحبك حين لاتكونين زائفة ! . . أسرعى يابنيتى الصغيرة . . . مساء الخير . . .

وتترك لها إيف بعض كتبها ، فهما ، مع اختلاف ذوقهما الأدنى تحبان معاً : « كبلنغ » و « كوليت » . . فلا تمل مارى كورى مطالعة « كتب الغاب » ، و « مولد النهار » ، و « سيدو » و « اكيم » الانعكاسات الحية لهذه الطبيعة الحلوية ، التى تجد فيها راحتها وما يلائم مزاجها . . .

وكان المشهد يتكرر كل مساء . تعود إيف فتجد النور فى غرفة والدتها . فتدفع الباب ، وتدخل . . وإذا بمارى ، كعادتها ، محاطة بأوراقها وجداولها وأرقامها ونشراتها ، جالسة على الأرض ، على الخشب لم تتعود قط أن تجلس على كرسى كبير إلى مكتب ، كما هى تقاليد « المفكرين » ! . . كان لابد لها من مكان غير محدود ، تبسط فيه وثائقها وجداولهــا ! . .

وتكون مستغرقة فى إحصائيات معقدة ، فمع أنها تلحظ عودة بنتها ، لاترفع رأسها . . فحواجبها مقطبة ، ووجهها مهموم . . . وعلى ركبتيها كراسة ، وبيدها قلم رصاص : تعلم به ، وترسم . . . وتخرج من شفتيها تمتمة وهمهمة .

مارى كورى تعد وتحصى . . وكما كانت منذ ستين عاماً ، فى فصل الحساب بمدرسة مدموازيل سيكورسكا الابتدائية ، كانت هذه « **البروفسور** » فى السوربون تحسب باللغة البولونية ! . . .

الفصل السادس والعشرون

معبد المستقبل

– هل مدام كورى هنا ؟

– إنى أبحث عن مدام كورى . . فهل جاءت ؟

– هل رأيت مدام كورى ؟

شبان ، وشابات ، فى معاطف المعمل البيضاء ، يسائل بعضهم بعضاً ، فى الدهليز ، الذى لابد للعالمة من اجتيازه عند وصولها إلى معهد الراديوم .

ولن يطول انتظارهم . إن هؤلاء الخمسة ، العشرة ، المجتمعين فى الصباح فى طريقها ، ليسألها كل منهم : نصيحة ، أو تشجيعاً ، أو تفسيراً ، أو توجيهاً : سيسمعون السيارة العتيقة تجتاز شارع بيير كورى ، وتفتح بوابة « معبد المستقبل » . . وتبدو مدام كورى . . فتتزاحم عليها الأصوات : وتسأل ، وتستفهم ، وتستفسر ، أو تعلن نتيجة طيبة ، أو تستعين وتستغيث . . .

وهى سعيدة بهذا التزاحم الباكر ، فتترك عملها الخاص ، وتذهب وتجىء . هنا وهناك ، بين مساعديها : تشير ، وتنصح ، وتعجب . وتنقد ، وتهنىء . . وتراجع الرسائل ، وتنظمها ، وتقدمها . . وتتشدد فى المرفوع منها إلى الأكاديمية ، تقرأه ، مرتجفة اليدين من التأثر والذكرى . . وتصحح الأخطاء النحوية ، بله الجمل والعبارات . .

وهى تزيد فى غنى معملها عاماً بعد عام . فتدور مع جان بيير فى الوزارات . تطلب الإعانات . والبعثات العلمية لمعهدها . وكان أولياء الأمور يلبون طلبها ؛ لأنها « مدام كورى » . . فحصلت فى ۱۹۳۰ على اعتماد للبحوث ، فوق العادة ، بخمسمئة ألف فرنك وكان فى الطرف الآخر من حديقة شارع بيير كورى : البناء الثانى من المؤسسة . حيث يعمل البروفسور ريجو ومساعدوه ، الذين تسميهم مارى . بغير كلفة : « الجماعة اللى فى وشّنا : Les gens d'en face» يقيمون حرباً عواناً على السرطان . وبلغ عدد المرضى الذين عولجوا من ۱۹۱۹ إلى ۱۹۳٥ : تسعة عشر وثلاثمئة وثمانية آلاف مريض فى معهد الراديوم ! . . وكان ذلك يتطلب أسلحة هائلة للحصول على الشفاء والنتائج المعجلة ؛ فبلغ ما استعاروه من « اتحاد المناجم » وحده : عشرة جرامات ! . . ووجهوا النداء للحكومة ، وطلبوا التبرعات فكان فى مقدمة المحسنين البارون « هنرى دى روتشيلد : H. de Rothschild و « الأخوان لازار Lazard Frères » ، وكذلك (فاعل خير) مدهش رقيق ، متواضع ، بذل كل ما يمكن لإخفاء شخصيته ، وقد منح مؤسسة كورى ثلاثة ملايين وأربعمئة ألف فرنك (۳٫٤۰۰٫۰۰۰) ! . .

وكان البروفسور ريجو ، القائم على العلاج بالراديوم ، من أنقى الناس ذمة ، وأشدهم أنفة . كان مثل مارى ، يمقت دوىّ المجد . فنبذ كل نفع مادى . . ولو كان أراد أن يتخذ له حرفاء ، لكسب ثروة طائلة . غير أن هذه الفكرة المجردة نفسها لم تخطر له ببال ! .

هذه السنوات اللامعة المثمرة كانت أيضاً سنوات الكفاح الفاجع :
فمدام كورى مهددة بالعمى . أنبأها الطبيب فى ١٩٢٠ أن « كتركته »
مزدوجة (إظلام عدسة العين) ستصيبها فى الليل قليلا قليلا . فلم تدع
مارى سبيلا لليأس إلى نفسها . فأعلنت بلا جزع ، ابنتيها بهذه المحنة .
ثم تحدثت فى الحال عن العلاج : عملية محتملة خلال سنتين أو ثلاث
سنوات . . . ومن الآن إلى ذلك الحين ، خلال الانتظار القاضى عليها
يزداد بلور النظارات سمكاً . ويضع بين العالم وبينها : سحاباً ثقيلا .
وبين عمالها وبينها ضباباً كثيفاً مقيما . . .

من مارى إلى برونيا — ١٠ نوفمبر ١٩٢٠ :

(... ان أشد متاعبى يصدر عن عينى وأذنى . لقد ضعف بصرى كل الضعف ، ولا يحتمل أن يكون له دواء ناجع ، أما أذناى ، فان دويا يكاد يكون متواصلا ، وأحياناً قويا جدا ، يلح على . وانى من هذا لفى قلق عظيم . فقد يتعرقل منه عملى ، وقد يستحيل .. وربما كان للراديوم دخل فى هذه المتاعب ، على أنه لا يمكن الجزم بهذا قطعاً .

هذه هى آلامى . فلا تحدثى أحداً بها ، حتى لا تشيع وتذيع . والآن ، فلنتحدث فى شىء آخر ...) .

« هذه هى آلامى . فلا تحدثى بها أحداً . . » . . هذا هو ما استقر عليه الرأى بين مارى ، وابنتيها ، وأخواتها ، وأخيها ، الذين كانوا وحدهم موضع سرها . وكانت فكرتها الثابتة أن تحول دون إذاعة هذا الخبر : حتى لاتنشر يوماً إحدى الصحف : « مدام كورى عاجزة » .

وأصبح أطباؤها شركاء فى هذا التواطؤ . وكانت نظاراتها تصنع باسم « مدام كاريه » .

وكانت مارى تضرب فى تيه من الظلمات . لاتستطيع له قطعاً . إذا أرادت أن تعبر طريقاً أو تصعد درجاً أخذت إحدى ابنتيها بذراعها وبضغطة خفيفة باليد . تدلها على ماأمامها من أخطار أو عقبات . وعلى المائدة . تمد إليها ما تريد . كالملاحة حين تبحث عنها بحركات اليد الكاذبة . الداعية إلى الاشفاق .

وأصرت على ألا يعلم أحد فى المعمل بضعف عينيها . ولكن كيف السبيل إلى المضى فى هذه الكوميديا الشنيعة الباسلة ؟ . . على أنه مع كل هذه المحاولات والاحتياطات . حزر المعمل المأساة . ولكنه لزم الصمت . متظاهراً بعدم الفهم . لاعباً الدور بمهارة مثل مارى ! . .

من مارى كورى إلى إيف — ١٣ يوليه ١٩٢٣ :

(حبيبتى .. أظن أنه ستعمل لى العملية صباح الأربعاء ١٨ الجاري . يكفى حضورك الى هنا فى العشية . فالحر لا يطاق ، وأخشى أن ينالك التعب .

عليك أن تقولى لأصدقائنا فى لاركويست (المصيف) : ان ورائى تحريرات بدأناها معا ، وانى بحاجة اليك ، لأنها طلبت منى على عجل .

انى أقبلك . « مه »

ملحوظة ـ قولى لهم ، يا حبيبتى ، أقل ما يمكن أن يقال !) .

كانت تلك الأيام فى المستشفى شواظاً من نار . حيث تغذى إيف بالملعقة الصغيرة « مدام كاريه » . الجامدة . العمياء . ذات الوجه الجريح . المحجّب بالأربطة .

وكان القلق . من مضاعفات غير منتظرة . من النزيف . قد تبع ذلك ، وأضاع . لعدة أسابيع . كل أمل فى الشفاء . وعملت عمليتان

أخريان فى مارس ١٩٢٤ . وعملية رابعة فى ١٩٣٠ . . . ولم تكن تكاد تخلص من الضمادات والأربطة . حتى راحت تستخدم عينيها الجريحتين ، وإن كانت لاتستطيع بعد تركيز بصرها .

وكتبت من « فافالير » . بعد أشهر من العملية الأولى ، إلى إيف :

(اننى أمشى وأتنزه فى الطرق الجبلية على حصباء حادة ، وأسير بسرعة فى أمان ٠٠ أما ما يضايقنى ، فهو الرؤية المزدوجة ، التى تحول بينى وبين معرفة الأشخـاص الذين يقتربون منى ٠ أتمرن كل يوم على القراءة والـكتابة ٠ ولكن ذلك كان حتى الآن أصعب من المشى !٠٠فلا بد اذن من أن تساعدينى على تحرير مقال الموسوعة (الأنسكلوبيديا) البريطانية ٠٠٠) ٠

وانتصرت . قليلا قليلا ، على حظها السيء . واتخذت نظارات غليظة ، فاستعادت نظرها الطبيعى ، أو كادت . . تخرج وحدها ، بل تسوق سيارتها . وفى المعمل تتمكن ، من جديد ، من عمل أدق المقاييس والمكاييل . . آخر معجزة فى حياة مارى ، تبعث مرة أخرى من الظلمات ، لتجد من النور ما يكفيها لتعمل ، وتعمل ، حتى النهاية ... ولعل السر فى ذلك البحث ، يبدو فى خطاب إلى أختها برونيا ، فى سبتمبر ١٩٢٧ :

(٠٠٠ اننى أحيانا تنقصنى الشجاعة ٠ وأحاول أن أقنع نفسى بضرورة الكف عن العمل ، والذهاب لسكنى الريف ، والانقطـاع لفلاحة البساتين ٠ ولكن ألوف الصلات تستبقينى ، ولست أدرى متى أستطيع تنظيم الأمور على هذا النحو٠٠٠ **وكذلك ، لست أدرى ، حتى لو شغلت بوضع الـكتب العلمية ، هل أستطيع الاستغناء عن المعمل ؟ ٠٠) ٠**

ومن يراها : جالسة على كرسى . مشتبكة الذراعين . محنية الظهر زائغة البصر ، أمام تجربة فى المعمل . لم توفق للنتيجة التى تتوقعها . يجدها أشبه ما تكون بامرأة فلاحة عجوز . . عجوز جدا ، خرساء . آسية ، فى حداد . أو حزن عظيم . . .

أما النجاح . فيلهبها بالحماسة والنشاط والشباب . ويعطيها أجنحة تحلق . . . فتروح تجوس خلال الحديقة . مستبشرة . مبتهجة . كأنما كانت تريد أن تنبىء شجيرات الورد . وأشجار الزيزفون ، وأشعة الشمس ، بمبلغ ما يكتنفها من سعادة ! . .

لقد اصطلحت مع العلم ، وصارا من جديد على وفاق ؛ فهى على استعداد للضحك من كل كيانها . والافتتان . .

الفصل السابع والعشرون

خاتمة الرسـالة

كثيراً ما كان يحدث أن تتكلم مدام كورى عن موتها ، فتعلق ، بهدوء ظاهر ، على الحدث المحتوم . وتستعرض عواقبه العملية ، وتنطق ، دون تأثر ، بمثل هذه العبارات : « . . . من البديهى أننى لن أعيش بعد سنين عدة » . أو : « إنى ليشغلنى مصير معهد الراديوم ، حين لاأكون من أهل هذا العالم » .

هذا ، فى حين أن فطرتها تأبى عليها قبول فكرة العدم ، تذودها عنها . وأولئك الذين يعجبون بها ، عن بعد ، يظنون أن وراءها حياة لانظير لها . وهذه الحياة فى عينى مارى لاتستحق الذكر ، لانسبة بينها وبين المهمة الملقاة على عاتقها .

فمنذ ثلاثين عاماً مضت ، وبيير كورى يتطير من موت تكون المصادفة وسيلته ، فدفن نفسه فى العمل بحرارة عنيفة . . . وها هى ذى مارى ، بدورها ، قد قبلت التحدى المبهم ، هبت للنزال .

ولكى تدفع عن نفسها اعتداء تتوقعه وتخشاه ، اندفعت بقوة تبنى حولها أسواراً واستحكامات من المشروعات والواجبات ، تزدرى تعباً يزداد كل يوم شدة وإلحاحاً ، وهذه الأوجاع المقيمة التى ترهقها : بصرها المكفهر ، وروماتيزم فى الكتف ، وطنين فى الأذنين . .

ما هذا كله ؟ ! . . هناك أشياء أهم وأعظم . فقد شيدت مارى ، فى « أركاى : Arcueil » — من ضواحى باريس — مصنعاً خاصاً لتحضير المعادن الإشعاعية بمقادير هائلة . وكانت شديدة الرغبة فى إقامة هذا المصنع منذ زمن . ونظمت فيه التجارب الأولى ، بلهفة وحمس . وهى مشغولة من قبل بوضع كتابها ، الذى هو تمثال منيف للعلم ـ لا يستطيع أحد ، إذا اختفت مدام كورى ، أن يكتبه ويقيمه . وبحوث « الأكتينيوم Actinium » لا تتقدم بالسرعة الكافيــة ! . ثم أليس عليها أن تتولى بعد ذلك : دراسة دقائق أشعة « ألفا Alpha » ؟

تنهض مارى فى ساعة مبكرة ، وتجرى إلى المعمل . وتعود إليه مساء . بعد العشاء . . .

إنها تشتغل بسرعة غريبة ، وكذلك بعدم تبصر غريب . هو من خصائصها . فقد كانت تحتقر دائماً الاحتياطات التى تفرضها بصرامة على تلاميذها : ألا يتناولوا أنابيب العناصر الإشعاعية إلا بالقابضات « الكماشات » الدقيقة pinces . وألا يلمسوا الأنابيب المجردة . وأن يستخدموا الدرقة الواقية ، لتدرأ عنهم وتقيهم الإشعاعات الكهربية المؤذية .

وأخيراً سلمت مارى بتحليل الدم . فوجد الفحص غير طبيعى . فماذا فيه ؟ . إن مارى كورى . لخمس وثلاثين سنة مضت ، تمسك بالراديوم . وتستنشق انبثاقات الراديوم وما يفوح منه . . . وقد ظلت خلال سنوات الحرب الأربع . معرضة نفسها للأشعة الأشد خطراً من ذلك أيضاً . الأشعة السينية (X) ، الصادرة عن أجهزة رونتجن . فالتحول

الخفيف فى الدم ، وحروق اليدين المزعجة المؤلمة ـ التى تجف تارة وتتقيح أخرى ، ليست هذه ـ بعد ذلك كله ، إلا عقوبات غير صارمة ، لكل هذه الأخطار التى عرضت نفسها لها ! . .

وفى ديسمبر ١٩٣٣ ، تأثرت مدام كورى بمرض قصير ، ودل كشف الأشعة على حصاة كبيرة فى المرارة . وهو المرض نفسه الذى أودى بحياة أبيها مسيو سكلودوفسكى ! . . فلكى تتجنب مارى عملية تخيفها ، اتخذت نظاماً للطعام ، وخضعت للعلاج .

وفجأة ، رأينا هذه العالمة ـ التى ظلت دهراً طويلا تهمل راحتها وصحتها ، وتؤجل مشروعاتها الشخصية المتواضعة ـ التى تمس شغاف قلبها ، مثل بناء بيت فى ضاحية « صو » ، وتغيير مسكنها فى باريس ـ رأيناها تندفع إلى هذه الأعمال اندفاعاً ، فتراجع رسومات فيلا « صو » وتدفع نفقات طائلة لبنائها حالا ، وتستأجر شقة جميلة فى بناء حديث بالمدينة الجامعية (La Cité Universitaire) القريبة من الحى اللاتينى حيث يقوم معهدها ومعملها : ملعبها ! . .

لقد أحست الضنى والكلال ، وحرصت على أن تبرهن لنفسها على أنها بخير وعافية ، فتذهب لرياضتها المحبوبة : الانزلاق على الثلج بفرساى ، وتلحق بإيرين لذلك فى السافوى Savoie ، وتحس السعادة لأنها مازالت محتفظة بلين عضلاتها ورشاقتها . ثم تجىء أختها برونيا إلى باريس ، بعد إذ فقدت زوجها الدكتور كازيمير دلوسكى ، وفقدت ولديها . فتنتهز مارى الفرصة لتسلية أختها ، ورياضة نفسها ، برحلة بالسيارة إلى جنوب فرنسا .

وكانت الرحلة نكبة . فقد أرادت مارى أن تقوم بجولات طويلة لتظهر أختها على جمال الطبيعة ، فلما وصلت بعد مراحل عدة إلى « فيلا كافالير » ، كانت منهوكة القوى ، مصابة بالبرد . وكان بيتها عند وصولها مثلجاً ، لم تجد النار ، التى أشعلت على عجل ، فى تدفئته بسرعة . فارتجفت مارى من القشعريرة . وارتمت فى أحضان برونيا تزفر وتنتحب كطفلة مريضة . فهى مهمومة بكتابها ، وتخشى من نزلة شعبية تحول بينها وبين إتمامه . فتعنى بها برونيا . تعالجها . وتهدئها وتطيب خاطرها . وفى اليوم التالى ، تنتصر مارى على خور عزيمتها ، فلا ينال بعد منها .

على أن أياماً فى الشمس الساطعة ، تستجم فيها ، ترد إليها قواها ، وتشد من أزرها . فاذا آبت إلى باريس ، كانت خيراً منها حين خرجت منها . وقال الطبيب : مصابة بالأنفلونزا . وقال — كما قال جميع الأطباء منذ أربعين عاماً — : من شدة الإجهاد . ولم تلق مارى بالا إلى الحمى الخفيفة التى تلح عليها . . وعادت برونيا إلى بولونيا يخامرها الشعور بقلق غامض . وأمام قطار فارسوفيا ، على الرصيف الذى طالما وطئته أقدامهما ، تتعانق الشقيقتان لآخر مرة .

* * *

مارى تذهب وتجىء ، بين المرض ونصحة . وفى أيام انتعاشها تذهب إلى المعمل . . وعندما تحس الدوار والضعف ، تبقى فى بيتها تؤلف كتابها .

واكن عدوها المتربص كان يتعجل الظفر بها . فزاد إلحاح الحمى عليها . واشتدت رعشتها . وعصفت بها رجفتها . وكان لابد لإيف من صبر أيوب . حتى ترضى أمها باستقبال الطبيب من جديد ، فلم يكن لها طبيب مداو . فهذه العالمة . هذه الرفيقة للتقدم والارتقاء ، كانت فى تمردها على العلاج . كالفلاحة ! فأبت الاستماع إلى النصح بملازمة الفراش . وظلت تنزل وتصعد طبقات بيتها المتعبة . وتعمل ، كل يوم تقريباً . فى معهد الراديوم .

وفى أصيل ضاحٍ من شهر مايو ١٩٣٤ . ظلت إلى منتصف الساعة الرابعة فى قاعة الطبيعة ، تلمس أجهزتها : رفقاءها المخلصين !... وتبادل مساعديها بضع كلمات ، ثم تتمتم :

— أشعر بالحمى . . . سأعود إلى البيت .

ثم تدور بعد ذلك فى الحديقة كعادتها . حيث كانت الزهور تنتصر وتزهو بأوراقها البهيجة الألوان . فتقف بغتة . أمام شجيرة ورد ذابلة . فتنادى :

— جورج ! . . اعتنوا بهذا الشجيرة فى الحال ! . .

وتتقدم طالبة تتوسل إليها ألا تبقى فى تيارات الهواء . وأن تعود إلى دارها . تطيع . ولكنها قبل أن تصعد إلى سيارتها . تلتفت . وتصيح بالبستانى . لكيلا ينسى شجيرة الورد ! . .

هذه النظرة القلقة . نحو نبتة يابسة . هى وداعها الأخير : للمعمل والمعهد . . المعبد . . .

لم تعد تغادر سريرها . وبدأ كفاح موئس ضد داء غير محدد ، يوصف تارة بأنه أنفلونزا ، وتارة نزلة شعبية ، مما هدأ حوفنا . تحملته بوداعة مدهشة ، وقبلت أن تنقل إلى عيادة للتشخيص الكامل . وعملت صورتان للأشعة ، وخمسة تحاليل أو ستة ، حيرت الإخصائيين الذين دعوا ليكونوا إلى جانبها . فما من شيء ظاهر بعضو من أعضاء بدنها ، وما من داء يبدو بجلاء . فرضوا عليها كاسات الهواء ، فلم يخفف ذلك من المرض ، ولم يزده . فعادت إلى بيتها ، وبدأت تسمع حولها الهمس بكلمة : « مصحة : Sanatorium » . وعرضت عليها إيف ، وهي مشفقة ، فكرة هذا المنفى . وهنا أيضاً أطاعت ماري وتقبلت الرحيل . فقد وضعت آمالها في هواء أنقى من هواء باريس ، وتخيلت أن ضجيج المدينة وغبارها حالا دون شفائها . وتوالى على خدمتها : إيف ، وإيرين ، وزوجها فردريك جوليو . . وكانوا أحياناً يشغلونها عن حالها ، بذكر ما يطيب لها من فيلا ضاحية « صو » والشقة الجديدة ، فتضحك منهم ، وهي تتلمس نظرة ابنتها ، لتفسرها :

— ربما كنا نتعب أنفسنا سدى ، ونمنيها بالمحال . . .

وزادت ضعفاً على ضعف . وقبل أن تنقل إلى المصحة ، جمعت إيف ، في استشارة أخيرة . أربعة من أعظم أساتذة الطب في فرنسا ، ففحصوها نصف ساعة ، وقالوا إن مرضها تنبه داء الصدر ، وإن إقامتها في الجبل تجعلها تتغلب على الحمى . وكانوا من المخطئين ؟ .

وبرغم المضاعفات الخطيرة ، نصح الأطباء بالسفر حالا . وكانت الرحلة عذاباً لا يطاق . وعندما وصل القطار إلى « ســـان جرفيه

بين أذرع إيف ، سقطت مارى مغشياً عليهـا « Saint Gervais
والممرضة . وعندما وضعت آخر الأمر ، فى أجمل غرفة بمصحة
Sancellemoz ، عملت أشعة جديدة ، فلم يظهر أن الرئتين مصابتان
وكانت الرحلة بلا جدوى !

وزادت الحمى على أربعين درجة ، ولم يمكن إخفاء هذا الرقم
على مارى التى كانت تراجع الترمومتر بيقظة العالمة . ولم تكن تكاد
تنطق بشىء ، غير أن عينيها الشاحبتين قد عكستا جزعها وهلعها . .

ودعى البروفسور روش Roch من جنيف ، على عجل ،
فقارن فحص الدم فى الأيام الأخيرة ، حيث كان عدد الكرات البيضاء
والكرات الحمراء جميعاً قد هبط هبوطاً سريعاً . فروح عن مارى ،
وطمأنها ، وكان التفكير فى حصاة المرارة يلازمها ، وأكد أنه ما من
حاجة إطلاقاً إلى عملية ، وأن العلاج سيأخذ مجراه . . بيد أن الحياة
كانت تفر من هذا الجسد المضنى . . .

وعندئذ ، بدأ الكفاح المتلاحق المروع ، الذى يأبى فيه الجسم
النماء ، فيكافح العدم بقوة غشوم ، وعزيمة وحشية . . وكانت إيف
تكافح كفاحاً آخر : لابد من احتفاظ أمها بصفاء الذهن ، الذى
لم تتغلغل فيه فكرة الموت ، ولابد من التمسك بهذه المعجزة ، لتجنب
مارى ألمـاً نفسياً هائلا . . وينبغى ، خاصة ، تخفيف الألم البدنى ،
بحيث يطمئن الجسم والروح فى وقت واحد . فلا عجلة فى نقل دم
لايجـدى الآن غير النزع . . ولا جمع لأفراد الأسرة جمعاً مباغتاً
إلى جانب فراش المحتضرة ، فانها لاتكاد ترى أهلها محتشدين ، حتى
يقع فى فؤادها ، فوراً ، ذلك اليقين البشع . .

سيمجد الدهر أبداً أسماء أولئك الذين أعانوا هذه المرأة العظيمة ، وهذه الأم الكريمة ، فى أيامها الفاجعة ، ومن بينهم : « الدكتور توبيه Dr. Tobé » مدير السناتوريوم ، والدكتور « بيير لوئس Dr. Pierre Lowys » اللذان لم يسعفا ماريا بعلمهما وحده ، بل ... كأن حياة المصحة كلها توقفت وجمدت ، للنبأ الذى يمزق القلوب : **مدام كورى تموت . . .**

فلن تعد الدار إلا : وقاراً ، وتفانياً ، وصمتاً ، ورحمة . . وكان الطبيبان يتناوبان المكث فى غرفة مارى ، يسندانها ، ويروحان عنها . وكذلك يعالجان إيف ، ويعينانها على المقاومة ، وعلى الكذب ، ويعدانها بأن يخففا عن أمها بالمخدر والحقن ، فتنام ، لكى لا تحس شنيع الآلام . .

وفى صباح ٣ يوليه ، استطاعت مدام كورى ، للمرة الأخيرة ، أن تقرأ الترمومتر ، وهو فى يدها المرتعشة ، فتلاحظ هبوط الحرارة الفجائى ، الذى يسبق النهاية ، فتبتسم فرحاً . ولما أكدت لها إيف أن هذه علامة الشفاء ، وأنها الآن سوف تتعافى ، قالت ، ناظرة إلى النافذة المفتوحة ، متجهة فى أمل ، فى شغف حار بالحياة ، نحو الشمس ، نحو الجبال الثابتة :

– إنه ليس الدواء الذى نفعنى . . إنه الهواء النقى الخالص .. وهذا العلو الشاهق ! . . .

وكانت ، أثناء احتضارها ، تئن أنيناً ، وتشكو فى دهشة حالمة :

– لا أستطيع أن أعبر عما فى نفسى . . . إننى غائبة . . .

ولم تنطق بإسم أحد من أهلها . . بل كانت شواغل عملها ، الصغيرة والكبيرة . هى التى تدور . اعتسافاً . فى ذهنها العجيب ، الصافى صفاء عجيباً . . فتذكر : « الحمل . . الفصول . . النشر . . الكتاب . . »

وتحدق طويلا إلى فنجان شاى حاولت أن تقلبه بالملعقة . .

كلا . . ليست ملعقة . . . إنها عصا بلورية . أداة دقيقة من أدوات المعمل :

– هل هو مصنوع بالراديوم . أو الميزوثوريوم ؟ . .

لقد ابتعدت عن بنى الإنسان . ولحقت . إلى الأبد . بهـــذه « الأشياء » الحبيبة إليها . التى وقفت حياتها عليها . .

وصارت لاتنطق إلا بأقوال مبهمة .. ثم توجه . فجأة . إلى الطبيب الذى جاء يحقنها . هذه الصيحة الضعيفة الضجرة :

– لاأريد . . . أريد أن تدعونى وما بى . . .

* * *

كشفت لحظتها الأخيرة عن الحيوية . والمقاومة الجبارة . فى مخلوق لم تكن هشاشته إلا ظاهراً . وعن قلب متين . سجن فى بدن تهرب منه الحرارة فيظل يخفق . ولا يتعب . ولا يخمد . فى حين يمسك كل من الدكتور بيير لوئس وإيف . مدى ست عشرة ساعة بعد ذلك . بيد من هاتين اليدين المثلجتين . يدى المرأة التى لا تريد الحياة . ولا تريد الفناء .

وفى الفجر . عندما تكون شمس الجبال باون الورد . وتبدأ شوطها فى سماء نقية نقاء بديعاً . . عندما يشرق الضوء الساطع لصباح

رائع ، فيغمر الحجرة ، والفراش ، ويبلغ الوجنتين الضامرتين ـ والعينين الرماديتين ، اللتين أحالهما الموت إلى مثل الزجاج . .

عندئذ : يقف القلب . . أخيراً . . . ويكف عن الخفقان . . .

وأمام هذه الجثة ، كانت ماتزال لدى العلم : كلمته . فالعوارض غير الطبيعية ، وتحليلات الدم ، تختلف عن أنواع الأنيميا الخبيثة المعروفة ، وتشى بالمجرم الحقيقى . . وهو : **الراديوم** . . .

كتب البروفسور ريجو :

« ان مدام كورى ، يمكن أن تحسب بين الضحايا ، على طول المدى ، للعناصر ذات النشاط الاشعاعى الكهربى ، التى اكتشفتها هى وزوجها ... » .

وفى المصحة ، كتب الدكتور توبيه هذه النشرة الرسمية :

« ماتت مدام كورى فى مصحة Sancellemoz يوم ٢٤ يوليه ١٩٣٤ ـ والداء : أنيميا خبيثة ، مصحوبة بحمى سريعة . والنخاع العظمى لم يعمل عمله ، فيحتمل أنه قد أصيب من تراكم الاشعاعات الطويل » .

* * *

انتشر النبأ ، من المصحة الهادئة ، فى العالم كله ، انتشار النار فى الهشيم ، ليمس ، هنا وهناك ، قلوباً حساسة ، بالألم والحزن . ففى فارسوفيا : هيلا . . وفى برلين ، فى قطار مسرع نحو فرنسا : جوزيف سكلودوفسكى ، وبرونيا ، برونيا التى حاولت عبثاً أن تصل فى الوقت المناسب إلى المصحة ، لتلمح الوجه الحبيب . . وفى مونبلييه : جاك كورى . . وفى لندن : مسز ميلونى . . وفى باريس : أصدقاء مخلصون . . .

وفى معهد الراديوم ، وقف الشباب العلماء ، أمام الأجهزة الهامدة : ينتحبون ... وكتب جورج فورنييه ، وهو من تلاميذ مارى المقربين :
« لقد خسرنا كل شيء ... » .

لقد استراحت مدام كورى فى نجوة من هذه الآلام ، وفى نجوة من الاضطرابات ، ومن التحيات ، على مرقدها ، فى المصحة ، حيث لم يسمحوا لأى أحد بأن يعكر صفو راحتها ، ولو بنظرة . . . ولن يرى أى متطفل ذلك اللطف العلوى ، الذى اتخذته مارى قباء لها ، لهذا الرحيل . . . كانت فى ثياب بيضاء شاملة ، يجلل شعرها الأبيض جبينها العظيم . والوجه صفو ، فى سـلام ، وقور ، باسل ، كفارس فى سلاح . . .

إنها ، فى هذه اللحظة : أجمل وأنبل ما على ظهر الأرض . . .

وكانت يداها الخشنتان ، المتحجرتان ، المشوهتان من الراديوم بحروق بعيدة الغور ، قد فقدتا حركتهما العصبية المألوفة . . . فهما ممدودتان على الملاءة الناصعة : جامدتين ، بلا حراك . . .

* * *

وفى يوم الجمعة ٦ يوليه ١٩٣٤ ، عند الظهر ، شيعت **التلميذة الخالدة** بلا خطب ، ولا مواكب ، ولا رجال سياسة ، ولا شخصـيات حكومية . . لتأخذ ، فى تواضع ، مكانها فى محلة الأموات .

ودفنت فى مقبرة « صو » ، على مشهد من الأقرباء ، والأصدقاء ، والمساعدين ، والمريدين ، الذين أحبوها ، ووضع تابوتها فوق تابوت « **بيير كورى** » . وألقت برونيا وجوزيف سكلودوفسكى فى الحفرة المفتوحة قبضة من « **تراب بولونيا** » . .

وزاد على « شاهد » القبر سطر جديد :

. . . .

ماری سکلودوفسکی کوری

١٨٦٧ — ١٩٣٤

. . . .

وبعد مرور عام ، ظهر كتاب مارى ، الذى أتمته قبل اختفائها ، حاملا إلى الشباب ، « عشاق الطبيعة » ، رسالة أخيرة .

وفى معهد الراديوم ، حيث استؤنف العمل ، جاء المجلد الضخم إلى المكتبة المنيرة ، ليضم إلى المؤلفات العلمية الأخرى .

وعلى غلافه الرمادى ، اسم المؤلف :

مدام بيير كورى

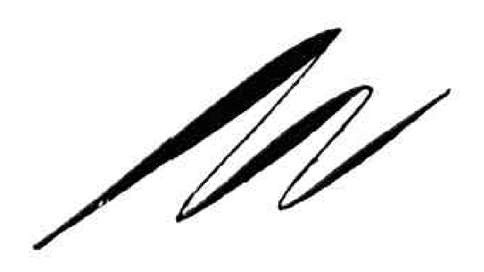
استاذ فى السوربون

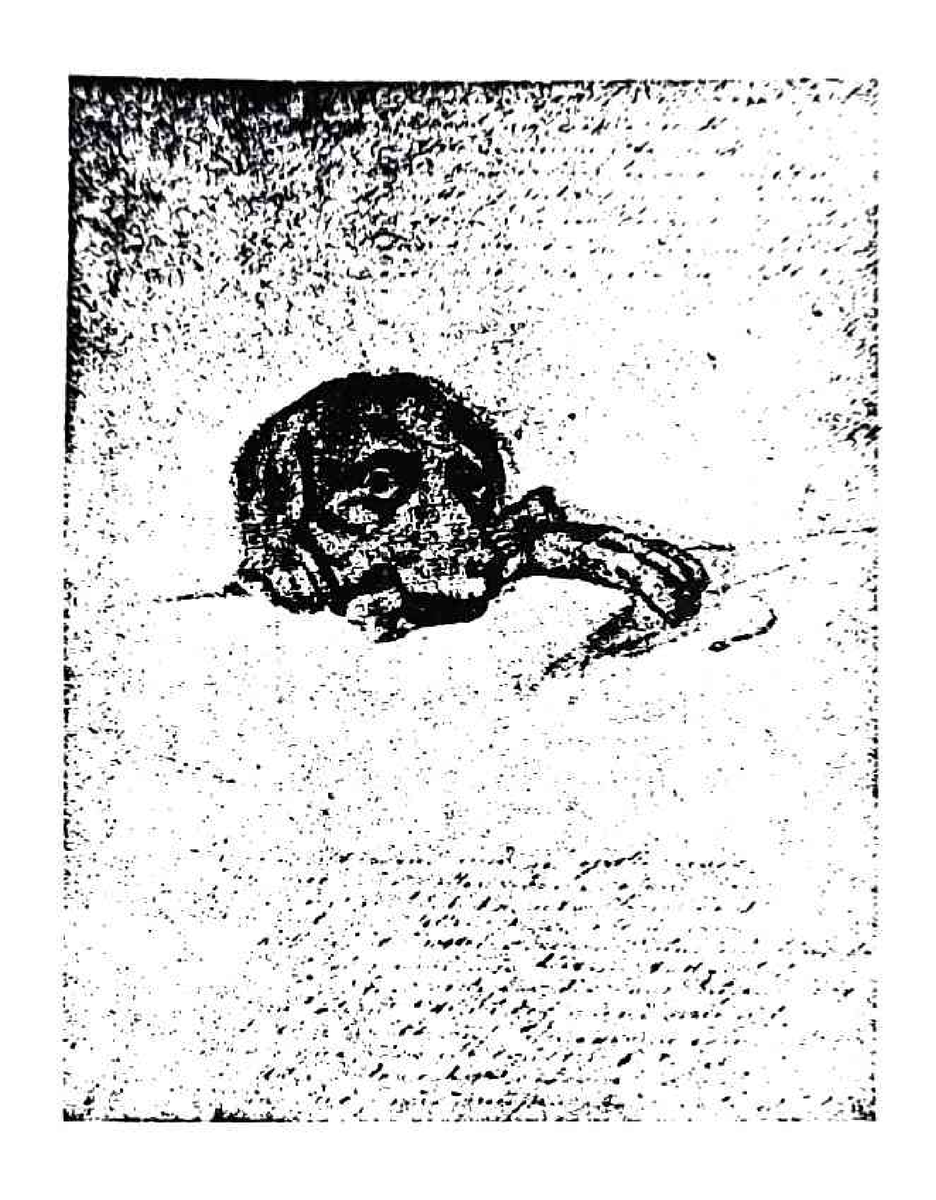
جائزة نوبل فى الطبيعة

جائزة نوبل فى الكيمياء

وعنوانه مكون من كلمة واحدة ، صارمة ، ساطعة :

RADIOACTIVITÉ





صفحة من كراسة ماشيا سكلودوفسكى الخاصة كتبتها فى ١٨٨٥
والنص باللغة الألمانية من شعر « هاينى »
والكلب كلبها ، مرسوماً بريشتها ...

سجلّ الشرف

الجوائز والأوسمة الدولية والألقاب الفخرية

التي مُنحتها

التلميذة الخالدة

PRIX DECERNES A MADAME CURIE

1898 *Prix Gegner, Académie des Sciences de Paris.*

1900 *Prix Gegner, Académie des Sciences de Paris.*

1902 *Prix Gegner, Académie des Sciences de Paris.*

1903 *Prix Nobel de Physique (en commun avec H. Becquerel et Pierre Curie).*

1904 *Prix Osiris (décerné par le Syndicat de la Presse Parisienne, partagé avec M.E. Branly).*

1907 *Actonian Prize, Royal Institution of Great Britain.*

1911 *Prix Nobel de Chimie.*

1921 *Prix de Recherche Ellen Richards.*

1924 *Grand Prix du Marquis d'Argenteuil pour 1923, avec médaille de bronze, Société d'Encouragement pour l'Industrie Nationale.*

1931 *Cameron Prize, décerné par l'Université d'Edinburgh.*

MEDAILLES DECERNEES A MADAME CURIE

1903 *Médaille Bérthelot (en commun avec Pierre Curie).*

1903 *Médaille d'honneur de la Ville de Paris (en commun avec Pierre Curie).*

1903 *Médaille Davy, SociétéRoyale de Londres (en commun avec Pierre Curie).*

1904 *Médaille Matteucci, Société Italienne des Sciences (en commun avec Pierre Curie).*

1908 *Grande Médaille d'or Kuhlmann, Société Industrielle de Lille.*

1909 *Médaille d'or Elliott Cresson, Institut Franklin.*

1910 *Médaille Albert, Royal Society of Arts, London.*

1919 *Décoration Grand-Croix de l'Ordre Civil d'Alphonse XII d'Espagne.*

1921 *Médaille Benjamin Franklin, American Philosophical Society, Philadelphie.*

1921 *Médaille John Scott, American Philosophical Society, Philadelphie.*

1921 *Médaille d'or de l'Institut des Sciences Sociales, New-York.*

1921 *Médaille William Gibbs, American Chemical Society, Chicago.*

1922 *Médaille d'or " The Rodiological Society of North America.*

1924 *Médaille du Bon mérite de première classe du Gouvernement Roumain, Brevet et Médaille d'or.*

1929 *Médaille du New-York City Federation of Women's Club.*

1931 *Médaille de l'American College of Radiology.*

TITRES HONORIFIQUES DECERNES A MADAME CURIE

1904 *Membre honoraire de la Société Impériale des Amis de Sciences Naturelles d'Anthropologie et Ethnographie de Moscou.*
1904 *Membre d'honneur de la Royal Institution of Great Britain.*
1904 *Membre étranger de la Société Chimique de Londres.*
1904 *Membre correspondant de la Société Batave de Philosophie.*
1904 *Membre honoraire de la Société de Physique du Mexique.*
1904 *Membre honoraire de l'Académie des Sciences de Mexico.*
1904 *Membre honoraire de la Société d'Encouragement pour l'Industrie et le Commerce de Varsovie.*
1906 *Membre correspondant de la Société Scientifique d'Argentine.*
1907 *Membre étranger de la Société Hollandaise des Sciences.*
1907 *Docteur en droit, honoris causa, de l'Université d'Edinburgh.*
1908 *Membre correspondant de l'Académie Impériale des Sciences de Saint-Pétersbourg.*
1908 *Membre d'honneur de Verein für Naturwissenschaft in Braunschweig.*
1909 *Docteur en Médecine honoris causa de l'Université de Genève.*
1909 *Membre correspondant de l'Académie des Sciences de Bologne.*
1909 *Membre associé étranger de l'Académie Tchèque pour les Sciences, les Lettres et les Arts.*
1909 *Membre d'honneur du Collège de Pharmacie de Philadelphie.*
1909 *Membre actif, Académie des Sciences de Cracovie.*
1910 *Membre correspondant de la Société Scientifique du Chili.*
1910 *Membre de l'American Philosophical Society.*
1910 *Membre étranger de l'Académie Royale Suédoise des Sciences.*
1910 *Membre de l'American Chemical Society.*
1910 *Membre d'honneur de la Société de Physique de Londres.*
1911 *Membre honoraire de la Society for Psychical Research de Londres.*
1911 *Membre correspondant étranger de l'Académie des Sciences du Portugal.*
1911 *Docteur ès-sciences, honoris causa, de l'Université de Manchester.*
1912 *Membre d'honneur de la Société Chimique de Belgique.*
1912 *Membre collaborateur de l'Institut Impérial de Médecine Expérimentale de Saint-Pétersbourg.*
1912 *Membre effectif de la Société Scientifique de Varsovie.*
1912 *Membre honoraire de Philosophie de l'Université de Lemberg.*
1912 *Membre de la Société de Photographie de Varsovie.*
1912 *Docteur honoris causa de l'Ecole Polytechnique de Lemberg.*
1912 *Membre d'honneur de la Société des Amis des Sciences de Vilna.*
1913 *Membre extraordinaire de l'Académie Royale des Sciences d'Amsterdam (section Mathématique et Physique).*
1913 *Docteur honoris causa de l'Université de Birmingham.*
1913 *Membre d'honneur de l'Association des Sciences et des Arts d'Edinburgh.*

1914 *Membre honoraire de la Société Physico-Médicale de l'Université de Moscou.*

1914 *Membre honoraire de la Cambridge Philosophical Society.*

1914 *Membre honoraire de l'Institut Scientifique de Moscou.*

1914 *Membre honoraire de l'Institut d'Hygiène de Londres.*

1914 *Membre correspondant de l'Académie des Sciences Naturelles de Philadelphie.*

1918 *Membre d'honneur de la Societé Royale Espagnole d'Electrologie et Radiologie Médicales.*

1919 *Présidente d'honneur de la Société Royale Espagnole d'Electrologie et de Radiologie médicales.*

1919 *Directeur honoraire de l'Institut du Radium de Madrid.*

1919 *Professeur honoraire de l'Université de Varsovie.*

1919 *Membre de la Société Polonaise de Chimie.*

1920 *Membre ordinaire de l'Académie Royale des Sciences et des Lettres de Danemark.*

1921 *Docteur ès-sciences honoris de l'Université de Yale.*

1921 *Docteur ès-sciences honoris causa de l'Université de Chicago.*

1921 *Docteur ès-sciences honoris causa de Northwestern University.*

1921 *Docteur ès-sciences honoris causa de Smith College.*

1921 *Docteur ès-sciences honoris causa de Wellesley College.*

1921 *Docteur honoris causa de Women's Medical College of Pensylvania.*

1921 *Docteur ès-sciences honoris causa de Columbia University.*

·921 *Docteur en droit honoris causa de l'Université de Pittsburg.*

921 *Docteur en droit honoris causa de l'Université de Pensylvania.*

21 *Membre honoraire de la Société des Sciences Naturelles de Buffalo.*

·1 *Membre honoraire du Club de Minéralogie de New-York.*

921 *Membre honoraire de la Société Radiologique de l'Amérique du Nord.*

1921 *Membre honoraire de la New-England Association of Chemistry Teachers.*

1921 *Membre honoraire de l'American Museum of Natural History.*

1921 *Membre honoraire de la New-yersey Chemical Society.*

1921 *Membre d'honneur de la Société de Chimie Industrielle.*

1921 *Membre de l'Académie de Christiania.*

1921 *Membre d'honneur à vie de la Knox Academy of Arts and Sciences.*

1921 *Membre honoraire de l'American Radium Society.*

1921 *Membre honoraire de la Nordisk Forening for Medecinsk Radiologi.*

1921 *Membre d'honneur de l'Alliance Française de New-York.*

1922 *Membre associé libre, Académie de Médecine de Paris.*

1922 *Membre honoraire du Groupe Académique Russe de Belgique.*

1923 *Membre d'honneur de la Société Roumaine d'Hydrologie Médicale et de Climatologie.*

1923 *Docteur en droit honoris causa de l'Université d'Edinburgh.*

1923 *Membre honoraire de l'Union des Mathématiciens et Physiciens Tchécoslovaques à Prague.*

1924 *Citoyen honoraire de la Ville de Varsovie.*

1924 *Nom inscrit (avec celui de Pasteur) au-dessus d'un des sièges de Town Hall de New-York.*

1924 *Membre d'honneur de la Société Polonaise de Chimie de Varsovie.*

1924 *Docteur en Médecine honoris causa de l'Université de Cracovie.*

1924 *Docteur en Philosophie honoris causa de l'Université de Cracovie.*

1924 *Citoyen honoraire de la Ville de Riga.*

1924 *Membre honoraire de la Société de Recherches Psychiques d'Athènes.*

1924 *Membre d'honneur de la Société Médicale de Lublin (Pologne).*

1926 *Membre ordinaire de la "Pontificia Tiberina" de Rome.*

1926 *Membre d'honneur de la Société de Chimie de Sao Paulo (Bresil).*

1926 *Membre correspondant de l'Academia Brasileira de Sciencias.*

1926 *Membre d'honneur de la Fédération Brésilienne pour le Progrès du Féminisme.*

1926 *Membre honoraire de la Sociedad de Pharmacia e Chemica de Sao Paulo do Brazil.*

1926 *Membre d'honneur de l'Association Brésilienne de Pharmaciens.*

1926 *Docteur honoris causa de la Section de Chimie de l'Ecole Polytechnique de Varsovie.*

1927 *Membre honoraire de l'Académie des Sciences de Moscou.*

1927 *Membre étranger de la Société des Lettres et des Sciences de Bohème.*

1927 *Membre honoraire de l'Académie des Sciences de l'U.R.S.S.*

1927 *Membre d'honneur de l'Interstate Postgraduate Medical Association of North America.*

1927 *Membre honoraire du New Zealand Institute.*

1929 *Membre d'honneur de la Société des Amis des Sciences dePosnan(Pologne).*

1929 *Docteur en droit honoris causa de l'Université de Glasgow.*

1929 *Citoyen honoraire de la Ville de Glasgow.*

1929 *Docteur ès-sciences honoris causa de l'Université de Saint-Lawrence.*

1929 *Membre honoraire de la New-York Academy of Medecine.*

1929 *Membre honoris causa de la Polish Medical and Dental Association of America.*

1930 *Membre d'honneur de la Société Française des Inventeurs et Savants.*

1930 *Présidente d'honneur de la Société Française des Inventeurs et Savants.*

1931 *Membre d'honneur de la Ligue mondiale pour la paix, Genève.*

1931 *Membre d'honneur de l'American College of Radiology.*

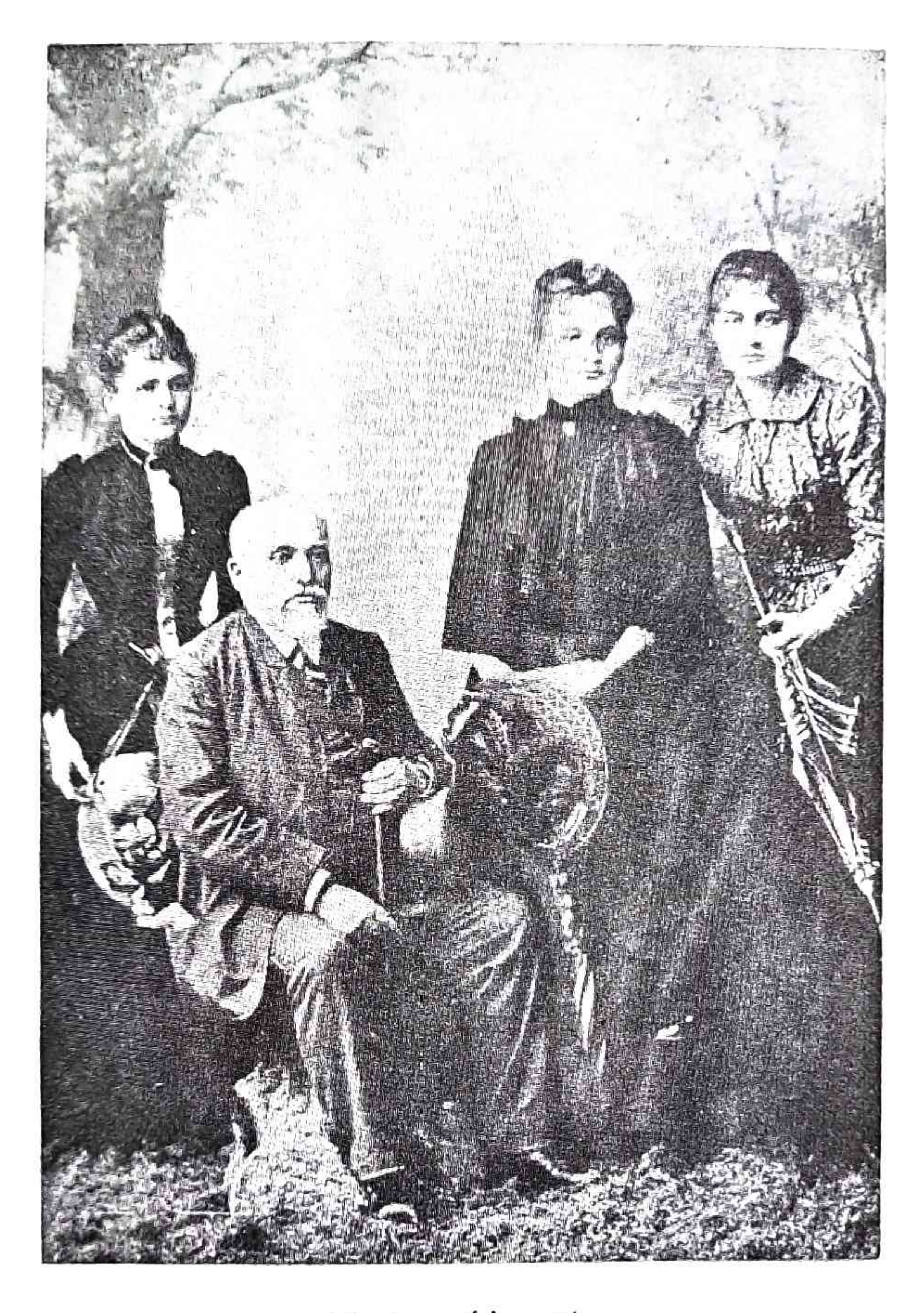
1931 *Membre correspondant étranger, Académie des Sciences Exactes Physiques et naturelles, Madrid.*

1932 *Membre de la Kaiserlich Deutschen Akademie der Naturforcher zu Halle.*

1932 *Membre d'honneur de la Société de Médecine de Varsovie.*

1932 *Membre d'honneur de la Société Chimique Tchécoslovaque.*

1933 *Membre honoraire du British Institute of Radiology and Roentgen Society, Londres.*



مسيو سكلودوفسكي وبناته الثلاث

عن صورة أخذت في ١٨٩٠

من الشمال إلى اليمين : مانيا (التلميذة الخالدة) ، وبرونيا ، وهيلا



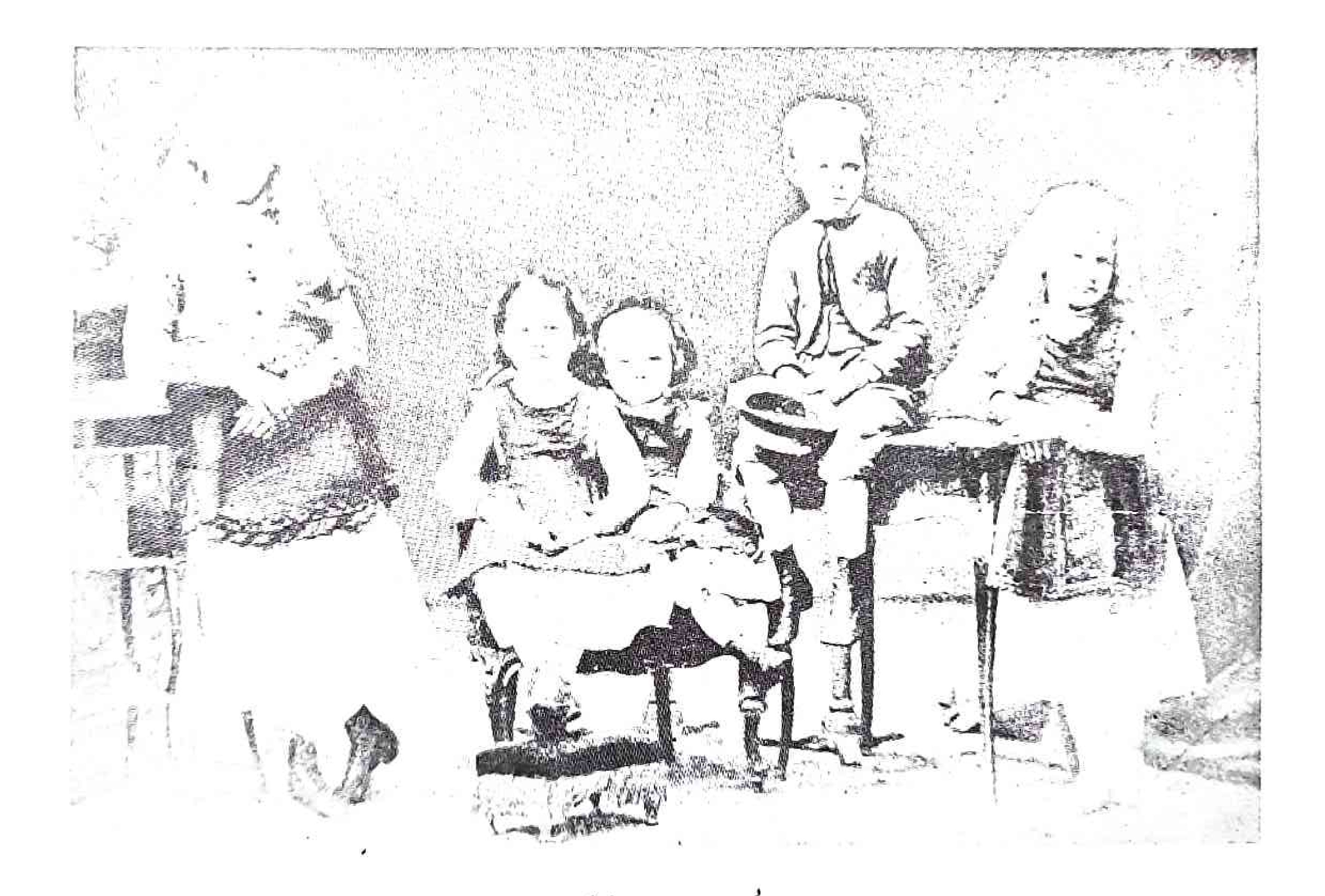
أسرة كورى

جاك وبيير كورى

وقد جلس أمامهما مدام كورى (الوالدة) والدكتور أوچين كورى (الوالد)



مدام سكلودوفسكى
والدة التلميذة الخالدة



أبناء سكلودوفسكي

من اليسار إلى اليمين : زوسيا . هيلا . مانيا (التلميذة الخالدة) . جوزيف . برونيا



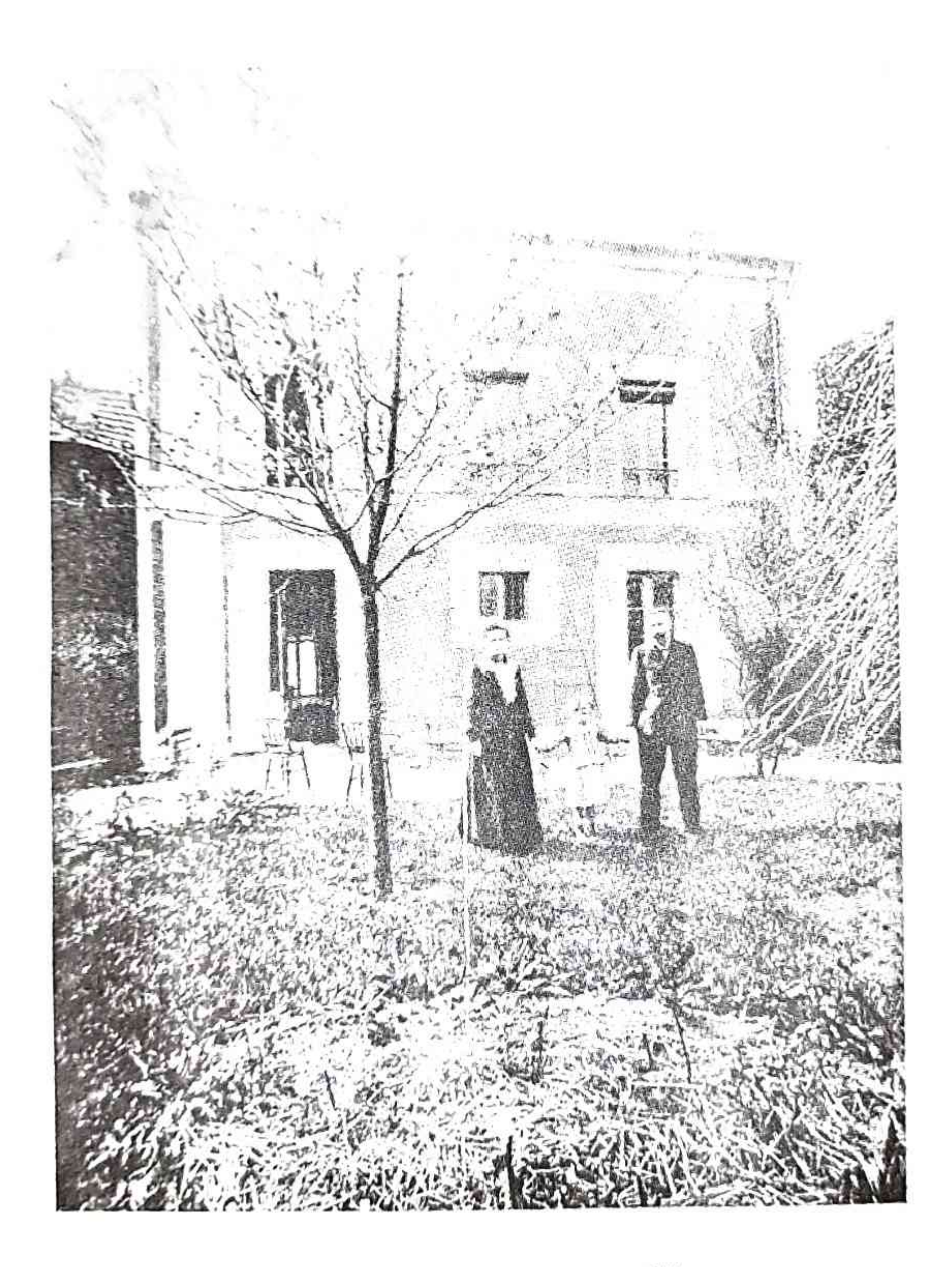
الشقيقتان المثاليتان

برونيا ومانيا — عام ١٨٨٦



بيير وماري كوري

في مستهل حياتهما الزوجية . والدراجتان العزيزتان !



التلميذة الخالدة وقرينها بيير كورى
وبينهما طفلتهما إيرين فى حديقة بيت شارع كلرمان ١٩٠٤



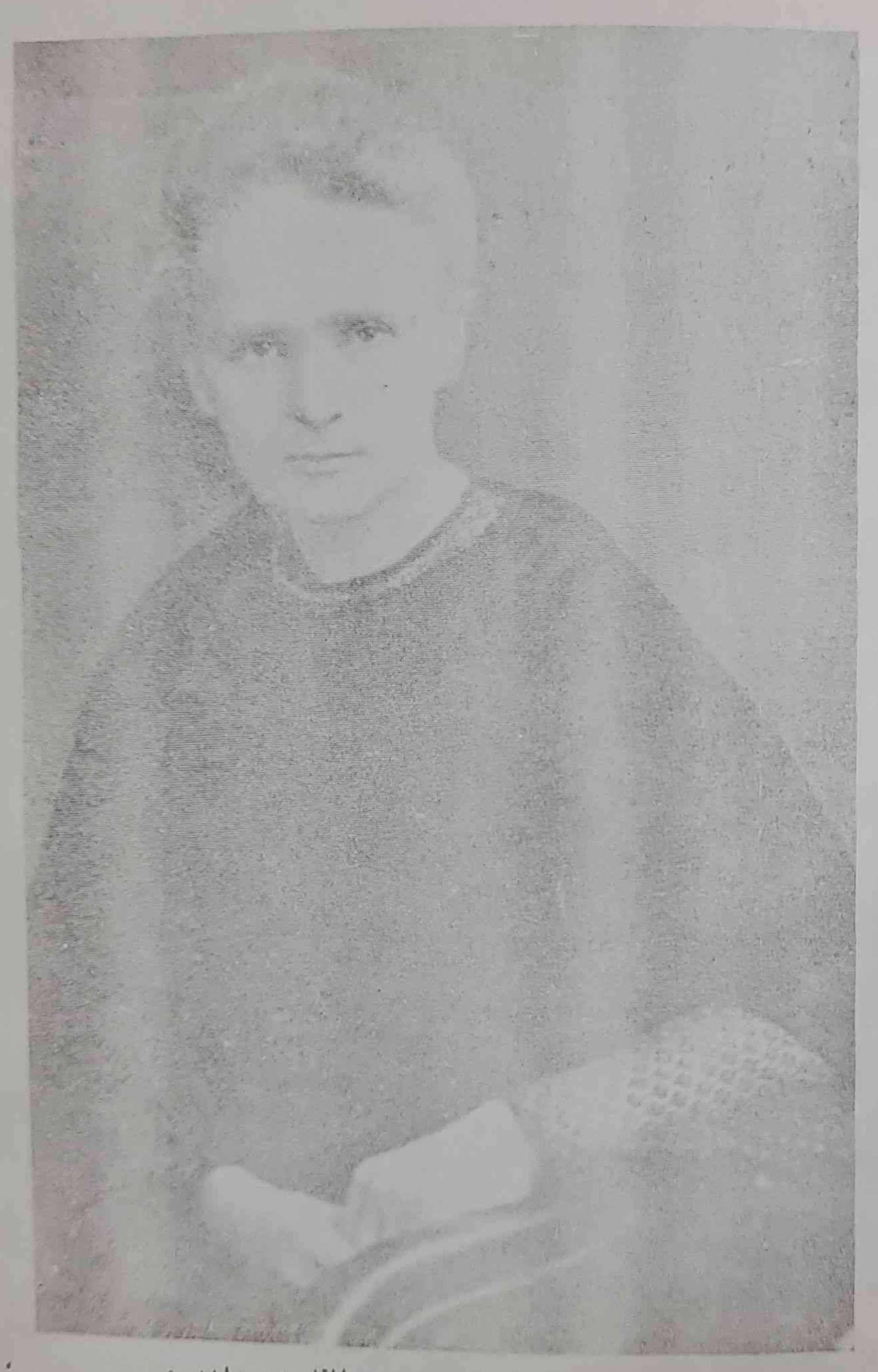
بيير كورى

وهو يحاضر فى السوربون عام ١٩٠٦



التلميذة الخالدة

وكريمتاها ايرين وايف — ١٩٠٨



التلميذة الخالدة

في ذروة النجاح



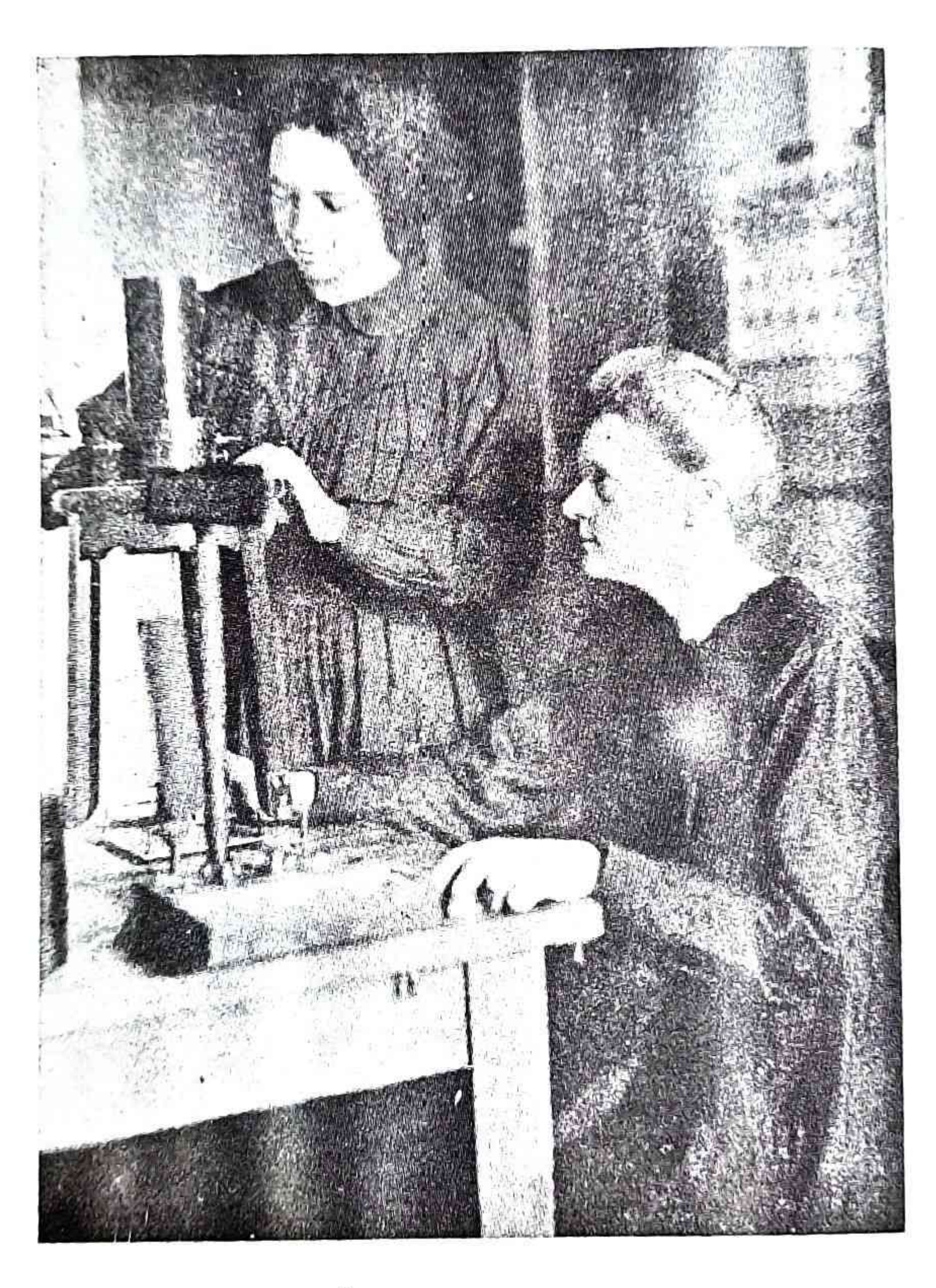
التلميذة الخالدة

في معملها عام ١٩١٢

بعد عام من ظفرها بجائزة نوبل الثانية



التلميذة الخالدة
مع الدكتور بجرام عميد كليـــة الهندسة
بجامعة كولومبيا الأمريكية ١٩٢١



التلميذة الخالدة
وكريمتها إيرين ١٩٢٥



التلميذة الخالدة

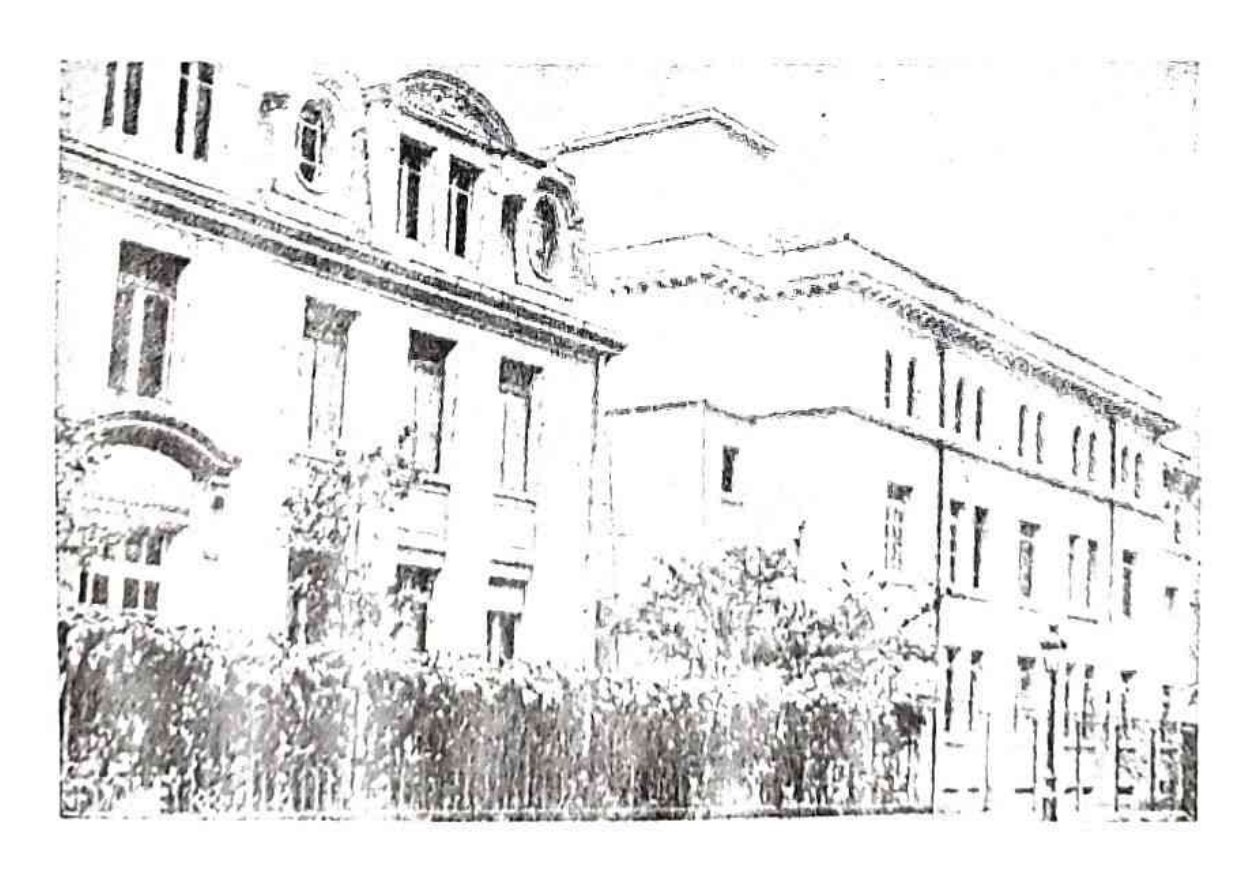
فى مكتبها بمعهد الراديوم فى باريس

حيث استقبلت أحمد الصاوى محمد عام ١٩٢٧



التلميذة الخالدة
قبل وفاتها بثلاث سنوات

معهد الراديوم فى ڤارسوڤيا



معهد الراديوم فى باريس

فهرس

الجزء الأول

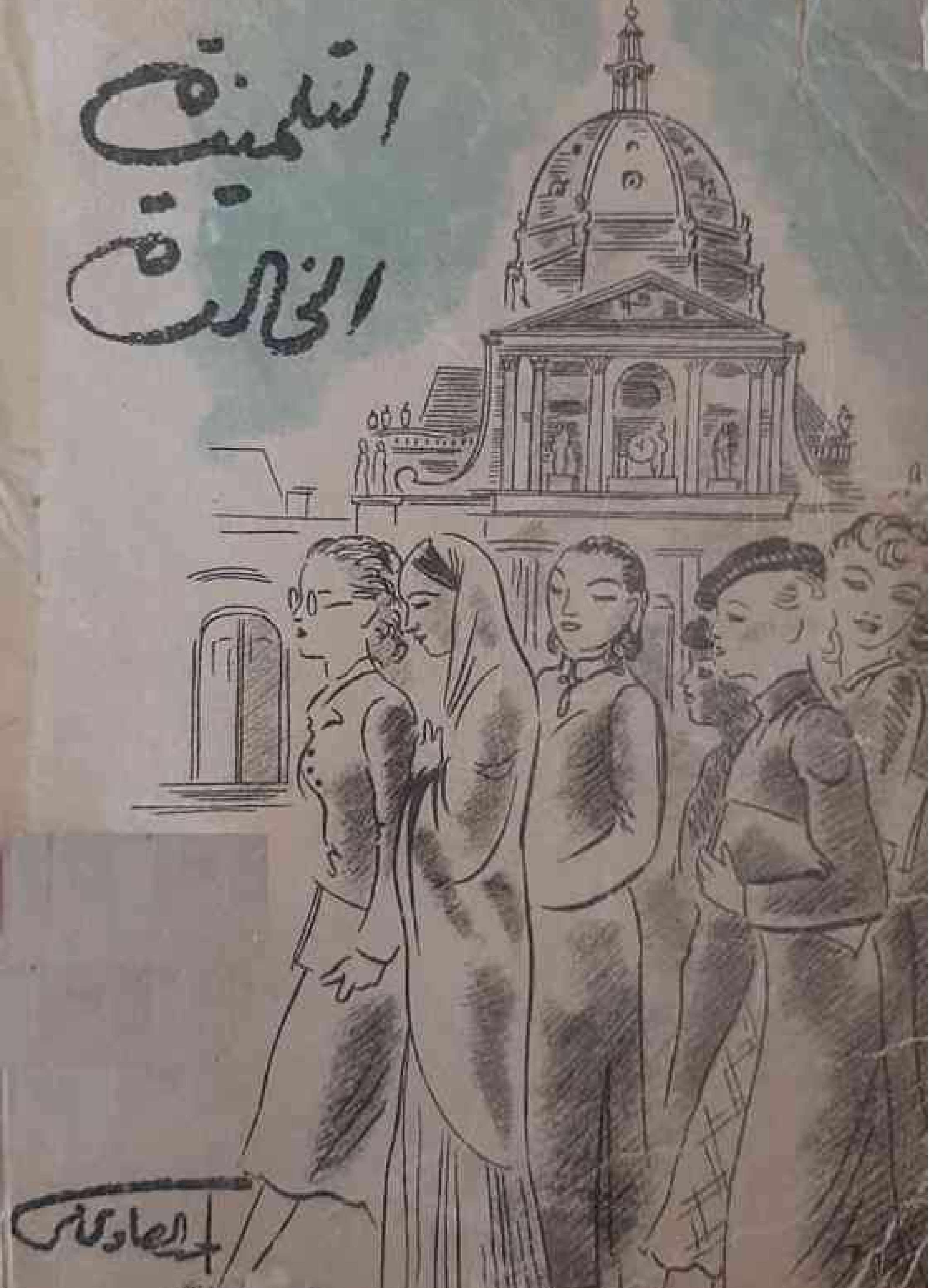
الجزء الثانى

الجزء الثالث

فهرس الصور

الغـــلاف
بريشة الفنان المجرى الشهير
. اريك دى مانيش

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية



التلميذة
الخالدة
احمد الصاوى